الكتاب الأول : ٢٠١٧/٨/١٣
Twitter : @abdullah1994

سمير عبده

دار الكتاب العربي
دمشق - سورية

التحليل النفسي لغراميات المشاهير

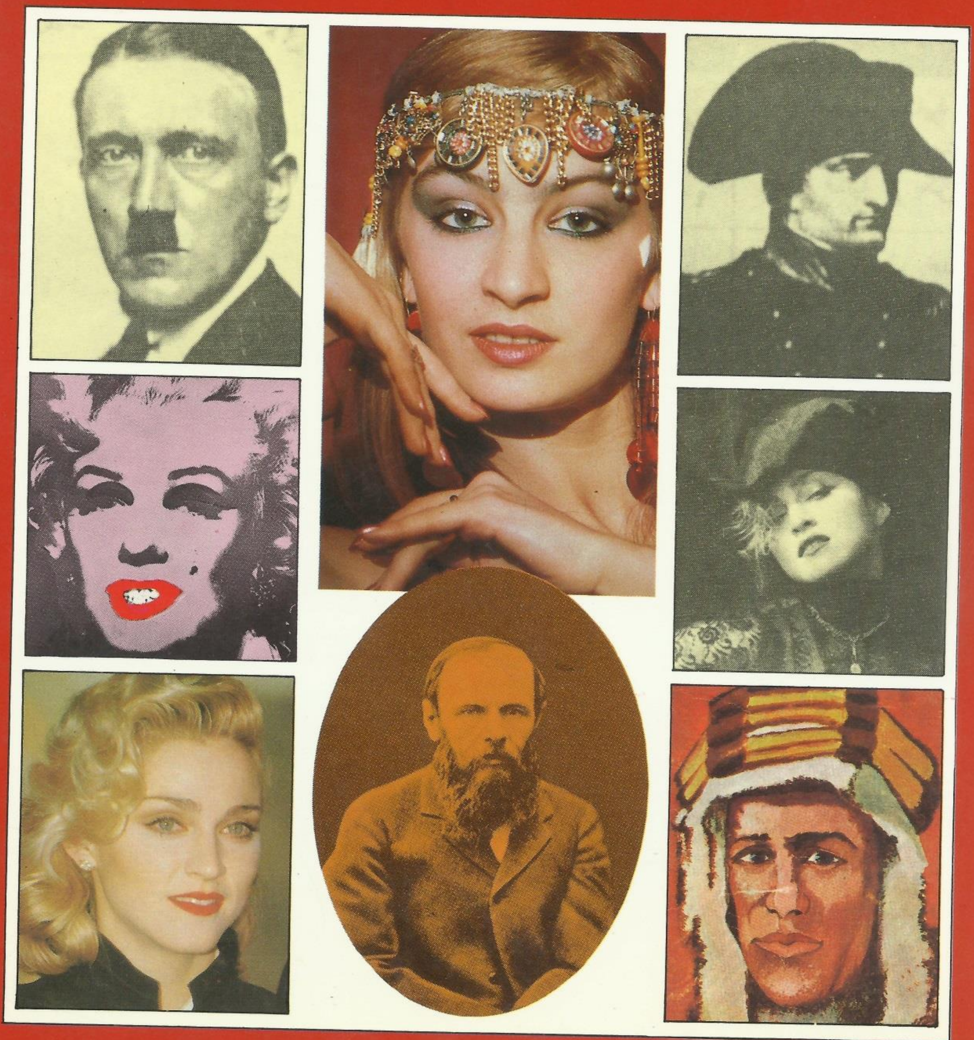

2015

التحليل النفسي لغراميات المشاهير

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٩٩٠ م - ١٤١٠ هـ

دار الكتاب العربي

دمشق - الحلبوني - مدخل فندق الشموع
هاتف: ٢٢٣٨١١ - ص ب: ١٢٣٤٤ دمشق تلكس/دمشق/٤١١٥٤١

القاهرة - مصر الجديدة - مساكن مصر للتعمير
شيراتون المطار المنطقة الثالثة عمارة ٢٢٠ شقة ٤ هاتف ٢٦٩٢٧٥١

التحليل النفسي لغراميات المشاهير

سمير عبده

دار الكتاب العربي
دمشق - سورية

المقدمة

Twitter : @abdullah1994

كلنا عشنا في الغرام، أو على الاقل معظمنا، كما كانت لاكثريتنا جولات من الغراميات ربما كانت لفرد عادي اكثر اثارة من الناس الذين تناولناهم في سياق كتابنا.

ولكن ما ادرانا بهذه القصص التي حصلت لهؤلاء طالما انهم من العامة، ولم يتناولهم المؤرخون حين كتابتهم لسيّر الناس، لان التاريخ كان وقفاً على الملوك والعظماء ولم يكن لعامة الناس إلا بعد الثورة الفرنسية. ومع ذلك، فان هؤلاء الناس لا تتناول سيّرهم الغرامية وسائل الاعلام إلا في حالة حدوث حادث، اما المشاهير فان قصص غرامياتهم مالئة الكتب والمجلات.

لهذا يحب الناس ان يقرأوا عن غراميات المشاهير، لان ذلك يخفف الضغوط الحياتية عليهم ويجعلهم يحسون بالاهمية، ويساعدهم على التكيف مع الحياة. فحياتنا، كما هي مفروضة علينا، حياة مسرفة العبء، وهي تفرض علينا ارهاقاً نلقيه في العناء، وفي خيبة الامل، وفي مهمات عسيرة لا تحل. فاذا وجب علينا تحملها لم نستطع الاستغناء عن المسكّنات (ويقول تيودور فونتان وهذا لا يتم إلا باستخدام «هياكل اسعاف») وقد تتألف هذه المسكّنات من انواع ثلاثة: اولاً الهاءات قوية تساعدنا على اعتبار بؤسنا شيئاً تافهاً، ثم ارضاءات بديلة تخفف وطأة هذا البؤس، واخيراً مخدرات تفقدنا الاحساس به. وليس في وسعنا ان نستغني عن استعمال هذه الوسيلة أو تلك.

اننا نحب ان نقرأ اكثر ما نستطيع عن هؤلاء المشاهير، لان ذلك يجعلنا نتخلص من واقعنا العادي لفترة من الزمن، والهروب الى كتاب أو مجلة تهتم بالمشاهير هو جزء اساسي من حياة معظم الناس الذين تتركز اهتماماتهم على زواج المشاهير وطلاقهم وغرامياتهم وصراعاتهم، وفي اوقات الانشغال بهذه الامور ننسى مشاكلنا ونركز على اناس آخرين.

كما ان متابعة المشاهير تجعلنا نحس بالاهمية، وكأننا قريبون منهم، وكثيرون منا يمارسون احلام اليقظة حول الشهرة والمرأة، وحين يكتشف احدنا انه يشارك شهيراً نفس غرامياته، أو في بعض عواطفه، فان ذلك يساعده على الاحساس بالاقتراب منه.

ومما يجعلنا نهتم بالمشاهير هو انهم يجعلوننا متصلين بعصرهم، مقتفين خطاهم، مطلعين على مجرى الحياة التي كانوا يحيونها.

إن الاهتمام بالمشاهير مهم لانه يجعلنا نستخدم خيالنا بطريقة صحية، على ان حياة المشاهير قد لا توافقنا، ذلك ان هؤلاء لشعورهم انهم شخصيات مهمة، فان طبيعة غرامياتهم تكون في الغالب غير سوية، أو قد تحمل سمات العنجهية، أو لان البعض منهم ممن يحمل سمات العبقرية فان طباعه لا تتوافق مع سواد الناس، لهذا تكون طبيعة ونوعية غرامياتهم غير مألوفة لنا، تحمل سمات الامراض النفسية، ومع ذلك فاننا نتعلق بها ونحاول ان نقلدها ـ سواء اكان ذلك خطأ ام صح ـ لانها تحملنا الى احلام اليقظة.

في كتابنا هذا تناولنا سيرة بعض المشاهير من السياسيين والادباء، ملقين الاضواء على حياتهم الغرامية، ومن ثم محللين طبيعة تصرفاتهم هذه، بكل ابعادها، من الزاوية النفسية.

وهذا الكتاب مع كتبنا الاخرى، يغني المكتبة النفسية العربية بمواضيع يحتاجها القارىء، في تعميق ثقافته النفسية، وهو هدفنا الاول والاخير.

سمير عبده

دمشق

غراميات المشاهير في التحليل النفسي

جاء في مختار الصحاح للرازي في تعريفه للغرام انه الشر الدائم والعذاب. وقوله تعالى (ان عذابها كان غراماً) قال أبو عبيدة: أي هلاكاً والزاماً لهم. قال ومنه رجل مغرم بحب النساء. والغرام: الولوع، وقد اغرم بالشيء أي اولع به.

ومن خلال الحالات المعروضة في كتابنا هذا نرى نماذج متعددة، متباينة ومتباعدة، لقصص من الغرام مر بها اولئك الذين ذكرهم التاريخ باسمائهم الكبيرة، سواء في الفكر أو السياسة أو الفن، فكانت علامة من علامات الدراسة والتحليل، لقربها من حالاتنا الغرامية أو لبعدها، فهي لهذا أو ذاك جديرة بالتحليل النفسي لاستخلاص العبر.

وفي كل ذلك يمكن القول ان جوهر الغرام لم يتبدل، كان هناك رجال ونساء عرفوا كيف يغرمون بكل قواهم، وكيف يرضون باستمرار الغرام، وكيف يخلصون فيه، وكيف يحتملون عذاباته. ومع انهم كانوا قلة، فان هذه القلة احتفظت بالمشعل المقدس، وهي التي خلدت في قلوبنا حتى اليوم.

نحن نغرم بالشيء بسبب حرماننا منه أو لعدم استطاعتنا الوصول اليه، فحين ندنو منه نتمسك به، نعطيه ذاتنا أو نجافيه. وكما ذهب بعض علماء النفس مثل جونز وكلين وغيرهما فان كل نوع من انواع الحرمان، وكل عائق يعرقل ارضاء اندفاعياً، يقود، أو يمكن ان يقود، الى زيادة حدة الشعور بالذنب. اما فرويد فيعتقد بان هؤلاء يبالغون في التقليل من شأن الصعاب

النـظرية عندما يطبقون هذا المبدأ على الاندفاعات العدوانية وحدها، ولا يجدون ادلة كثيرة تناقض هذه الفرضية.

وعلى ذلك كيف نفسر تفسيراً حركياً واقتصادياً انه ينشأ تقوية للشعور بالذنب حيثما يوجد مطلب عشقي لم يفز بالرضى؟

يرى فرويد ان ذلك لا يبدو ممكناً إلا بواسطة المداورة التالية:

إن الحيلولـة دون الارضـاء العشقي تقـود الى بعض عدوانية ضد الشخص الذي يمنع هذا الارضاء، ولا بد من زجر هذه العدوانية بدورها. ولكن عندما تزجر هذه العدوانية وتحوّل الى (الانا العليا) فان العدوانية وحدها هي التي تنقلب شعوراً بالذنب.

ويمكن توضيح ذلك بصورة ابسط واعمق عدداً كبيراً من اساليب النمو النفسية اذا نحن قصرنا اكتشافات التحليل النفسي المتصلة بالشعور بالذنب على صدور هذا الشعور عن اندفاعات عدوانية وحسب.

إن السؤال الـذي نطرحـه هنـا لا يعـطينـا جوابـاً وحيداً، لان نوعي الانـدفـاعات، وقد شعرنا بذلك شعوراً مسبقاً، لا يتجليان البتة في الواقع تقريباً تجلياً محضاً ينفصل احدهما عن الآخر، ولكننا اذا اخذنا بعين الاعتبار حالات قصوى، وجدنا انها توجهنا بلا ريب في الاتجاه الذي ذكرناه.

ما من شيء في ذواتنا اكثر ثبوتاً بصورة سوية من شعورنا بذاتنا من (انا) الخاصة، فان هذه (الانا) تبدو لنا مستقلة، وواحدة، ومتمايزة تماماً عن كل ما عداهـا. ولكن ان تكـون هذه الظاهرة خادعة، وان تخرق (الانا) على العكس، كل حد دقيق وتستـطيل في كيان مجـرد آخـر لاشعـوري نسميه (الـذات) وهي لا تصلح إلا مظهراً له، فهذا ما تعلمنا اياه بحوث التحليل النفسي اول ما تعلمنا. ومن ناحية اخرى، اننا نرقب ايضاً ايضاحات كثيرة اخرى عن الصلات التي تربط (الانا) بالذات، ولكننا اذا نظرنا الى (الانا) من خارج على الاقل، بدا لنا انها تتضمن حدوداً جلية ودقيقة.

ويقودنا التحليل النفسي لغراميات المشاهير الى القول انه لا توجد إلا

حالـة واحدة ـ وهي في الحق حالة استثنائية، ولكننا لا نستطيع ان نعتبرها بسبب ذلك حالة فرضية ـ يمكن ان تغير بطبعها (الانا) بالذات: ففي اوج حالة الحب، يتعرض خط الفصل بين (الانا) وبين الموضوع لخطر الامحاء. وسيذهب العـاشق، على خلاف شهـادات الحواس كلها، الى ان (الانا) و(الانت) ليسا سوى شيء واحد، وانه متأهب كل التأهب للتصرف والسلوك كما لو ان الامر كان بالفعل على هذا المنوال. والحق ان ما تستطيع وظيفة فيزيولوجية ايقافه بصورة موقوتة لا بد له ايضاً بصورة طبيعية من ان تشعر به بعض اساليب النمو المرضية. وينبئنا علم الامراض عن كثرة الاحوال التي يصبح فيهـا تحـديد (الانا) بفصلها عن العالم الخارجي تحديداً متردداً، ويكون موضوع خط غير صحيح فعلاً: ففي بعض الحالات، تبدو اجزاء من جسـدنـا الخـاص، بل وعنـاصـر من حياتنـا النفسية الخاصة، غراميات، عواطف، تبـدو كلها غريبة، تبدو على انها لم تبق جزءاً من (الانا). وفي حالات اخرى، يعزو المرء الى العالم الخارجي ما ولد بصورة واضحة في (الانا) وما يترتب عليها ان نعترف به. وعلى هذا النحو يخضع شعور (الانا) نفسه الى متناولات، وان حدوده ليست بالحدود الثابتة.

واذا استخـدم هذا التصـور بشكـل ادق وطبق على آلية الكبت فان اعراض حالات العصاب هي بالدرجة الاولى بدائل عن ارضاءات الغريزة الجنسية التي لم تفز بالتلبية، بل ان كل عصاب قد يكشف عن قدر من شعور لاشعوري بالذنب، وهذا ما يجعل بدوره الاعراض اشد صلابة اذ يستخدمها استخدام عقوبات.

ويمكن تلخيص ذلـك في القـول انـه عندما يخضع اندفاع غريزي للكبت، فان عناصره اللبيدية تتحول الى اعراض، وتتحول عناصره العدوانية الى شعور بالذنب، وهذا التمييز جدير باهتمامنا ولو انه لا يصح إلا بصورة معقولة الى حد ما.

إن علم النفس، لسوء الحظ، انما يقول لنا اقل ما يقول في موضوع

غراميات المشاهير، ويبدو ان نقطة واحدة هي اكيدة، وهي ان الهيجان قد يكون مثلاً نمطياً على النزعة المكبوتة من حيث هدفها. ان (الغرام) و(الفتنة) هما، بصورة اولية، صفتا الموضوع الجنسي. ومن الممكن ان نلاحظ ان الاعضاء الجنسية لا تعتبر بذاتها ابداً بوجه التقريب اعضاء جميلة بالرغم من ان رؤيتها رؤية مثيرة دوماً. وبالمقابل، فان سمة من سمات الجمال تسم على ما يبدو بعض العلامات الجنسية البسيطة.

بيد ان هذه الاعتبارات تظل ناقصة. فاذا كان المنهاج الذي يفرضه علينا مبدأ اللذة، وقوامه نشدان السعادة، منهاجاً يتعذر تحقيقه، جاز لنا بالرغم من ذلك، بل لنقل بصورة اصح من الممكن لنا، ألا نكف عن بذل جهد يرمي الى الاقتراب من تحقيقه. فمن الممكن من اجل بلوغ ذلك ان نسلك في دروب جد مختلفة بحسب وضعنا في المنزلة الاولى إما وجهه الايجابي لنحصل على المتعة أو وجهه السلبي لنتحاشى العناء. ولكننا لا نستطيع تحقيق كل ما نشتهي بسلوك أي درب من هذه الدروب.

إن السعادة، حين ننظر اليها بهذا المعنى النسبي، وهو المعنى الوحيد الذي يمكن ان تتحقق بموجبه على ما يبدو، انها مشكلة اقتصاد ليبيدي فردي. وليس ثمة اية نصيحة تصلح هنا للجميع.

وعلى كل امرىء ان يبحث بنفسه عن الطريقة التي بها يمكن ان يصبح سعيداً، وإن اكثر العوامل تنوعاً ستتدخل في اختيار المسالك المتبعة. وكل شيء يتعلق بجملة الارضاء الحقيقي الذي قد يتوقعه كل فرد من العالم الخارجي، ويتبع الاجراء الذي يمكن ان يجعله مستقلاً عنه ويتبع اخيراً القوة التي يتصرف بها لتعديل هذا العالم بحسب رغباته. هنا سلفاً، وبصورة مستقلة عن الظروف الموضوعية، ستكون البنية النفسية للفرد هي الامر الحاسم.

إن الانسان المتميز بالمزاج الغرامي بالدرجة الاولى سيضع في منزلة الصدارة العلاقات العاطفية مع الغير، والنرجسي ينزع الى الاكتفاء بذاته

وسيبحث عن المتع الاساسية بين تلك التي يمنحها من حياته الداخلية، ورجل العمل لن يرضى بان يفلت منه عالم يستطيع هو ان يتحداه.

وفي صدد ثاني لهذه الانماط، فان طبيعة مواهبه، والدرجة التي يستطيع بلوغها في تصعيده للغرائز، هما اللتان ستفصلان في الاتجاه الذي سيخضع مصلحته له. وسنطوي كل قرار قصي على جزاء ماثل في ان المرء يغدو عرضة للاخطار التي تلازم كل تقنية حيوية حصرية.

وكما يتحاشى التاجر الماهر توظيف رأسماله كله في تجارة واحدة، كذلك فان الحكمة قد تنصح بألا يرقب المرء كل ارضاء من ميل واحد. فالنجاح ليس بنجاح ثابت ابداً، وانما يتبع مجرى عوامل عديدة، ولكن العامل الذي قد يتبعه بالدرجة الاولى هو القدرة التي تتمتع بها بنيتنا النفسية في ان تكيّف وظائفها مع الوسط وفي ان تستخدمها لاهداف اللذة.

إن الكائن الذي ابصر النور وهو مزود ببنية غريزية تتميز بانها غير موائمة سيلقى عنتاً في العثور على السعادة خارج ذاته، اذا لم يضطلع بعبء هذا التحويل، وهو يتبع جميع القواعد، واذا لم يقم باعادة تجميع العوامل التي تتألف منها غريزته الليبيدو تجميعاً لا غنى عنه البتة من اجل فاعليته القادمة، ولاسيما وان المصير سيضعه امام مهمات اصعب.

وآخر تقنية حيوية يجدها، وهي تعده على الاقل بارضاءات بديلة، تمثل في الفرار الى المرض العصبي، فراراً يقوم به في الغالب منذ نعومة اظافره، فاذا رأى الانسان الاكثر تقدماً في السن اخفاق جهوده الرامية الى السعادة وجد ايضاً عزاءه في المتع التي سيجلبها له التسمم المزمن، أو انه سيقوم بمحاولة تمرد يائس ماثل في الذهان.

ويدل اصطلاح الذهان على اضطراب عميق وخلل في تفكير أو وجدان الانسان يغير من نظرته وادراكه للعالم والحياة ويؤثر في طبيعة سلوكه وانتاجه بصورة خطيرة. ويعتقد بان اسبابه ليست نفسانية مباشرة (على الاكثر) بل عضوية كيمياوية مبهمة (داخلية أو وراثية) الطابع. ولعدم توفر ادلة علمية

كافية على حدوث تغير ما في الجهاز العصبي المركزي، فان امراض الذهان دعيت بالذهان (الوظيفي) - أي غير العضوي.

واذا ما قورن الذهان بالعصاب، وجدنا ان العصاب اضطراب نفساني المنشأ على الاغلب، لا يؤثر في نظرة وادراك الانسان للعالم والحياة، بل يزجه في حالة من عدم الارتياح والتوتر والكآبة، ولكنه لا يؤثر في تماسك شخصيته الى حدود تعطيل عمله أو انتاجه. ان سلوك العصابي مفهوم، ولكن سلوك الذهاني مبهم ومحير.

ومن خصائص الذهان الاساسية:

١ - تدهور واضطراب في شخصية الانسان.

٢ - تفكك واضطراب في التفكير ومجرى الذهن.

٣ - اضطراب وتشتت في الوجدان.

٤ - انفصام عن الواقع والحياة.

٥ - حياة حالمة تنتابها الاوهام والهلاوس.

٦ - فقدان بعض أو كل البصيرة - الاستبصار.

وبالطبع، فليس من تناولنا حياتهم النفسية من ناحية غرامياتهم، بكتابنا هذا، ممن اصيبوا بالذهان، ولكن احتمال ذلك وارد للبعض منهم.

لقد اهتم الكثير من الكتاب والمحللين النفسيين بدراسة نفسيات المشاهير*، والسؤال الذي يطرح هنا مرة اخرى، هل الانسان الشهير هو انسان مريض نفسياً؟

إن وصف الحوادث الغرامية المثيرة، التي تبدو انها تتخلى كل التخلي عن المقاصد السيكولوجية، تلقى اهمية كبرى في عالم النفس، ذلك ان القصة الغرامية بكاملها قائمة امام خلفية نفسية غامضة، تنجلي للعين الناقدة اصفى واوضح، كلما كان الشهير غير واع بافتراضاته.

---

* انظر: نفسيات المشاهير - سمير عبده - دار النصر - بيروت ١٩٨٦.

وكما في دائرة مفرغة، فان الاخلاق الجنسية المزدوجة تؤثر في الحياة الجنسية عند الرجل تأثيراً مروعاً مفزعاً، وتترك في الحياة الجنسية عند المرأة اثراً مبيداً، تلك المرأة التي تغدو من جراء نموها ومع تطورها (عفيفة) في ذاتها، حتى في كنف الحياة الزوجية، أي (باردة) تبعث النفور في النفس. وتمكن هذه الحالة ايضاً ظهور الاخلاق المزدوجة، فالرجل يحاول الاستمرار في ارواء رغباته في حضن امرأة تنتمي الى طبقة غير طبقته، بينما هو في الواقع يحتقر مثل هذه المرأة من جراء وعيه الطبقي، ويجد نفسه مرغماً على التمثل بـ (الاخلاق الشريفة) ازاء العالم الخارجي، بينما نلاحظ انه يتمرد ضمنياً على قرينته، ويظهر خلاف هذه المشاعر للعالم الظاهري، وينقل مثل هذه الافكار الى ابنائه.

أُدولف هتلر

اين موقع غراميات هتلر من حياته.
أو.. هل كان هذا الدكتاتور في وضع يسمح له ان يعطي وقتاً لمغامراته.
إن تأثير هتلر في النساء كان كبيراً وقلما نجت واحدة ممن تعرفن عليه من سهامه؟
فاشعاع عينيه ساحر يشبه المغناطيس، ولهذا كثرت النسوة اللواتي كن في حزبه.
ورغم كل معارفه من النسوة فانه لم يتزوج إلا في آخر ايام حياته من ايفا براون.

اما في ايام يفاعته في فيينا، شأنه شأن أي يافع في سنه، فقد التقى هتلر بفتاة تدعى ستيفاني كانت تقوم يومياً بنزهة في الشارع برفقة امها. اعجب بها اعجاباً بالغاً وراح ينتظرها كل يوم عندما تمر مع والدتها ليحظى منها بالنظرة. والنظرة تطورت عنده الى غرام رومانسي، ومع ذلك لم يجرؤ هتلر يوماً على لقائها أو التحدث اليها، ناهيك بالاشارة الى التحرش بها. قيل انه كان يرفض التحدث اليها وتعريفها بشخصه، وذلك كان يعود على الارجح الى طبيعته الخجولة والى كيفية نظرته الاساسية الى العالم المحيط به.

ولعل تعلق هتلر بها وهو لم يزل يافعاً كونها كانت اكبر منه بسنتين.

إن شؤون هتلر الواضحة والصريحة لم تظهر إلا بعد عام ١٩٢٥، أي بعد اعادة تشكيل الحزب النازي وتزعمه عليه بصلاحيات ديكتاتورية وعودته

الى حياة مرتـاحة ومعقولة مالياً واجتماعياً في ميونيخ وغيرها. فادولف هتلر بعدما تخلى عن الجنسية النمساوية في نيسان ١٩٢٥ تجنباً لطرده من المانيا، وبعدما اصبح (بلا جنسية) لانه لم يحصل آنذاك على الجنسية الالمانية، وبعد صدور الامر من جانب معظم الولايات الالمانية بمنعه من القاء الخطب العامة، راح يعيش حياة مرتاحة نسبياً على الصعيد الاجتماعي. ففي هذه الاثناء، أي خلال عام ١٩٢٥، كان قد صدر الجزء الاول من كتابه (كفاحي) الذي كتبه في العام السابق في السجن وكان الريع من الكتاب كبيراً الى الحد الذي جعله يطمئن الى وضعه المالي، بل جعله بين المطمئنين مالياً.

فكـان ان تدفق المـال عليه من ريع الكتـاب الـذي استغله افضـل استغلال. فقد كان يشعر بالحاجة الى ان يكون بين الاثرياء لان هذه الطبقة كانت لاتزال ناقصة في سجلات اعضاء الحزب، وهؤلاء عرف كيف يلاحقهم ويلتقيهم ليسدد اليهم سهام سحره. لقد لحق بهم الى (اوبرزالتسبرغ) فوق بلدة برشتسغادن الواقعة تقريباً على الحدود الالمانية ـ النمسوية، والواقع ان صديق هتلر، ديتريش ايكارت، كان قد اكتشف (نزل بلاترهوف) في تلك المنـطقة الجبلية منذ ١٩٢٣، فهناك كان ايكارت وهرمان ايسر يكثران من اللقاءات والمآدب، اذ على مقربة من النزل كان هناك المقر الصيفي لولي عهد بافاريا السابق الامير لوبرشت الذي كان مارشالاً في الجيش الالماني والذي ابلى احسن البلاء في المعارك على الجبهتين الفرنسية والبلجيكية.

بعـد ذلـك اخـذ رجـال الصناعة والتجارة والادارة يقبلون به سياسياً واجتماعياً ولمسوا منه اقباله على دعمهم بدلاً من العمل على تحطيمهم، فقد انفتحت امامه صالونات سيدات المجتمع في ميونيخ وصار نجم كل حفلة استقبال والرجل الذي تتحلق حوله النساء من كل الاعمار والاصناف في كل صالـون. وبـدأ الحديث طبعاً عن (زير النساء) الذي يدعى ادولف هتلر، وخـاصة من المناشير السرية التي كان يوزعها خصومه السياسيون لمحاولة النيل من سمعتـه بعـدما لمسوا نجاحه وانطلاقه. وفي احد هذه المناشير،

وصف هتلر بانه (لم يعد يعرف القاعدة ولا الاعتدال في علاقته مع النساء وصار يسمي نفسه ملك ميونيخ في السرير). ولم ينف هو نفسه ما قيل عنه، فقد قال ذات مرة، وبعد سنوات (لقد كنت اعرف نساء كثيرات تلك الايام، وبعضهن وقعن في غرامي). ولكن نساء كثيرات، وبينهن متزوجات كثيرات، كن صديقات حميمات لادولف هتلر. بعضهن كن يطلقن على انفسهن لقب (الصديقة الام)، منهن، وهن طبعاً معروفات في المجتمع الالماني، هيلين بشتاين زوجة الصناعي المعروف كارل بشتاين الذي ينتج البيانوات، وفيكتوريا فون ديركسن الذي اصبح ابنها سفيراً في لندن والتي كانت تدعى بين الاوساط النازية (ام الثورة)، وغيرترود فون زايدليتس الغنية جداً، والزا بروكمان زوجة الناشر المعروف في ميونيخ هوغو بروكمان وايرنا هانفشتينغل شقيقة صديق هتلر ارنست هانفشتينغل. ولائحة صديقات هتلر في العشرينات ليست بالقصيرة على الاطلاق، منهن ايضاً كارولا هوفمان ارملة مدير مدرسة في ميونيخ وامرأة فنلندية من عائلة فون سايدل، والاميرة المطلقة ستيفاني فون هوهنلوه، وجيني هاوغ شقيقة سائق سيارته، واليانور باور التي كانت كثيرة التدين فانضمت الى الحزب النازي وانجبت ولداً غير شرعي.

ورغم معارف هتلر النسائية هذه، فأين النساء اللواتي كانت لهن علاقات غرامية مع ادولف هتلر؟ هذا ما لا يمكن اثباته بالشكل الجازم. كثيرات منهن كن ولا شك يسعين وراء علاقة معه من غير ان يستطيع اي شخص ثالث وضع الاصبع على الجرح. وحتى اليوم لايزال الامر غامضاً جداً حول علاقة هتلر الغرامية بزوجة قنصل بلغاريا الفخري في ميونيخ ادوارد اوغست شارر الصناعي الالماني.

لكن بعض هذه العلاقات الغرامية انتهى الى مأساة: هنريش هوفمان، رئيس مصوري هتلر، قال ان هتلر كانت له علاقة غرامية عام **١٩٢١** مع فتاة حاولت في ما بعد ان تشنق نفسها في غرفتها بالفندق. كما كانت المشكلات العاطفية مع هتلر بالنسبة الى نساء عديدات السبب الاساسي لمحاولتهن

الانتحار: منهن سوزي ليبتاور ويونيتي متفورد ومارتا دود وماريا رايتر. اما الفتاة غيلي راوبال، وهي احدى نسيبات هتلر، فقد كانت خليلته الحقيقية واتى بها الى ميونيخ عام ١٩٢٨. وقد انتحرت في ١٨ ايلول عام ١٩٣١ بان اطلقت النار على نفسها، وقيل آنذاك انها كانت حاملاً.

لقد كان هتلر واثقاً من تأثيره على النساء، وقد استغل ذلك دون كثير تردد، عام ١٩٤٢ راح يحدث اصدقاءه حول مائدة الطعام: (من صديقاتي المسنات كانت السيدة هوفمان وحدها دائمة الاهتمام بي. اما بالنسبة الى السيدة بروكمان، فقد حدث ذات مرة ان احدى سيدات مجتمع ميونيخ حرمت من تلقي الدعوات لان السيدة بروكمان لمحتني اقبل يدها في احد صالوناتها وانحني امامها احتراماً وافترضت ان الامور بيننا متوطدة اكثر من اللازم. والواقع ان السيدة المشار اليها كانت جميلة جداً وربما كانت لها مشاريعها التي تتعلق بي، وهكذا شأنها وانا لا ادري به. وللمناسبة كنت اعرف امرأة يتغير صوتها لشدة غضبها كلما تبادلت في احد الصالونات ولو كلمات بسيطة مع امرأة اخرى).

ولهتلر ملاحظات جارحة عن النساء والزواج. ففي احدى الامسيات على الجبهة خلال عام ١٩٤٢ قال لمن حوله (ان اسوأ ما في الزواج انه يستدرج المطالب حول الحقوق. اعتقد في هذه الحالة انه من الافضل الاحتفاظ بعشيقة بدلاً من الزوجة). وفي تلك الجلسة كان رأيه ايضاً انه (يحق للرجل ان تتاح له الفرصة لان يترك آثاره على اية فتاة تعجبه، فالمرأة لا تريد غير هذا). وفي مناسبة اخرى خلال عام ١٩٤٢ قال: (عندما تبدأ المرأة بالتفكير بأمور الحياة فذلك امر سيء. انها في هذه الحال تصبح عبئاً حقيقياً على اعصاب الرجل). والواقع ان تأكيد الخصوم على ان هتلر لم يكن قادراً على ان يحب بعمق وجدية، لم يكن في محله على الاطلاق. فقد صعق عندما انتحرت عشيقته غيلي راوبال، وصمم على الانتحار ولم يحل دونه والانتحار إلا وجود بعض اصدقائه معه. وقد بقي فترة طويلة بعد هذه

الحادثة يلوم نفسه بأقسى التعابير، وكم من ليال لم يذق بها طعم النوم وهو يفكر بهذا الامر.

ويذكر المؤرخون انه في ٢٣ كانون الاول عام ١٩٣١ ارسل الى ليو راوبـال، شقيق عشيقتـه المنتحـرة، مبلغاً من المال (لمناسبة عيد الميلاد الحزين الذي يمر علينا هذا العام). وليو راوبال هو ذلك الذي وقع اسيراً في ايدي الروس بعد معركة ستالينغراد والذي اراد هتلر مبادلته بجاكوب، ابن ستـالين. لا بل غرفـة غيلي راوبـال في منزل هتلر في ميونيخ بقي محرماً الـدخـول اليها إلا لهتلر ولسيدة المنزل آني فينتر. كما ان النحات النازي المعروف توراك صنع لرأسها تمثالاً وضعه هتلر في ما بعد في مكتبه بقصر المستشارية الجديد في برلين. كذلك فان الرسام النازي ادولف تسيلفر رسم صورتها في لوحة وضعها هتلر في القاعة لمنزله الجبلي في بيرغهوف.

وفي سائر الوثائق التي دونت علاقة هتلر بالمرأة كانت هناك ثلاث نساء فقط لهن مكان في قلبه: امه وغيلي راوبال وايفا براون التي سنأتي بالحديث عنها.

● ● ●

رافقت ايفا براون عز الحكم الهتلري وانتهت مع انهيار العهد وانهيار الرجل. كانت مشكلتها مع الفوهرر في انها بقيت مضطرة الى البقاء خارج برلين اكثر الوقت بسبب نوع العلاقة بينها وبين الفوهرر ولان مستشار الرايش وزعيم الامة الالمانية والقائد الاعلى للقوات الالمانية المسلحة فضّل الفصل بين حياته الخاصة وحياته الرسمية الوظيفية.

وقـد بدأت علاقـة ايفا براون بهتلر في اواخر العشرينيات، أي قبل انتحـار غيلي راوبال وفي عز انهماك الفوهرر بتوسيع قواعد الحزب النازي وبالعمل على الوصول الى السلطة. وعندما انتحرت غيلي راوبال في ايلول ١٩٣١ وتضايق هتلر كثيراً، لم يفرج كربته إلا اثنان: غريغور شتراسر (خصمه ومنافسه في الحزب) الذي جاء يقيم في المنزل مع الفوهرر لان هذا الاخير

كان ينزعج جداً من بقائه وحده في المنزل الذي انتحرت الفتاة في احدى غرفه، وايفا براون التي بدأت تبذل جهدها للحلول مكان العشيقة المنتحرة، باذلة اقصى جهدها في سبيل ذلك.

حين استقـر هتلر في منصبه الجديد مستشاراً للرايش في برلين كان دائماً يشتاق الى الجنوب، الى ميونيخ، والى مقره الجبلي (بيرغهوف) فوق برشتسغادن. كان يخابر ايفا براون في ميونيخ على الاقل مرة في الاسبوع وفي الليل، وكانت هذه تتحدث اليه على سماعة الهاتف من تحت لحاف سريرها.

والى العام **١٩٣٣** كان والد ايفا لا يعرف شيئاً عن غرام ابنته مع مستشار الـرايش! وكانت هذه المخابرات هي التي تحدد مواعيد غراميتهما، فكان هتلر يسافر الى ميونيخ كل عطلة من نهاية الاسبوع تقريباً وبقطاره الخاص التابع لسكك حديد الرايش. وفي بعض المرات كان يصل من برلين بسيارته الخاصة ايضاً. وهناك في ميونيخ، كانت تنتظره ايفا براون فيذهبان معاً الى المقاهي والمطاعم الهادئة.

كان العيد الكبير لهتلر يوم ٦ شباط **١٩٣٣** حين احتفى بالعيد الحادي والعشرين لايفا براون، وفيه تلقت الهدية الاولى ذات القيمة من صديقها، بعد ان كانت العلاقة الغرامية بينهما قد ازدادت التهاباً واشتعالاً. وقد قرر هتلر ان تنتقل ايفا الى مقره الصيفي فوق برشتسغادن في عطلات آخر الاسبوع، تجنباً للقاءات في المطاعم والمقاهي. ولكن ولما كان الفوهرر يحترم اخلاق الناس ولاسيما طبائع الطبقات الوسطى التي هو منها، فلم تكن ايفا براون تقيم خلال المـراحـل الاولى من العلاقة في منزله الخاص بل في الفندق المجاور. ومع الوقت تقرر ان ايفا براون تستطيع ان تستلم المنزل وانه لا داعي لكثرة تنقلها بين المنزل والفندق. وفي ذلك المنزل راح ادولف وايفا يخططان لعالمهما الخاص. فالجو هنا في رأس الجبل يجب ان يكون مختلفاً عن الجـو الرسمي المتزمت لقصر المستشارية في برلين حيث لا كلمة إلا

للرجال وحدهم. هنا في رأس الجبل صار من المفروض ان تكون الكلمة للنساء بالدرجة الاولى. في هذا الشأن ثمة شهادة ادلى بها الناطق الصحفي الرسمي للفوهرر اوتوديتريش امام المحكمة في نوربزغ عام ١٩٤٧ (لقد جمع هتلر العنصر النسائي حوله في رأس الجبل من باب تحقيق التوازن ومن اجل الراحة، فيما ترك للرجال هناك دوراً مسانداً يقومون به).

وانصرفت ايفا براون تجمع حولها من رأس الجبل زميلات المدرسة السابقات والزميلات اللواتي في ستديو المصور الخاص للفوهرر، هوفمان، حيث لاتزال هي نفسها موظفة هناك. وبالاضافة اليهن، كانت هناك سكرتيرات وزوجات بعض اصدقاء هتلر واخيراً جميع الكلاب التي يملكها الفوهرر.

ومع الايام ارتأى هتلر ان ظهوره مع ايفا في الاماكن العادية العامة لم يعد جائزاً، فهو الآن مستشار الرايش (أو الرايخ) وزعيم الحزب وهي لاتزال سكرتيرة في ستديو مصوره الخاص. وفوق ذلك، فقد ازداد اصرار ايفا مع الوقت على ان يعطيها ما تستحقه من مركز رسمي، كأن يخطبها أو يتزوجها مثلاً، لانها تعبت من ممارسة لعبة الاسرار على والديها كلما كان عليها ان تتواعد مع هتلر في الاماكن القريبة والبعيدة. وما زاد من عصبيتها ان هتلر غالباً ما كان يتأخر عن المواعيد أو يتغيب كلياً لاهتمامه بغيرها من النساء. وقد كتبت ايفا في مذكراتها يوم ١٠ ايار ١٩٣٥ تقول: (الطقس ولا اجمل، وانا، عشيقة اعظم رجل في المانيا والارض كلها، جالسة في الغرفة واتفرج على الشمس من الشباك وليس في يدي حيلة. أكاد اتخيل نفسي وكأنني صرت على عتبة السبعين مع اني لاازال ابنة ٢٣ سنة). بيد ان هتلر كان يتذرع لها دائماً بان انهماكه بشؤون الدول يحول بينه وبين الزواج. آنذاك ايضاً كتبت ايفا في مذكراتها (انني لا اتمنى إلا امرأً واحداً وهو ان اصاب بمرض قوي وان انقطع عنه وعن اخباره كلياً ثمانية ايام على الاقل. لماذا لا يصيبني اي مكروه؟ لماذا كتب علي ان اتمرمر بكل هذا العذاب؟). وفي ليلة

٢٨ ايار **١٩٣٥** اشترت ايفا براون **٣٥** حبة منومة وتدبرت محاولة انتحار في مسرحية محكمة جيداً. لقد تناولت الحبوب في الفترة التي كانت على علم بان اختها ستزورها فيها بين لحظة واخرى. وعلى اثر هذه التمثيلية اشترى لها هتلر دارة جميلة في ميونيخ سكنت بها مع اختها غريتل بعد ان استقالت من عملها وانفصلت عن والديها.

كان لهذا العمل ان ازعج والد ايفا فكتب رسالة الى هتلر بتاريخ ٧ ايلول **١٩٣٥** قال فيهـا (حضرة مستشار الرايش الجزيل الاحترام: انه لما يزعجني جداً ان اثقل عليكم باثارة موضوع خاص هو قلقي كوالد اسرة. ان اسـرتي قد تفتتت الآن لان ابنتي ايفا وغريتل انسحبتا من المنزل الوالدي لتسكنا في دارة وضعتموها تحت تصرفهما ولاني انا كوالد اسرة اجد نفسي وقد وضعت امام الامر الواقع. وطبيعي انني اعطيت ايفا ملاحظات قاسية كلما كانت تعود الى المنزل متأخرة جداً عن موعد انتهاء عملها. وفوق ذلك فانني ربما كنت من اصحاب وجهات النظر القديمة في ما يتعلق بالاخلاق: ففي مفهومي ان رعاية الوالدين والمنزل المشترك يبقيان ساريين على الاولاد الى ان يتزوجوا. هذا هو مفهومي للشرف، بالاضافة الى انني مشتاق جداً لابنتي اللتين خرجتا من منزلي. انني يا حضرة مستشار الرايش اكون شاكراً لتفهمكم وممتنـاً جداً لتلبيتكم ما اطلبـه منكم وهو ألا تشجعوا النزعة الى الحرية التي تمارسها ابنتي ايفا، رغم انها غير قاصرة، بل ان تمارسوا عليها تأثيركم لتعود الى الاسرة. . مع وافر الاحترام: فريتس براون).

والمضحك في هذه الرسالة ما تم بعد كتابتها.

لقـد اعطى الوالد الرسالة الى المصور الخاص هوفمان ليضعها بين يدي الفـوهـرر، فكـانت النتيجة ان هذا اعطى الرسالة لايفا. وهذه مزقت الرسالة الى نتف صغيرة، كما يقول احد مؤرخيها. ولحسن الحظ ان نسخة عن نص الرسالة كانت لاتزال في محفوظات الاسرة في ميونيخ.

على ان ايفا براون لم تسعد كثيراً في حياتها الجديدة في الدارة التي

اشتراها لها هتلر لان الفوهرر قلما راح يزورها هناك بل كان يذهب برفقتها الى اماكن اخرى متفرقة. وحتى الصعود مع هتلر من ميونيخ الى رأس الجبل فوق برشتسغادن صارت له محاذيره وعصابياته بالنسبة الى ايفا وذلك لان سيدة الدار هناك ليست إلا اخت هتلر من ابيه انجيلا راوبال (والدة غيلي التي انتحرت عام ١٩٣١). وانتهى الامر بحل المشكلة بين الامرأتين: فقد ازاح هتلر اخته من ابيه من رأس الجبل عام ١٩٣٦ واصبحت ايفا براون هناك سيدة السيدات والطاووس بين الدجاج. ومع تمركز ايفا براون في المنزل الجبلي جاءت مشاريع مارتن بورمان وكأنها صارت لا ترد: كل المنطقة صار يجب ان تصبح منظمة في غاباتها وحدائقها وينابيعها، والمنزل يجب ان يصبح اكبر بكثير والجبل يجب ان يصبح القمة التي ترتاح فيها الالهة والنقطة التي لا يجتمع عظماء التاريخ إلا فيها.

كانت ايفا تتعمد في الغالب الاستماع الى أية اسطوانة موسيقية جديدة ليقول لها الفوهرر: جميل جداً ما تستمعين اليه، فيكون جوابها عليها (ولكن يا عزيزي، هذه الاسطوانة منع صاحبك غوبلز انزالها الى الاسواق). وقد كانت ماريون شونومان، صديقة ايفا، شاهدة على اكثر من حوار. ذات يوم احد راح هتلر ينكت على ايفا لدى عودتها من الكنيسة: (الاكيد الاكيد يا عزيزتي انه كان في الكنيسة كثيرون، لا لشيء إلا ليتفرجوا على قبعتك) وجواب ايفا كان (الناس في الكنيسة مثل السردين. انهم صاروا يتدافعون الى الكنائس منذ ان نصحهم الحزب النازي بألا يذهبوا الى الكنيسة). والاغرب ان معركة حامية قامت في رأس الجبل بسبب الكلاب! ايفا براون اصرت على ان لكلبيها (نيغوس) و(شتاسي) الاولوية بالنسبة الى كلاب صديقها هتلر، لان المعارك الضارية بين كلاب الطرفين وكذلك القائمين على خدمتهم، كادت تؤدي الى ازمة. هتلر نفسه كان يقف على خاطر ايفا (يا ايفا، اتسمحين لكلبتي المسكينة بلوندي بان تقعد بقربنا ساعة من الزمن). ولكن الاهم من هذا كله هو ان ايفا براون كانت حريصة على ألا تكون علاقتها

بالفوهرر تلك العلاقة المكشوفة لعشرات الموظفين في رأس الجبل. الخادم الخاص هاينتس لينغه رأى الاثنين مرة واحدة في سرير واحد وما ذلك إلا لانهما نسيا اقفال الباب من داخل. المساعد العسكري فيدمان رأى مرة بعد مرة امام غرفة نوم هتلر حذاء ايفا الصغير قرب جزمة الفوهرر الضخمة.

وتمضي الايام والحوادث تتلاحق وبعد اشهر طويلة من التنقل بين الجبهات الحربية المتعددة والتعب البالغ، عاد ادولف هتلر في اواخر شباط ١٩٤٤ الى اوبرزالتسبرغ فوق برشتسغادن ليقضي بضعة اشهر الى جانب ايفا براون. آنذاك اصيبت سيدة المنزل بصدمة قاسية عندما رأته وشكت همها الى احدى السكرتيرات (انني متحيرة من امره. لقد اصبح عجوزاً وبدت عليه الجدية معي اكثر من اللازم). وقد كان الفراق طويلاً بين الاثنين هذه المرة لان الفوهرر كان منذ ايار ١٩٤٣ قد انشغل ببعض الجبهات المنهارة في الحرب ولم يتفرغ للذهاب الى اوبرزالتسبرغ. لكن بقاءه في منتجعه الجبلي كان هذه المرة للراحة الكاملة التي يحتاج اليها، هذه المرة حاول على قدر الامكان عدم ملاحقة الشؤون السياسية والحربية اليومية لانه كان يبحث عن أي مجال يؤمن له الراحة وشرود الفكر. لقد راقب بكل هدوء انهماك ايفا براون بتحضير زواج اختها غريتل من الكومندان فيغيلاين، احد ضباط الصاعقة، وهو الزواج الذي اخرج ايفا كلياً من حياة ما وراء الستار. آنذاك قالت: اريد ان يكون هذا العرس جميلاً جداً وكما لو انه عرسي بالذات.

وقد تم هذا الزواج في ٣ حزيران ١٩٤٤ وكان شاهداه في مركز محافظة مدينة زالتسبورغ المجاورة هنريش هملر ومارتن بورمان. وبعد الظهر اقام الفوهرر حفلة استقبال لاسرتي براون وفيغيلاين في (بيت الشاي) القائم فوق صخرة عالية في اوبرزالتسبرغ ورقص الحاضرون على انغام موسيقية من جيش الصاعقة. وبعد مرور بضعة ايام على هذا العرس عاد هتلر الى برلين ومنها راح يتنقل بين مقرات قيادته على الجبهات الى ان وقعت محاولة اغتياله في ٢٠ تموز ١٩٤٤. طبعاً، لهذه الواقعة وجهها السياسي، نسائياً، وفي ما

يتعلق بايفا، فقد طلب الى احد مساعديه ان يخابرها بالهاتف وان يطمئنها الى النتيجة. آنذاك كانت ايفا تسبح مع صديقتها هيرتا اوسترماير في البحيرة القريبة، لذلك نزل احد الخدم من الجبل الى البحيرة لابلاغها الخبر. وعلى الفور عادت ايفا الى المنزل لتطلب الفوهرر على الهاتف لكن الاتصال به لم يكن ممكناً فأصيبت بانهيار عصبي. واخيراً امكن الاتصال بالفوهرر، كما قالت هيرتا اوسترماير (فطمأن ايفا الى انه لم يحدث له شيء على الاطلاق. وصاحت ايفا: احبك، حماك الله، وراحت تقفز على الارض راقصة وتذرف دموع الفرح).

لكن ايفا اصيبت بصدمة جديدة بعد بضعة اسابيع، عندما ارسل اليها الفوهرر ثيابه الملطخة بالدم. ولم تعد ايفا الى الوضع الطبيعي إلا بعدما وصلتها رسالة من الفوهرر قال فيها:

عزيزتي الدلوعة،

لا داع لان تقلقي علي فأحوالي بخير والاصح انني تعب قليلاً. آمل ان اتمكن من العودة الى البيت قريباً وان ارتاح بين ذراعيك. انني في حاجة ماسة الى الراحة لكن واجباتي تجاه الشعب الالماني هي فوق كل شيء. لا تنسي ان الاخطار التي اتعرض لها ليست شيئاً بالمقارنة مع الاخطار التي يتعرض لها جنودنا على الجبهة. اشكرك على ما اظهرتيه من عاطفة ومودة واتوجه اليك بالرجاء ان تشكري عني والدك الجزيل الاحترام ووالدتك الجليلة الفاضلة على استفسارهما عني وتمنياتهما لي. انني ممتن جداً لهذا الشرف (ارجو ابلاغهما ذلك) بان احوز على حب فتاة من اسرة كبيرة المقام كأسرتهما. لقد ارسلت اليك ثيابي الملطخة بالدم للتدليل لك على ان العناية الالهية قد انقذتني وعلى اننا لم نعد في حاجة الى الخوف من اعدائنا.

من كل قلبي

المخلص ادولف هتلر

وقد كتبت ايفا براون على الفور الرسالة التالية الى الفوهرر:

حبيبي ،

انني لم اعد اطيق الوضع. انني اموت من الخوف مادمت انت في قلب الخطر. عد بأسرع وقت لاني اشعر باقترابي من الجنون. الطقس هنا جيد وكل ما حولنا يبدو بديعاً والى الحد الذي يحملني على الخجل من نفسي. الامر المؤسف هو بالنسبة الى شمونت ولا اجد الجرأة الكافية للتحدث مع ارملته. انت تعلم، وقد قلت لك مراراً باني اموت فوراً اذا ما وقع لك أي مكروه. منذ لقائنا الاول اقسمت على اللحاق بك حتى الى القبر. انت تعلم انني لا اعيش إلا لاحبك.

المخلصة ايفا

في آخر ايام هتلر علم الفوهرر بان عديله الكولونيل في جيش الصاعقة فيغيلاين قد حاول الهرب من القبو المسلح وانه عثر عليه مرتدياً الثياب المدنية فأمر باعدامه فوراً.

وحيث ان الهزيمة بانت كالشمس وجيوش الاعداء باتت قاب قوسين من مقر الفوهرر فقد كتب ليلة ٢٨ نيسان عام ١٩٤٥ وصيته السياسية والخاصة، فيما كانت ايفا براون قد انتقلت الى قربه في مستشارية الرايش في برلين منذ اواخر ١٩٤٤ ولم تعد تفارقه.

اما ما قاله هتلر في وصيته فهو: (بما انني خلال سنوات الكفاح كنت اعتقد بعدم تمكني من حمل المسؤولية في الزواج، فقد قررت الآن وقبل انتهاء هذه الحياة الارضية ان اتزوج تلك الفتاة التي جاءت بمحض ارادتها الى هذه المدينة شبه المحاصرة وبعد سنوات طويلة من الصداقة المخلصة، من اجل ان تقاسمني المصير. انها، بناء على رغبتها، تموت معي كزوجة لي. ارادتنا هي ان نحرق فوراً وفي المكان نفسه الذي قمت فيه طوال اثنتي عشرة سنة بخدمة شعبي).

وما ان انتصف الليل حتى تم عقد الزواج. فقد استدعي موظف حكومي من مكتب الاحوال الشخصية يدعى فاغنر لاجراء العقد وكان الشاهدان مارتن بورمان وجوزيف غوبلز. وبعد انتهاء مراسم العقد، قدم الخدم للحضور بعض الطعام وفتحوا لهم زجاجات الشمبانيا. وعندما تقدمت خادمة ايفا لتهنئتها بالزواج قالت لها العروس (تستطيعين بكل راحة ان تناديني السيدة هتلر).

ولم يدم هذا الزواج سوى يومين ونصف اليوم حين دقت ساعة رحيل ادولف وايفا من هذه الدنيا. فقد تقدم الفوهرر مع زوجته من جميع العاملين في قبو قصر المستشارية وودعهم واحداً واحداً ثم انسحبا الى غرفة مكتب الفوهرر.

في هذه الاثناء صاحت ماغدا، زوجة غوبلز بهستيريا (يا زعيمي، لا تتركنا. كلنا ستحل علينا الكارثة من دونك).

آنذاك كانت الساعة تشير الى الثالثة من بعد ظهر **٣٠** نيسان **١٩٤٥**.. بعد هذا الموعد بنصف ساعة فقط سمع صوت طلقة، وتدافع الذين كانوا ينتظرون عند الباب نحو الغرفة فوجدوا هتلر على الصوفا والدم يتفجر من جبهته اليمنى كما وجدوا مسدساً على الارض ومسدساً آخر على الطاولة، فقد كانت ايفا الى جانبه على الصوفا.

والظاهر من المشهد انها كانت قد حاولت في اللحظة التي تموت فيها ان تمد يدها اليسرى لملامسة هتلر. مسدسها الصغير كان على الطاولة قرب شال زهري اللون فيما قمقم السم المكسور الذي يشبه قمقم احمر الشفاه، ملقى على الارض امامها.

وبعد ذلك حمل الرجال الحاضرون الجثمانين الى حديقة قصر المستشارية ووضعوهما على مقربة من جبالة اسمنت. في تلك اللحظة جاء سائق سيارة الفوهرر، كيمبكا، وافرغ البنزين فوقهما ثم اولع النار، واندلع اللهيب في الجثمانين ثلاث ساعات كاملة حتى اصبحا رماداً.

هذه النهاية للفوهرر مع زوجته ايفا براون ترينا انها ما عاشت فعلاً إلا لتحبه كما انها بالفعل رافقته الى العالم الآخر.

● ● ●

ثلاث نسـاء كن في حياة ادولف هتلر، ولو ان تأثير الاولى هو الذي انعكس على الاثنين، أو بالاصح على الاخيرة وهي ايفا براون.

والدة هتلر هي الاولى . . !!

فمن خلال تحليل نفسية الفـوهـرر يكشف النقـاب عن جنـون من اضطهاد امه على يد ابيه. وبديل الام في جهاز هذيانه العقلي - وكما نستطيع ان نتبين في كتابه (كفاحي) - الفتاة الالمانية الآرية الشقراء. وبديل الاب الرمزي هو اليهود. ولقد انتهى فيما يبدو الى ان يقسم عقله الانسانية بأجمعها الى قسمين متعارضين بينهما خط فاصل لا يمكن محوه: في ناحية من هذا الخط يوجد الناس الطيبون الأبرياء امثاله هو نفسه وزملاؤه النازيون - وعموماً الجنس الالماني الآري كله. وفي الناحية الاخرى من الخط وبتضاد اشبه بتضاد الابيض والاسود يوجد اشرار الناس وشياطينهم الذين ليسوا من جنسه أو في اتفاق معه.

وقضى هتلر حياته كلها بتكوينه النفسي هذا يحمي امه (الكبرى) التي توحد بها واحتضن قضيتها من غدر ابيه وشيطانيته. وبلغ تعلقه ببلاده وحبه لها وبطولته في سبيلها حد الحرمان من الحياة الجنسية. كما اتجه مصرف كراهيته واعتداءاته بكل ما اوتي من قوة الى من يقف في سبيل رغباته او يقيد حريتهـا. ويرمز الموقف كله في نظر التحليل النفسي الى رغبة مكبوتة في الانتقام من الاب الشرير الذي يتمثله في خيالاته الطفيلية، وكأنه يعامل الام الطيبة الرءوم بطريقة شيطانية.

اما كيف سحر هتلر فتاتيه غيلي راوبال وايفا براون حتى انهما انتحرتا في سبيله فذلك ينم عن شخصية ساحرة كان يتمتع بها الفوهرر مما جعل المؤرخ بيرسي ارنست شرام يقـول: (كـان هتلر يسيطر على اذهان الناس

بعينيه الفولاذيتين القادحتين في خط مستقيم ابداً واللتين لم يستطع كثيرون من ضيوفه ان يتطلعا فيهما طويلاً. لقد كان هتلر عالماً بفعالية عينيه المشرقطتين ولذلك كان يطيل التحديق بهما في عيون الحاضرين، عاملاً في الوقت نفسه على تخفيض جفنيه بدرجة بسيطة).

وقد لاحظت اخت فريدريش نيتشه ان ما كان يثير انتباهها في هتلر (هما بالدرجة الاولى العينان الجميلتان جداً واللتان تخترقان اي شخص بطريقة تدريجية). امرأة لم تكن تطيق الحزب النازي قالت للمؤرخ شرام انها التقت هتلر ذات يوم فبقيت بضع دقائق متجمدة في ارضها لا تستطيع حراكاً لانها شعرت وكأنه انزل عليها صاعقة من شعاع عينيه. آنذاك قالت تلك المرأة انها لاتزال تخاصم هتلر لكنها تعتبره رجلاً عظيماً يندر وجود رجل آخر مثله.

كان هتلر يعرف تماماً كيف يستغل شخصيته وامكاناته الهائلة في الكلام، والى حد انه كان يتعمد النقاش مع خصومه من اجل كسبهم الى جانبه. العالم النفساني الالماني هانز برنتس قال: (كان هتلر يمتلك شعاعاً هادراً ونادراً من الناحية النفسانية، وهذا الشعاع كان يتغلب على كل ما يصادفه). وبالفعل فان هتلر كان لا يترك كلمة لطيفة عذبة أو كلمة انذار - بحسب الحاجة - من اجل تنفيذ هدفه في كسب قلوب وافكار جميع الحاضرين امامه.

غيلي راوبال كان مصيرها الانتحار، لا حباً في ذلك، بل قد يكون نتيجة عدم تقدير (الموقف). فما قيل عنها انها (حامل) وتهرب هتلر من الارتباط بها.. كل ذلك جعلها لا تحتمل الموقف فكان الانتحار لها اقرب الخلاص من ازمتها العاطفية.

هتلر احب ايفا براون وهذه احبته، وقد كان انفصالها عن اهلها وخروجها عن طاعتهم والاقامة مع الحبيب دون الارتباط بعقد الزواج، احد المظاهر لهذه العلاقة العاطفية.

وقد كان شأنها، شأن أي امرأة اخرى، ان تتزوج ممن تحب، وبقيت تلح في ذلك اكثر من عشر سنوات الى ان ظفرت بالزواج قبل يومين ونصف اليوم من انتحارهما معاً.

والسؤال الـذي يخـطر على البال هنا هو: هل كان هتلر سيقدم على خطوته هذه في الزواج لو لم يعلم ان ايامه اصبحت قليلة وان الموت في سبيله اليه.

راجح الظن ان هتلر لم يفكر في الزواج اطلاقاً في حياته، وما زواجه الاخير سوى تحصيل حاصل.

فالتركيبة النفسية لمثل هذا الانسان وعلى ضوء تربيته الاسرية وما وصل اليه من سلطة جعله في وضع لا يفكر في الزواج. وما الايام التي كان يقضيها مع ايفا براون، حين تكون عنده عطلة، سوى لتمضية الوقت مع انسانة حبيبة أو صديقة.. الخ.

أي ان اوقاته هذه كانت لتمضية الوقت واشباع رغباته الجنسية ليس إلا، دون جعل ذلك في حكم المسؤولية الزوجية.

لنناقش العلاقة الغرامية بين هتلر وايفا براون قبل الزواج ونرى مغزاها في نظر المرأة؟

هل يهم الفتاة الشابة كما يهم الشاب ان تكون لها علاقة جنسية قبل الزواج؟

الجواب بالنفي لا شك وليس ذلك لاسباب اخلاقية، لاننا نعلم ان الاخلاق لا علاقة لها بالدراسة النفسية، بل لاسباب تتعلق جميعها بطبيعة المـرأة. وذلك لان طابع هذه العلاقة الجوهري هي انها علاقة عابرة بينما جوهر الحياة النفسية عند المرأة انها دائمة. ولهذا تهب المرأة نفسها بكاملها في كل علاقة جنسية. لانه مما يعارض طبيعتها ان تحد من هذه الهبة فتكون العـلاقـات جسـدية صرفة أو غرامية أو (لفترات) معينة من الزمن. وليست العلاقات قبل الزواج ضرورية لنمو المرأة لان هذا النمو يختلف كثيراً عن نمو الرجل. ذلك لان الرجل ينمو، ليس فقط جنسياً، بانتقاله من اطوار النقص

الى حالة الكمال. اما المرأة فهي، على العكس، كاملة منذ البداية، فهي تتفتح كما يتفتح البرعم ويصبح زهرة. واذا كان الرجل يتكون جزءاً بعد جزء فان المرأة تتفتح عن كمالها الاصلي. وهكذا تهب الفتاة نفسها جميعاً، في كل علاقة لها، للرجل خلال نموها، بقدر استطاعتها. ويقوم (نموها) على نمـو قدرتهـا على وهب نفسهـا كلما ازداد رسوخ شخصيتها. بينما يصبح الرجل، شيئاً فشيئاً، قادراً على وهب جزءاً اكبر من نفسه. ويعني هذا ان الرجل يبلغ شيئاً فشيئاً النضج بينما المرأة تنمو في داخل هذا النضج.

ينظر الرجل الى العلاقة الجنسية قبل الزواج على انها تمهيد للنضج الجنسي، اما المرأة فهي تنظر اليها على انها نقص. ولا تستفيد منها المرأة إلا في ناحية واحدة فتكتسب من ورائها التجربة وتتدرب على معرفة الرجال ومعـرفـة نفسهـا. امـا القيام بهـذه العـلاقة، فهو بالنسبة اليها، ضرب من الخضوع والاستسلام وهي تستطيع بغريزتها ان تلبي رغبة حبيبها لاقامة علاقة عابرة، كما انها تستطيع الرضوخ بارادتها لمتطلبات الحياة العملية فتصد عم هو جوهري بالنسبة اليها. واذا كانت تشتهي حقاً من تحبه فانها تدفع ثمن ذلك. ولربما لم يعبر مخلوق بصورة مطلقة، كما عبرت هلويز لابيلار في هذا المقطع المشهور (مهما كان في نظرك «الزوجة» مقدساً وشريفاً فانه يلذ لي، انا، ان تدعوني صديقتك أو عشيقتك). فاضت هذه الكمات من قلب امرأة ناضجة عرفت اتم انواع السعادة كما عرفت اعمق الوان الشقاء خلال اجمل قصـة حب عرفها تاريخنا. ولقد كتب الشاعر الكبير رلكه، الذي له معرفة واسعـة بالحياة الانسـانية، يقول عن المرأة (يسعى استسلامها لكي يكون مطلقاً لان فيه سعادتها. ولقد آلم حبها دائماً ان ترى ان الرجل يطلب اليها ان تخفف من اندفاعها)، وقد قالت امرأة مرة (يحتاج حبي الى ان يكون مطلقاً).

تجـاهـد كل امرأة للوصول الى الاستقرار النهائي، فهي تسعى الى الزواج في الميدان الجنسي، وهي لا ترغب في الزواج لتأمين حياتها المادية

بل لتأمين طمأنينتها الوجودية التي هي شرط لكيانها ولتحقيق هذا الكيان، لان الاستمـرار هو اسلوبهـا في الحياة، وذلك كما عبرت امرأة شابة عن عمق غريزتها بقولها دون تمويه (كلما تعددت صلتي بزوجي كلما ازداد حبي لهذه الصلة، ذلـك لانني في كل مرة كنت اشعـر بلذة لم اشعـر بهـا في المرة السابقة، لان اعتياد الشيء يثير اكثر من جدته) حتى اذا ما بلغت العلاقة قبل الزواج نهايتها وجدت المرأة نفسها مهجورة واحست بالخيبة والخيانة.

واخيراً يمكننا ان نخرج من جميع هذه الوقائع بنتيجة غير منتظرة وهي ان هذه الاخـلاق المزدوجة، لم يخترعها الرجال من اجل راحتهم بل هي تعتمد على اساس نفسي متين. وتطبق اخلاق الحياة الجنسية الاساسية على الجنسين في نفس الوقت، غير ان الرجال والنساء لا يبلغون حالة النضج هذه بطريقـة واحـدة، تلك الحالة التي تسمح بتحقيق هذه الاخلاق وتطبيقها، فينتج عن ذلك سوء تفاهم لا مفر منه بين الجنسين في الفترة التي تسبق هذا النضج. غير ان هذه النظرة للعلاقات الجنسية تثير اعتراضاً بدهياً لا يمكن اغفـاله، اذ يبدو انه من الضروري ان يمر الرجال بمغامرات قبل الزواج، ولاتزال المشكلة موضع البحث، بيد انه لما كانت هذه المغامرات تتعارض وطبيعة المرأة، فكيف نعترف للرجال بحق فرض انفسهم على النساء؟

والجواب على ذلك ان لا جواب على هذه المشكلة، كما هو الشأن في كل المشـاكـل التي تنشـأ عن نزاع بين قوانين الطبيعة وبين التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي لا مناص من مواجهتها.

المهم ان هتلر وايفا براون بعد ان عاشا معاً مختلسين علاقتهما الغرامية توحدا سوياً في (صفوة) ما تبقى من جسديهما بعد ثلاث ساعات من النار المتأججة؟.

نابليون بونابرت

ولد نابليون بونابرت في مدينة اجاشيو عاصمة كورسيكا في ١٥ آب ١٧٦٩ ودرس في المـدرسة الحربية، وفي سنة ١٧٩٣ (أي حين كان في الرابعة والعشرين من عمره) تقلد قيادة الجيوش التي ارسلت لفتح الجزائر الصغيرة الـواقعـة بين كورسيكا وسردينيا. وتتابعت قيادته لجيوش بلاده في حروبها مع البلدان الاوربية ومن ثم الشرقية الى ان توج امبراطوراً عام ١٨٠٤.

تزوج من الامبراطورة جوزفين وبعد خمس سنوات طلقها وتزوج من الاميرة ماري لويزا ابنة امبراطور النمسا، بعد ان حطم القوات النمساوية. ورغم كل معـاركه الحربية فان نهمه الى المرأة لم ينقطع وملاحقته لها لم يتوقف. فالمرأة بالنسبة لنابليون لا تعدو كونها ملائمة للمخدع، وله اقوال مأثورة كثيرة في ذلك.

اثنـاء غزو نابليون لدول اوربـا الـواحدة تلو الاخرى خشيت انكلترا وروسيا وبروسيا من الاخلال بتـوازن هذه القارة فاتحدت بروسيا وروسيا على محاربة نابليون واشهرتا الحرب على فرنسا، فقام نابليون سنة ١٨٠٦ وحارب بروسيا أولاً فقهرها قهراً عظيماً ودخل برلين عاصمتها ثم حارب اسكندر الاول امبراطور روسيا وانتصر عليه ايضاً في مواقع عظيمة، ثم عقد معه ومع ملك بروسيا صلح تيليست سنة ١٨٠٧ وكان يتضمن هذا الصلح بعض الشروط السرية، منها معاهدة دفاع وهجوم واقتسام ممالك اوربا بين القيصر الروسي

والامبراطور الفرنسي، ما عدا مملكة الدولة العلية والمملكة الانكليزية، وان تقفل جميع الدول الاوربية مياهها على سفن الانكليز. وأقام نابليون اخوه جيروم ملكاً على وستفاليا وجعل سكسونيا مملكة وفصل من بروسيا املاكها في بولونيا وجعلها دوقية تعرف بدوقية فارصوفيا واضافها الى مملكة سكسونيا.

وكان لا بد ان يزور هذه الدوقية فكان ذلك في اليوم الاول من عام ١٨٠٧ وهو في طريقه الى فرصوفيا عاصمة بولونيا، وقف بباب مدينة برونيا ليستبدل بجياد عربته المتعبة جياداً غيرها. وقد احتشدت الجماهير لتحية الامبراطور الذي علقت عليه بولونيا كل آمالها في الاستقلال، وارتفعت الاصوات تدوي بالدعاء له، ونزل الماريشال دوروك من العربة وشق لنفسه طريقاً الى الخان. فلما بلغ بابه سمع نداء كأنه استغاثة، ورأى أيادي ترتفع كأنها تستنجد به وصبية تخاطبه بالفرنسية قائلة:

(اتوسل اليك يا سيدي ان تنقذنا من هذا الموقف وان تمكننا من رؤية الامبراطور).

وقف الماريشال والقى نظرة الى التي تخاطبه، فاذا هي صبية عليها مسحة النبل.. شقراء ذات عينين زرقاوين تفيضان سماحة وبشراً، وبشرة رقيقة ناعمة صبغها الحياء فكأنها اوراق الورد، قصيرة القامة، رائعة جمال الوجه والقد، بديعة التكوين، وكانت معها رفيقة لها.

مشى الماريشال دوروك بضعة خطوات ومد يده الى السيدة وقادها وصديقتها الى عربة الامبراطور وقال لنابليون: (سيدي! هذه سيدة تحملت كثيراً من المشاق لتراك) فرفع الامبراطور قبعته للتحية ومال برأسه نحو الصبية ليحدثها. ولكن ما بقلبها فاض على لسانها فلم تدعه يتكلم وقالت مسرعة: (مرحباً بك يا سيدي.. ان ارض بولونيا لتشرف بان تطأها قدماك، وان البولونيين مهما فعلوا لتحيتك لا يستطيعون ان يعبروا التعبير الصادق عما تكنه افئدتهم من الحب لشخصك العظيم، وان هذا الوطن المنكود ليضرع اليك ان تأخذ بيده لتنقذه من الاستعباد والذل).

وفيما عباراتها هذه تنطق بها بصوت متهدج قد غلبه التأثر والحياء، كان الامبراطور ينظر الى وجهها بامعان وانتباه، ثم تناول باقة من الزهر كانت في عربته وقدمها اليها وقال:

«احفظي هذه الازهار عربوناً على حسن نياتي نحو بلادك التي يهمني امرها، واود لو نتقابل في فرصوفيا ولعلي اكون يومئذ قد استحققت كلمة شكر من فمك الجميل» ثم صعد الماريشال الى جانبه وتحركت العربة مسرعة بين تهليل المهللين وهتاف الهاتفين، وادارت الصبية وجهها لتشيع العربة، وبعد برهة قصيرة لم تعد ترى سوى قبعة نابليون ترتفع وتنخفض ترد تحية هذا الجمع الغفير.

● ● ●

اما هذه الصبية فقد كانت تدعى ماري فاليسكا، وهي ابنة اسرة عريقة في المجد، قليلة المال، تربت على مبادىء الفضيلة فشبت على الطهر والعفاف متمسكة بعروة الدين والوطن. اما الحب فلم تكن تعرف منه غير حب الله الذي لم يعادله في قلبها غير حب وطنها المنكود، ولم تتجاوز ماري الخامسة عشرة من عمرها حتى تقدم اليها خاطبان: الاول شاب روسي جميل غني من بيت رفيع، لم ترض به زوجاً لانه روسي وروسيا تستعبد وطنها، ولانه ابن احد القواد الذين اذاقوا بولونيا مر الاضطهاد. والثاني شيخ يناهز السبعين له احفاد يزيد عمر احدهم عن عمر ماري تسع سنوات، ولكنه كبير قومه وغني ووارث اسم من اكبر الاسماء.. ذلك هو الكونت فاليسكي.

سعت الفتاة كل جهدها ان ترفض اليد التي مدها اليها الشيخ، ولكن امها النبيلة الفقيرة ما كانت لترفض مثل هذا الصهر الذي يعيد الى البيت رواءه القديم. وعقد قران الكونت العجوز على ماري اليافعة ورزقت منه غلاماً كان سلوة احزانها وتعزية فيما تخطاها من الهناء وروعة الشباب.

كان فكرها يقول لها ايقضى على هذا الغلام هو الآخر ان يعيش بلا وطن وان يذوق صولة الغاصب في بلاده وان يستجدي من العدو املاك ابائه

المصادرة وتراث اجداده المسلوب؟ كلا! بل يجب ان يكون ابنها رجلاً حراً. ولن يكون رجلاً حراً ما بقيت بولونيا ترسف في قيود الاستعباد. اذن لا بد من ان تستقل بولونيا! ومن اقدر من نابليون على اعادة استقلال بولونيا؟ ان نابليون الذي قهر النمسا والمانيا ولم يبق امامه إلا ان يتغلب على جيوش روسيا، فهو العدو الطبيعي للدول التي تقاسمت بولونيا، ومن هو الصديق الطبيعي الذي اتاحه الله لينقذ هذا الوطن الذليل من ايدي غاصبيه. فكيف لا يكون معقد آمال البولونيين ومحط رجائهم فيما يرجونه من نهوض واستقلال؟ وهذا هو نابليون قادم. ألا فليهرع الشعب الى لقائه، وليجد نابليون من تحية هذا الشعب ما يستدر عطفه عليه. لذلك كانت الكونتس ماري فاليسكا عند باب بلدة برونيا في طليعة الجموع التي احتشدت لتحية المنقذ المنتظر والامبراطور العظيم.

● ● ●

كانت عربة الامبراطور قد غابت عن عيني الصبية، ولكن هذه ظلت في مكانها جامدة شاردة البصر حتى هزتها صاحبتها فعادت الى نفسها وابصرت باقة الزهر في يدها فلفتها في منديل واوصت صديقتها بكتمان ما كان، وسارت بعربتها الى مسكنها في فرصوفيا فبلغته في ساعة متأخرة من الليل. وافاقت بعد هذه المقابلة كما يفيق الانسان بعد حلم غريب. ولولا باقة الزهر لما شكت في ان ما كان انما كان حلماً وقد انقضى كما تنقضي سائر الاحلام.

ولما وصل الامبراطور الى فرصوفيا اقيمت له الحفلات والاعياد وتنافس اعيان المدينة في الاحتفاء به ولم يبق كبير ولا صغير إلا حظي بشرف المثول بين يديه. وقد عرض الكونت فاليسكي على زوجته ان تصحبه في السهرات التي يحضرها الامبراطور فأبت ولم يرد ان يلح وتركها في ابائها.

إلا انه حدث ان زارها كبير نبلاء المدينة الامير بونياتوفسكي ليدعوها الى سهرة راقصة تقام في قصره اكراماً لنابليون، فلما اعتذرت صرح الامير

بان الجميع لاحظوا ان الامبراطور قد اختص بعنايته اميرة اسمها لوبوميرسكا، وانهم كانوا في سبيل مرضاته يتعمدون ان يجعلوها في طريقه اينما حل. بيد ان الماريشال دوروك قد صرح لهم ان الامبراطور اذا كان يكثر من التودد الى هذه الاميرة فلانها تذكره بصبية مجهولة التقى بها في بلدة برونيا واهداها باقة من الزهر، وانه لا شيء يسره بقدر ما تسره رؤية هذه الصبية مرة اخرى. ثم ذكر لهم اوصافها وتفاصيل ما وقع بينها وبين سيده. واضاف الامير بونياتوفسكي ان كبراء المدينة قد انطلقوا كل في طريق يستقصون ويبحثون حتى اذا اهتدوا الى الزميلة التي كانت ترافق الصبية المجهولة في برونيا فدلتهم عليها واخبرتهم انها الكونتيس ماري فاليسكا. ثم قال انه جاء يدعوها الى حفلته الراقصة، لان رجال الحكومة واعيان الدولة يريدون ذلك فيما يريدونه لارضاء الامبراطور، وظل يلح وظلت تأبى وتعتذر حتى يئس وذهب بحال سبيله.

وما كان يخطو خارجاً حتى توافد عليها رجال الدولة وعظماؤها الذين ترتكز سمعتهم الطيبة على ما لهم من الاعتبار والاحترام في نفوس الناس. وكان الواحد بعد الآخر منهم يتوسل اليها ان تلبي دعوة الامير قائلاً: (من يدري يا سيدتي؟ لعل الله يريد ان يستخدمك في بعث هذا الوطن العزيز)، ثم جاء دور زوجها ـ وكان يجهل مقابلة برونيا ولا يرى في الحاح هؤلاء النبلاء على زوجته إلا اعترافاً منهم بمركزه الاجتماعي وإلا انهم يشرفون بلدهم بتقديمه وامرأته الى الامبراطور ـ جاء دور زوجها فابتدأ بالرجاء والتوسل وانتهى الى الامر حيث اذعنت المسكينة لما يريدون ووعدت ان تحضر الحفلة وتلبي الرجاء.

وفي اليوم المحدد للحفلة وحين ازفت ساعة الذهاب الى قصر بونياتوفسكي، اقبل الزوج يستعجل زوجته ويبدي الملاحظات على زينتها وهندامها ويعجب كيف انها لا تريد ان تبز نساء المدينة بهاء ورونقاً. ثم استقلا العربة الى قصر الامير، ودخلت الكونتيس بين صفين من المعجبين

والمعجبات والكل يلهجون بالثناء على هندامها وجمالها.

كانت نبيلات المدينة قد قدمن جميعاً الى الامبراطور، وهذا ما جعل ماري فاليسكا يأبى عليها حياؤها ان تكون موضع تقديم خاص وجلست ماري ووقف وراءها الامير يهمس في اذنها ان الامبراطور كان ينتظرها قلقاً وانه لما رآها اشرق وجهه وتهلل وانه جعل يستعيد اسمها كمن يتغنى به وانه امره ان يرقص معها. ولكن ماري اعتذرت وقالت انها لا ترقص ولا تحب الرقص. وعبثاً حاول الامير ان يفهمها ان هذا امر الامبراطور وان نجاح الحفلة يتوقف على رقصة ترقصها. واصرت على الرفض اصراراً جعل الامير يلجأ الى الماريشال دوروك الذي ذهب الى سيده واخبره بما كان من امر هذه السيدة.

فيما كان ضباط اركان الحرب الفرنسيين يتقربون الى الكونتيس غير عالمين ان عين النسر ترقبهم، لان ما كان امراً مذاعاً بين البولونيين كان سراً مكتوماً على رجال الامبراطور وحاشيته. وسرعان ما قطب نابليون جبينه غيظاً وانهالت الاوامر من فمه على الماريشال بريتيه لتشتيت اولئك الذين يزاحمونه وهم لا يعلمون: فعلى الجنرال بيريجور ان يلحق في الحال بالفرقة السادسة وعلى الجنرال برتران ان يكون قبل الصباح في برسلو وعلى هذا ان يجهز لا ادري ماذا، وعلى ذاك ان يذهب الى لا ادري اين، حتى صفا للعاهل الجو، واولئك القواد والضباط يذعنون بالامر ويغادرون الحفلة ساخطين ناقمين لا يعلمون ان المصيبة انصبت على رؤوسهم لا لشيء سوى انهم حاموا حول فريسة معلمهم.

ومن سخريات الحياة ان تكون الكونتيس فاليسكا لا ترقص، ومعنى ذلك ان لا يرقص غيرها كذلك، وعلى هذا صدرت الاوامر بايقاف الرقص، وقام الامبراطور يطوف قاعات الاستقبال مشتت الذهن شارد البصر يحاول ان يلاطف المدعوات وهو لا يدري ما يقول، حتى سأل عانساً شوهاء اذا كان زوجها يغار على جمالها، وسيدة ضخمة الجسم الى حد مضحك اذا كانت تجيد الرقص. وكان لا يسمع ما يقال له أو يسمع ولا يفهم. وظل كذلك حتى

بلغ به المطاف الى فاتنة لبه فوقف امامها وقال بصوت مسموع: (ان هذه الثياب البيضاء لا تجمل ولونك الابيض) ثم همس في اذنها: (كنت اظن اني استحق ان تستقبليني بأحسن مما فعلت) فلم تجب. وتفرس في وجهها برهة ثم ابتعد. وبعد دقائق غادر القصر واقبل الجميع يجمعون ما تناثر من كلمات الامبراطور معلقين اهتمامهم الى ما قاله للكونتيس فاليسكا ملحين عليها لتنبئهم بما لم يسمعوه. ولكنها احتفظت بسرها ولم ترد ان تبوح به لاحد. وفي طريقها الى دارها اخبرها زوجها انه قبل بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عنها دعوة الى حفلة عشاء تقام في الغد وسيحضرها الامبراطور. وهمت المسكينة لتبوح لزوجها بسر الشرك المنصوب ولكنه انطلق يوصيها باختيار افخر الثياب واجمل الزينات. وما كادت تبلغ مخدعها حتى سلمتها وصيفتها مظروفاً وجدت فيه الرسالة التالية:

لم اعجب إلا بك، ولا ارغب إلا فيك، فهل من كلمة تهدىء نفسي الهائجة؟

ن.

قرأت هذه الرسالة وما اتت على آخرها حتى كورتها في يدها نافرة من اسلوبها الجريء، واخبرتها الوصيفة ان الرسول وهو الامير بونياتوفسكي لايزال ينتظر الرد امام سور الحديقة، فازدادت غضباً وحنقاً وقالت: (اصرفيه فليس لدي رد). ولكن الامير لم يرتح الى هذه الهزيمة وعالج الوصيفة حتى جعلها تقوده الى سيدتها التي ما ان رأته حتى اوصدت في وجهه الباب واعلنت من ورائه انها لن ترد.

وظل الامير يرجو ويتوسل ويلح ويعنف ويهدد نصف ساعة كاملة معرضاً نفسه بهذا الموقف المريب الى فضيحة شنعاء، وهي لا تزداد إلا اصراراً حتى يئس وانصرف غاضباً.

وفي الصباح سلمتها وصيفتها رسالة ثانية ولكنها ابت ان تفض غلافها واعادتها مع الاولى الى الرسول آمرة ان يردها الى كاتبها.

لما حان الضحى، اجتمع في دارها وزراء الدولة والزعماء السياسيون ومعهم الماريشال دوروك يريدون مقابلتها، فاعتذرت بانها مريضة ولزمت غرفتها. ولكن زوجها الذي كان يخشى ان يقال انه غيور عليها ابى إلا ان تجتمع بهم، فرضيت ان يصعدوا اليها. وهناك تألب عليها الجميع وانصبت عليها النصائح من كل ناحية وتقدم اليها رئيس الوزراء وقال:

ان من الاعتبارات يا سيدتي ما يجب ان يخضع له كل شيء. ونحن اليوم حيال انقاذ امة بأسرها فيحسن ان يزول التوعك الذي ألم بك وان تجيبي دعوة الداعي الى حفلة العشاء، واعلمي ان الرفض في مثل هذه الاحوال لا تقدم عليه بولونية مخلصة تدرك ما حاق بوطنها من الاهوال.

اذن وجب ان تنهض وان تقبل الدعوة وان تعمل بنصيحة زوجها فتذهب الى عشيقة الامير بونياتوفسكي لتسترشد بخبرتها فيما يجب ان يكون عليه زيها وزينتها. وهناك تسلمها العشيقة الى شابة من صديقاتها تعرف كيف تتسلل الى العقول والقلوب فتظل تهمس في اذنها ان الوطن يناديها وان شهداء بولونيا يناجونها وانها ان ضحت اثمن شيء فانها تضحية في سبيل اشرف غاية. ولما آنست ان اباءها اخذ يتزعزع اطلعتها على الرسالة التالية، وقد وقعها عظماء الدولة وزعمائها ورجال الحكم فيها:

ايها السيدة

ان اعظم الحوادث قد يترتب على اصغر الاسباب. ولقد كان للنساء في جميع الازمنة سلطان كبير في تسيير سياسة العالم وفي حل المشكل من الامور، وتلك حقيقة يشهد بها تاريخ العالم القديم والحديث. وستظل النساء من اقوى العوامل مادامت الشهوات متسلطة على ميول الرجال.

لو كنت رجلاً لقدمت حياتك راضية مختارة في سبيل قضية الوطن العادلة الشريفة. ولكنك امرأة وطبيعة المرأة لا تسمح ان

تخـدم بلادهـا في مواقف الحـرب والصـدام. بيد ان هنـاك من التضحيات ما تستـطيعين ان تقـدمي عليه ومـا يجب ان تلزمي به نفسك الزاماً وان كان من نوع قاس لا يحتمل.

وهــل تظنـين ايتـهــا الـسيدة ان استير قد سلمت نفسهــا لاحشـويرش (قصة استير واحشويرش معروفة في التوراة) خضوعاً لعـاطفة الحب؟ ألا ان الرعب الذي كان يستولي عليها حتى تقع فاقدة الرشد كلما نظر اليها لدليل على انه لم يكن للحب نصيب في هذا الزواج. ولكنها قدمت نفسها ضحية لقومها، وكان لها في النهاية مجـد انقاذهم. فهل يتاح لنا ايتها السيدة ان نتحدث عن مجدك وسعادتنا بمثل ما نتحدث به عن مجد استير وسعادة قومها؟

الست بنتاً واماً وزوجاً لكرام من البولونيين الذين تتكون منهم ومنا وحدة الوطن، تلك الوحدة التي لا تتقوى إلا باتحاد العناصر على مافيه مصلحة الجميع؟

اليك ايتها السيدة ما يقوله قسيس ورع من ائمة الاكليروس وهو فينلون:

ان الرجال الذين يملكون كل السلطة في الشؤون العامة لا يستطيعون ان يبرموا امراً نافعاً ما لم تدفعهم النساء الى ابرامه فاصغي ايتها السيدة الى هذا الصوت الذي يعزز اصواتنا لتسعدي باسعاد عشرين مليوناً من الناس.

اذن الاسرة والوطن والدين يقضون عليها بالتسليم. وكل من يحملون في الـدولـة القـاب العلم والمجد والشرف يلحون عليها بوجوب التسليم. الجميع يتـآمـرون على عفاف امرأة ضعيفة لا تجد زوجاً يحميها ولا اهلاً يمدونها بالنصح ولا صديقاً تشاوره في الامر ثم يتعاونون فلا يدعون عاملاً للتـأثير عليها من غير ان يحركوه. واطلعوها على الرسالة الثانية من رسائل الامبراطور وهي التي أبت ان تفض غلافها فاذا نصها:

هل اغضبتك يا سيدتي؟

كنت اطمح في ان القى منك غير ما لقيت فهل اخطأت؟ ان اندفاعك نحوي قد فتر بينما اندفاعي نحوك يزيد حتى لقد سلبتني الراحة فهل تمنين بشيء من الفرح والسعادة على قلب لا يريد إلا ان يعبدك؟

وهـل يصعب عليك الى هذا الحد ان تجيبي على رسائلي بكلمة؟ انك مدينة لي بردين.

ن.

ثم يجيء زوجهـا وهي في وسط ذلـك الاضطراب فيحتم عليها مرة اخرى ان تذهب الى حفلة العشاء والمسكينة تعلم ان ذهابها خطوة لها ما بعدها وانها اذا خطتها فقد اعلنت هزيمتها اذ ان هذه الخطوة هي التسليم بعينـه. ثم ها هي غرفـة الاستقبال تمتلىء مرة اخرى برسل الدولة يلحون ويلحون ولا يدعونها وحيدة خشية ان تراجع نفسها فتأبى.

اذن لا بد من الذهاب! اذن ستذهب!

وبعد فما الذي تخشاه مادامت لا تحب نابليون ولا تشعر في زوايا قلبها بأي عاطفـة نحوه غير عاطفة الاكبار والاعجاب وأي خطر يهدد شرفها من وجودها في حفلة تموج بالناس؟

واصطف المدعون والمدعوات وبينهم السيدة فاليسكا لاستقبال الفاتح (العظيم). واقبل نابليون يحيط به رجاله كما تحيط الهالة بالقمر. فانحنت الرؤوس اجلالاً لذلك الذي عارض القدر فأذل من اعز واعز من اذل، والذي تناول الحوادث فبدلها على غير ما تريده سنة الزمن.

اقبل بخطواته الضيقة السريعة ينظر يمنة ويسرى ويلقي البسمات على الجانبين حتى وصل الى الكونتيس فاليسكا فقال: (قيل لي انك مريضة يا سيدتي فهل زال ما ألم بك؟) ومضى.

أمـا على المـائدة، فقد كانت ماري جالسة امام الامبراطور بجانب

الماريشال دوروك، وقد طفق نابليون يستفسر عن تاريخ بولونيا ويستمع الى الاجوبة في انتباه واهتمام. ولكن عينيه ما انفكتا شاخصتين نحو معبودته لا تفارقان وجهها الجميل إلا لتتجه نحو دوروك. وكان الامبراطور يملي على الماريشال ما يقوله للكونتيس فاليسكا باشارات ونظرات سرية لا يعرفها غيره. فكان دوروك اذا فرغ من ابلاغ الرسالة التفت الى سيده يتلقى ما بعدها.

وحدث ان وضع الامبراطور يده على الجانب الايمن من صدره فتردد الماريشال في الفهم ونظر الى الامبراطور مستفهماً ثم ما لبث حتى ادرك ومال نحو ماري يسألها ماذا فعلت بباقة الزهر فاخبرته انها تحفظها لنجلها، فقال: (ألا تسمحين يا سيدتي ان نقدم اليك ما هو اليق بك؟) فاشمأزت الكونتيس فاليسكا من هذه الجرأة وصاحت: (انا لا احب غير الازهار) وتدارك الرجل واسرع فقال: (اذن سنقطف زهر الغار من ارض بولونيا لنقدمه اليك).

وادركها نابليون في زحام المدعوين وقد هجروا المائدة، وتناول يدها يضغطها بشدة، وسلط عليها اشعة عينيه التي لم يقو على التحديق فيها انسان وقال: (لا.. لا.. ان عينيك الصافيتين تضفيان حناناً، والطيبة تكسو محياك فختام هذه المقاومة؟ انك خلقت للرحمة لا للتعذيب. سلمي وإلا فانت اقسى النساء).

بعدانفضاض الحفلة استسلمت الكونتيس فاليسكا الى صديقاتها فذهبن بها الى دار الاميرة بونياتوفسكي حيث التف حولها رهط الناصحين يهنئونها بما نالته من الحظوة والاعتبار، وانهالوا عليها توسلاً ورجاء مرددين ان الوطن يناجيها وان استقلال بولونيا اصبح رهين خطوة تخطوها، وانها الوحيدة التي تستطيع امتلاك هذا القادر على ما لا يقدر عليه سواه. ثم اخذوا يتسللون الواحد بعد الآخر كأن تسللهم امر مرتب من قبل. فلما لم يبق منهم غير عشيقة الامير دخل الماريشال دوروك واغلقت من ورائه الابواب وجلس بجانبها ووضع على ركبتيها مظروفاً وتناول يدها وقال: (اترفضين توسل من لم يعص له الزمان امراً؟) وطفق يتكلم طويلاً وهي تغطي عينيها بيديها وتجهش

في البكاء ولا تجيب ولكن صديقة الامير تجيب بالنيابة عنها وتؤكد انها لا محالة ذاهبة الى حيث ينتظرها الامبراطور.

واذ تعززت نفس ماري من هذا التأكيد عادا يهزان وتر الوطنية في قلبها الضعيف ويرميانها بالتقصير في حق امتها التي تؤمل على يديها الخلاص. ثم فتحت عشيقة الامير المظروف وقرأت:

سيدتي،

إن العظمة لتثقل على النفس احياناً، وهذا ما اشعر به الآن، وكيف استطيع ان اجيب مطلب قلب يود لو يطير اليك فتقعده اثقال الاعتبارات العالية؟ آه لو اردت يا سيدتي! انك انت التي تستطيعين ان تزيلي ما بيننا من العوائق، وهذا صديقي دوروك يعاونك ويمهد لك السبيل. تعالي.. تعالي.. فكل رغباتك مجابة وسيكون وطنك اعز على نفسي متى اخذتك الرحمة بقلبي المعذب المسكين.

ن.

الآن تغير وضـع المسألة، وها هو ذا الامبراطور يقرر بنفسه ان حظ بلادها طوع قبولها.

ومـرت امـام عينيهـا صورة بلادهـا المستقلة، وقد تجمعت اوصالها المقطعة وتآلفت اطرافها المتناثرة وحلق النسر الابيض ـ شعار وطنها ـ يعلن للعـالم ان بولـونيا امـة عظيمـة وشعب مستقـل. ثم مسحت جبينها بيدها وانهمرت الدموع من مآقيها وقالت في تنهد عميق: اصنعوا بي ما شئتم وليكن ما يرى الله ان يكون.

حين ازفت الساعة العاشرة من الليل، وضعوا على وجهها نقاباً كثيفاً وغطوها بعباءة وساقوها الى عربة كانت تنتظرها في وسط الشارع ودفعوها الى داخل العربة، وركب بجانبها رجل طويل القامة لا تعرفه ولم يتفوه بكلمة.

وسارت العربة حتى بلغت مدخلاً سرياً نفذت منه الى حديقة القصر ثم انزلوها وهي تكاد لا تعي، وسارت تجر قدميها متكئة على ذراع الرجل

الطويل، واقتحمت دهليزاً في نهايته باب انفتح والفت وراءه الامبراطور.

جلست ماري وجثا الجبار مدوخ الممالك ومذل الملوك عند قدميها ينظر اليها نظرة توسل ونظرة استعطاف وحاول ان يتكلم فانعقد لسانه ولم يسعفه البيان فتمتم قائلاً: (ماري . . ماري . .) ثم نهض يجذبها اليه في لين عنيف وهي تدفعه عن نفسها وجلسا يتحدثان، أو قل جلس يتحدث وهي تبكي وتنتحب وظل يوجه اليها الاسئلة مستفسراً عن اصلها وسنها وحياتها، وينتقل من هذا الى باب الاستعطاف والتذلل، وهي لا تزداد إلا تباعداً ولا تجيب بغير الدمع الغزير.

وآذنت نابليون فراسة الغرام ان كل هجوم مقضي عليه بالفشل في هذه الليلة، فعدل عن خطة الهجوم الى استدراج العدو مرجئاً الحملة والاستيلاء الى الغد.

وظلا يتسامران حتى كانت الساعة الثانية من الصباح فدق الباب دقاً خفيفاً ونهض نابليون باسماً وقد اخذ بيدها وقال: (هيا ايتها الحمامة الجميلة، جففي دموعك واذهبي لتستريحي ولا تخشي النسر بعد اليوم، فهو لا يستطيع شيئاً ولا قوة له حيالك إلا قوة الحب ولا يبغي سوى قلبك قبل كل شيء) ثم عاونها على ارتداء عباءتها وقادها الى الباب ووضع يده على قبضته واقسم ألا يفتحه أو تقسم ان تعود فأقسمت.

في اليوم الثاني استيقظت ماري من نومها فألفت بجانب سريرها عشيقة الامير بونياتوفسكي، وقد حملت اليها هدايا الامبراطور وهي من الجوائز الثمينة، بينها باقة من الماس صاغتها ايدي امهر الصناع. فتناولت بعضها وضربت به الحائط قائلة: (ايظنون انهم يشترونني بالجواهر والمال؟) وقامت مغضبة تأمر صديقتها الجديدة ان تعود من حيث اتت. ولكن سرعان ما هدأت الصديقة غضبها ثم اخرجت من جيبها رسالة نشرتها امامها وقرأت:

ماري . . ماري الجميلة . .

انت اول من تتجه اليه افكاري فلا عجب اذا كانت اول رغبة

لي هي ان اراك ستعودين. اليس كذلك؟ لقد وعدت فاذا اخلفت وعدك طار اليك النسر يحملك الى وكره. اؤمل ان اراك على مائدة العشاء. وفي انتظار ذلك تفضلي واقبلي مني هذه الباقة التي ارجو ان تصبح رمزاً على حبنا نتناجى به اذا لم نستطع التحدث بين الناس. واذا رأيتني اضع يدي على قلبي فاعلمي اني اقول لك اني احبك وان قلبي طافح حباً، واذا اردت ان تحبيني فضعي يدك على الباقة لافهم انك تشاطرينني الحب العميق. أريد ان تحبيني يا ماري واريد ألا تفارق يدك هذه الباقة.

ن.

ولكن بلاغة هذه العواطف لم تشفع لدى ماري في جرأة هذا الفاتح الذي يريد ان يغزو قلوب النساء كما يغزو القلاع والحصون. لذلك اعرضت عن الهدايا وامرت باعادتها وان قبلت ان تحضر حفلة العشاء.

لم تكن الامور بالسهولة كما نذكرها، فان وقعها يكون اعنف على من يروض الدول، وهل هو غير قادر على ترويض هذه السيدة.

كان الامبراطور قد تبوأ مكانه من الحفلة لما دخلت الكونتيس فاليسكا، فما ان رآها حتى ارسل عليها شواظاً من عينيه ثم نهض وتقدم الى ناحيتها مسرعاً ووجهه يفيض حنقاً وغضباً. فخافت ان تخونه الرزانة فيقدم على مظاهرة علنية، واسرعت فوضعت يدها على قلبها في المكان الذي عينه لوضع الباقة، فلم يلبث حتى انفجرت اسارير وجهه واجابها باشارة مماثلة لاشارتها، وحاد عن طريقها وانتبذ بالماريشال دوروك مكاناً منعزلاً وهمس في اذنه بعض كلمات..

وعلى المائدة كان مكانها امام الامبراطور بجانب دوروك كما حدث في المرة الاولى ودار الحديث بينها وبين الماريشال حول بولونيا ومستقبلها وما فعله نابليون حتى اليوم في سبيلها وما انتوى ان يفعله فيما بعد كل هذا والامبراطور يحادث مضيفيه ويلقي عليهم الاسئلة في اهم الشؤون ويصغي

الى اجوبتهم ويناقشها ويده لا تبرح صدره عند مكان القلب وعيناه لا تفارقان فاتنته الحسناء.

وحين هم المدعون بالانصراف تقدم الماريشال دوروك اليها وقال: (قد امرني مولاي ان اذكرك بوعدك يا سيدتي)

قالت:

(لن اذهب)

قال: (نحن جنود نابليون ما تعودنا ان نفرط في حصن عهدت الينا حراسته)

قالت: (اذن انا اسيرة)

قال: (معاذ الله يا سيدتي ولكنك في حراستي)

واتخذت نفس الاحتياطات التي كانت بالامس ودخلت ماري وكر النسر فتلقاها متهللاً وكان قد يئس من قدومها واجلسها ووقف امامها يسائلها في لهجة تمتزج بها بعض العنف: (لماذا حاولت مقابلتي في برونيا؟ ولماذا تركتني تحت تأثير جمالك الساحر؟ ولماذا رفضت جواهري؟ ولماذا لم تجعلي يدك على قلبك كما كنت اريد؟)

وظل يرسل عليها هذا الوابل من الاسئلة السريعة والمسكينة لا تستطيع ان تجيب، ثم امسك بيدها وقد عبس جبينه وبرقت عيناه وقال: (اعلمي اني لا اهيم إلا بالمستحيل، وبقدر ما يتعذر علي الوصول الى شيء يشتد املي فيه. ان المستحيل يذكي في نفسي جذوة لا تنطفىء حتى احصل عليه. اني اريد.. اتفهمين ما اقول؟ اريد ان تحبيني وستحبينني، لقد بدأت انفذ شيئاً من رغباتك، وهأنذا قد غرست البذرة الاولى من استقلال بولونيا، وكرهت روسيا على ان تنزل عما اغتصبته من ارض بلادك. فعلت كل هذا وسأفعل اكثر منه، ولكن احذري من ان تستهيني بحبي. اترين هذه الساعة في يدي؟ اني احطم بولونيا كما احطمها الآن).

كان لا بد امام هذا البركان الثائر، وامام هاتين العينين اللتين ترسلان اشعة لا تقاومها الابصار، وامام هذه الساعة التي تطايرت شظاياها على حائط

الغرفة، وامام هذا التهديد الذي ينصب من فم رجل خضع لمشيئته الدهر واسلمته الحوادث قيادها ـ كان لا بد للمسكينة سوى ان تقع على الارض مغشياً عليها. . فلما افاقت كان الفاتح قد غزا النعجة وبذلك انتهت احدى قصص مغامرات نابليون؟

● ● ●

في عهد نابليون اختفى الحب العاطفي المضطرم، وحلت محله غلطة الجنود ورغباتهم الفطرية وميلهم الى الاستمتاع المجرد قبل ان يعالجهم الموت الواقف لهم في ساحات الحرب بالمرصاد. وهكذا ارتد الحب الى دائرة الغريزة، وتجرد من الشعر، واتخذ طابعاً شعبياً موسوماً بالطلاقة والمرح وعدم الاكتراث. وكان الامبراطور يقر هذا الحب، على شرط ان يعرف الجندي كيف يترك محبوبته متى دوى نفير الحرب، وان يقترن بها بعد عودته من ميدان القتال وان يستولدها ابناء عديدين يصلحون لخدمة الوطن وخدمة الامبراطور. والواقع ان خيانة جوزفين لنابليون، بدلت نظرته الى الحب، واضعفت ايمانه بالعواطف، وزعزعت ثقته بمبادىء جان جاك روسو الذي كان معجباً به. ففي رسائله الاولى الى جوزفين، نجد اسلوباً قريب الشبه من الاسلوب الذي ابتدعه روسو في قصته المشهورة (هيلويز الجديدة) وفي الرسائل الغرامية التي كان يتبادلها الفارس دى سان وحبيبته جولى بطلا هذه القصة.

وبما ان نابليون كان بطبيعته مولعاً بالقوة والعنف، فعاد الى المبادىء الرومانية المتأصلة في عنصره. . وبات يعتقد ان الحب مرض ينتاب النفس في زمن الشباب، ثم يصبح لدى الرجل الكامل ضعفاً في الذهن ونزعة بغيضة الى قتل الوقت، الذي يجب ان ينفق في سبيل عظمة الدولة وقوتها. فالحب في نظر نابليون رغبة لا يفيد منها المجتمع إلا اذا انتهت الى الزواج والامومة، فمتى تم الزواج وجب ان ينصرف الرجل الى القيام بواجباته العامة والمرأة الى حراسة البيت والسهر على النوع.

واذا كان هذا الامبراطور قد حصر المرأة في دائرة البيت، وجعل منها اماً ولوداً فحسب، مجدداً عهد الرومان. . فان ذلك العبقري الذي الم بكل شيء، لم يفهم طبيعة المرأة الفرنسية التي رفضت الطاعة العمياء لزوجها، وأبت ان تكون طوال حياتها اماً ومرضعاً فقط، وتطلعت الى شيء من الحرية في عواطفها. وظلت في خلال الحروب النابوليونية تطلب الحب. وعندئذ ظهر الاحساس الغرامي من جديد، واتخذ طابع القرون الوسطي، وسرت فيه روح الفروسية لان الحرب كانت اذذاك غاية عليا وجهداً متواصلاً لاعلاء شأن فرنسا. . هكذا على الاقل كانت وجهة نظر نابليون.

ربما كان شعور نابليون ان زوجته جوزفين تخونه هو الذي جعله يتهافت على النساء، حتى بهذا الشكل الذي اقدم عليه مع ماري فاليسكا. ودليلنا على ذلك قوله عن عفة المرأة المتزوجة وكيف يجب ان تصون عفافها.

ومن مبادىء الشخصية تتكون شخصية الفرد من تلك الخصائص الثابتة التي تتمثل في سلوكه، وهذه الخصائص قد تكتسب عن طريق خبرات الشخص الفريدة أو بفعل الخبرات التي يشترك فيها مع الآخرين. وقد تكون الخصائص ايضاً نتاجاً لتأثير الوراثة أو للتفاعل بين الوراثة والبيئة.

كثيراً ما يستخدم اسلوب التحليل العاملي لتحديد أي الخصائص يصف الشخصية وصفاً جيداً. ويكشف التحليل العاملي النقاب عن معاملات الارتباط بين مختلف فقرات الاختبار ويسمح بتحديد العوامل أو السمات العامة.

وتعتبر نظرية الانماط الجسمية من بين النظريات التي اقترحت في محاولة وصف الشخصية وطبقاً لها يصنف الافراد وفقاً لانماطهم الجسمية وخصائص شخصياتهم.

وتوجد ثلاثة انماط جسمية اساسية ترتبط بكل منها سمات شخصية معينة، ويمكن ايجازها فيما يلي:

النمط الحشوي ويتميز بجسد ناعم بدين ويظهر مزاج حشوي متقرباً من المرأة.

النمط العضلي العظمي ويتميز بجسد عضلي صلب ويظهر مزاج عضلي وهو شخصية مناضلة صريحة مستقيمة.

النمط الدماغي ويتميز بجسد نحيل ضعيف ويظهر مزاج دماغي وهو شخصية متوترة تهتم بالاعمال أو المهن العلمية.

ونابليون من النمط الحشوي، قصير الشكل، يميل الى السمنة.

وقد قدم كارل روجرز احد قادة علم النفس الانساني البارزين نظرية الذات التي تؤكد ان اساس الشخصية يتمثل في رغبة الانسان في تحقيق امكاناته. ويعني التحقيق الكامل لها ان يعيش الافراد في توافق تام مع انفسهم ومع الآخرين.

ولكن التحقيق الكامل للامكانات يعتمد على الجو الذي يعيش الفرد في ظله. ويأمل روجرز ان يعكس هذا الجو تقبلاً ايجابياً غير مشروط يحظى فيه الافراد بالقيمة والاحترام والحب فقط لما هم عليه بالفعل. وقد وجد روجرز لسوء الحظ ان معظم الناس يربون فيما يبدو في جو قوامه التقبل الايجابي المشروط حيث يعطى القبول والاحترام من اجل انواع معينة من السلوك وليس من اجلها جميعاً.

وطبقاً لما يقول به روجرز يحدث سوء توافق الشخصية حينما يزداد الفرق بين صورة الشخص عن ذاته وحقيقة الموقف. وحينما لا يكون في وسع الشخص ادماج خبرات جديدة في تصوره لذاته، فان القلق قد ينشأ وبالتالي يؤدي الى نمو الحيل الدفاعية التي تحول دون رؤية الموقف على حقيقته. ويأمل روجرز ان تكون لدى الشخص ذات اكثر مرونة وان يتمكن من التوافق مع المواقف كما تحدث بالفعل، ومن ثم يتجنب سوء توافق شخصيته.

أكان لقصة ماري فاليسكا ان ترى النور لولا ان بطلها كان نابليون بونابرت.

فاذا كان نمـطه الحشـوي هو الذي دفعه الى اظهار قوته امام سيدة مغلوب على امرها، فان انتصاراته العسكرية المتلاحقة جعلته يدرج انتصاراته على النساء كذلك؟

لويس الرابع عشر

تولى لويس الرابع عشر الملك وكان عمره خمس سنين تحت وصاية والدته حنة دوتريش وكفالة الكاردينال مازارين خليفة الكاردينال ريشليو، فتم على يده صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ ثم صلح البيريني عام ١٦٥٩ فأصبحت فرنسا بسبب ذلك من اعظم دول اوربا قوة ونفوذاً. ثم تحالفت عليها اكثر الدول وهاجمتها، وعقد في سنة ١٦٧٨ صلح (ليم) الذي زادها قوة وهيبة، وكان لويس الرابع عشر راغباً في ترقية اسباب التقدم والنجاح، فالتفت الى التجارة والفنون والعلوم وقام بأعمال كبرى عادت على بلاده بالنفع الجزيل.

وقد نبغ في ايامه كثير من مشاهير العلماء مثل كونديه وتورين وفوبان في الحرب، ولوفوا وكوبير في الحكم والسياسة، وموليير وكورناي وراسين في الادب، وفيتلون صاحب اخبار تليماك وابردن وغيرهم.

كما شيد هذا الملك مباني عامرة كدار الانفاليد وقصر فرساي وغيرهما.

ولكنه مع ما اتصف به من حب الاصلاح والميل الى العدل، اصدر امراً بالغاء مرسوم جده المتعلق باعطاء الحرية للبروتستانت فهاجر منهم عائلات كثيرة من ذوي الكفاءات، ونزحوا من فرنسا الى غيرها من البلدان، ثم عاودت الحرب بينها وبين اسبانيا وبقيت مدة طويلة، وهي المعروفة بحروب الوراثة، فعادت فرنسا الى الوراء. وفي اواخر ايام هذا الملك فقدت فرنسا مكانتها وانسلخ عنها معظم فتوحاتها في الشمال والجنوب والشرق وانحصرت ضمن دائرة حدودها الاولى.

وفي اول ايلول سنة ١٧١٥ توفي لويس الرابع عشر عن سبع وسبعون عاماً فخلفه لويس الخامس عشر، وهو حفيد ابنه، وكان ضعيف الهمة فاسد الاخلاق مكباً على الشهوات منهمكاً في الرذائل، حتى انه سلم زمام الملك لنساء يأنف القلم من وصف ما كنّ عليه من القبائح والمفاسد، فكان في ايديهن كآلة يدرنها كيف شئن لتنفيذ اغراضهن وشهواتهن النفسانية.

واذا كان حكم لويس الرابع عشر قد طفح بالفتوحات الحربية والمعاهدات التي سجلت تفوق فرنسا على سائر الدول الاوربية في القرن السابع عشر، أفلا يجوز ان يحق للمؤرخ، وهو يتوخى الحقيقة ويتلمسها حيث تكون، ان ينزع عن هذه الصورة الجميلة اطارها الذهبي البديع، وان يديرها ليرى وجهها الآخر وما يحويه من شناعة يقشعر من هولها البدن ويندى من عارها الجبين، وتشمئز النفوس.

اذن تعالوا لندر الصورة ولنر كيف انحطت الفضائل الانسانية في ذلك (العصر العظيم) وكيف هوت الاخلاق الى الحضيض، وكيف كانت العشيقات يسيرن امور الدولة، وكيف كان الادباء والشعراء يمثلون بالشرف والكرامة، وكيف كان الوزراء يطاردون الازواج ليحظى سيدهم بزوجاتهم، وكيف كان الملك يطأ بقدمه هام العدل والقانون حرصاً على سمعة عشيقاته، وكيف انغمس النبلاء ورجال الدين في الجريمة حتى بزوا في الاجرام ابشع المجرمين وكيف ساد التدجيل والسحر والشعوذة عقول ارقى الطبقات، وكيف امتهنت المعاني الانسانية السامية، معاني الشرف والاسرة والزوجية حتى صارت من موجبات السخرية والازدراء.

من هذه السلسلة الطويلة حلقة واحدة تجعل القارىء يلمح شيئاً مما كان يستتر وراء المظاهر الفخمة، مظاهر الترف والبذخ والعظمة.

● ● ●

في عام ١٦٦٠ الحقت الآنسة فرانسواز اثنابيس دى ثوناي شارنت، ابنة الدوق دى مورتمار، بخدمة ملكة فرنسا، وكانت لم تتجاوز بعد العشرين

ربيعاً. وقد اعجبت الملكة بجمالها وكياستها، فاختارت لها زوجاً احد اعيان الريف وهو المركيز دى مونتسبان. بيد ان الفتاة الطموحة لم تكن لتقنع بالحياة الزوجية الهادئة بعد ان بهرت عينيها حياة البلاط الملكي، ولا لتسكن الى زوجها الشريف الريفي بعد ان رأت الآنسة دى لافاليير - وهي اقل منها جمالاً ورشاقة - تستأثر بقلب الملك لويس الرابع عشر وتصبح الى جانب الملكة ملكة غير متوجة ترنو لها الوجوه وتنحني امامها الرؤوس. لذلك ابت ان تصحب زوجها الى قصره في الريف وآثرت ان تبقى في البلاط تغتنم الفرصة كلما سنحت لتبدو امام الملك تلفت نظره بجمالها الباهر ورشاقتها الساحرة وتتحين الظرف المناسب لتحل في قلبه محل دى لافاليير، الهزيلة العرجاء، كما كانت السيدة دى مونتسبان تنعتها.

أما جمالها فكان من ذلك النوع من الجمال الاخاذ القهار الذي لا حول للعقل حياله ولا قوة والذي لا ترضى العين ان تفارقه ولا تقوى على ان تواجهه، جمال كالشمس تحس به النفس وتؤمن بوجوده وتشعر بأثره وهو يبعث فيها الحرارة والحياة، وتهفو له القلوب ولكن لا تتسامى اليه الانظار. واما ظرفها وكياستها فيحدثنا عنهما معاصرها المؤرخ سان سيمون حيث يقول: (كانت لطيفة المظهر حلوة الحديث ذات شمائل تخفي ما فطرت عليه من التعالي والكبرياء. وكان لها طابع خاص بها في كل شيء حتى لتتعذر محاكاتها في أي شيء وحتى ليؤمن الناس بان من المحال ان توجد امرأة احد منها ذهناً أو انقى ادباً أو آصل رأياً). ومن اراد ان يعرف شيئاً من رشاقتها وحسن هندامها فليقرأ ما كتبته المركيزة دى سيفينيية الى ابنتها السيدة دى جرينيان اذ تقول: (جمالها لا يحده الوصف وهندامها كجمالها وانسها كهندامها. ولقد تبدت امس في ثوب ذهبي تنوعت فيه الوان الذهب حتى جعلته ابدع نسيج حاكته امهر صناع الجن لتلبسه اجمل نساء الانس).

كانت المركيزة تستعجل الوقت الذي ستلقى به الملك وكان هذا يرغب كذلك، وما لبث ان وقع في شرك غرامها واصطفاها خليلة. وآذنت شمس دى

لافالبير بالمغيب فتحولت الانظار نحو الشمس المشرقة شمس المركيزة دى مونتسبان. وسرعان ما صارت قبلة الابصار ومعقد الآمال. وهام بها الملك هياماً جعله يتجاوز في سبيل ارضائها كل الحدود ويتخطى كل الاعتبارات حتى بنى لها قصراً في مزرعة كلاني كان يحاكي بعظمته وروائعه قصر فرساي، وجعل لها مسكناً في قصر فرساي نفسه له عشرين حجرة تأوي معيتها وحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة، وجعل من الرسميات المقررة ان تحمل كرام العوائل امثال الماريشاله دى نواى ذيل ثوب المركيزة كلما تنقلت على قدميها من مكان الى مكان، في حين لا يحمل ذيل ثوب الملكة غير غلام من غلمان السراي.

وكان اذا غادرت القصر خرجت في موكب حافل تجر عربتها الكبيرة ستة من الجياد ويحف بالمركبة فرسان الحرس الملكي وتتبعها حاشيتها في عربات فخمة تجرها الخيول المطهمة، ويستقبلها حكام الاقاليم ووفود المدن التي تمر بها وتؤدي لها مراسيم الاجلال الواجبة لملكة البلاد.

كما عين الملك اباها حاكماً عاماً لمدينة باريس ومنح اخاها لقب ماريشال فرنسا وفرض طاعتها على الوزراء. وكان يؤم صالونها كبار رجال الدولة وكبار الساسة وكبار الادباء والقواد العسكريون يتقدمون اليها بالزلفى ويستبقون مرضاتها ويسترضون اهواءها حتى باتت في الدولة صاحبة القول الفصل والكلمة التي لا ترد.

ورزقت من الملك سبعة اولاد فرض لويس الرابع عشر على البرلمان ان يقر شرعيتهم فقررها وجعل لهم مقاماً ممتازاً بين امراء البيت المالك وخص البنين منهم بأرفع مناصب الجيش وفرض التزوج بالبنات على من وقع عليهم اختياره من الامراء. وهكذا استتب للمركيزة الامر وباتت تتحدى القدر وتهزأ بتقلبات الايام.

● ● ●

إن الحياة اذا صفت لا بد ان يشوب صفاءها شيء من الالم يذكر

الانسان ان النعيم الاوفى لا يكتمل في هذه الحياة. فقد كان للمركيزة زوج ابى القدر المعاند ان يكون كسائر الازواج في العصر الاعظم، اذ كان ممن رسبت في نفوسهم بقية من معنى العرض والاباء فكان يغضب لشرفه وكرامته وكان غضبه موضع الدهشة والاستغراب لدى قاطني قصر فرساي. واننا لنقرأ في ذلك خطاباً عجيباً كتبته قريبة له اسمها الآنسة دى موندياسبيه وهي تقول فيه: (ان ابن عمي رجل غريب الاطوار، شاذ الطباع، لا يفهم الحياة، ولا يميز ما يجب مما لايجب. فلقد جاءني اكثر من مرة يندب سوء حظه أو ما يعتبره هذا الابله سوء حظ؟ علاقة الملك بزوجته! وقد حاولت ان اقنعه بخطئه وشذوذ مسلكه ولكنه لم يزدد إلا عناداً واصراراً على اخراج المركيزة من فرساي. وفي النهاية علمت اني حيال مجنون لا يقتنع فذهبت الى المركيزة واخبرتها بما كان من زوجها ورجوت منها ان تستأذن الملك في سجنه. أما هي فكانت حزينة يائسة تشكو الحظ الذي قيض لوصيها هذا الزوج الذي يضحك بسلوكه وشكاياته رجال البلاط).

وكلما مر يوم اشتد غضب الزوج، وفي ذات مرة، قصد الى زوجته، وهي في حفلة من حفلات البلاط الساهرة ولطمها على وجهها بين الجمع الحاشد ووقف امام الملك يذكره بالعرف الانساني والآداب الاجتماعية ويتلو عليه آيات من الكتاب المقدس وما يتوعد الله الزاني والزانية من العقاب العاجل في الدنيا والقصاص الآجل في الآخرة. وظل يخطب والحاضرون يضحكون حتى ضاق الملك به ذرعاً فأمر باخراجه فاخرجوه كما لو كان مجنوناً يخشى شره ويتقى اذاه.

ومن سخرية القدر ان رجال البلاط كانوا يضحكون من الزوج المنكوب ويتخذون نكبته سخرية وتسلية، ولكن كان هناك شخص لا يضحك ولا يسخر. ذلك هو الملك الذي كان يشعر ببشاعة جريمته ولا يقوى على الخلاص منها: ويدرك انه لولا تسامح البيئة الفاسدة التي يعيش في وسطها لاودت هذه الجريمة بعرشه ولعصفت بصولجانه وتاجه.

الى هنا وكانت الامور فوق التصور، فما بالك حين اصبحت المركيزة أماً، فقد زادت هواجس الملك وساورته الهموم حيث كان يحب اولاده منها حباً مبرحاً ويعلم ان القانون صريح في ان الطفل الذي يولد اثناء قيام الزوجية يكون الزوج اباه، وكان يخشى ان يخطر لزوج المركيزة ان يطالب باولادها باعتبارهم اولاده في نظر القانون. وازداد موقف الملك حرجاً حين اصدر كبير اساقفة سانس حكماً بجرم سيدة كانت تعيش كما تعيش المركيزة في حيازة رجل غير زوجها. وكانت اسقفية سانس تشمل بلدة فونتبلو التي كان البلاط الملكي واقعاً به وقتئذ. فايقن الملك ان المركيزة دى مونتسبان، وهي المشار اليها بهذا الحكم، وادركت المركيزة ذلك فغادرت فونتبلو ولم تعد اليها إلا بعد وفاة ذلك القس النبيل وايقن المركيز في النهاية ان كل مساعيه وجهوده في سبيل استرداد زوجته ذاهبة سدى وآذنته الفراسة ان الملك لن يجيب من علياء العرش على توسلاته إلا بأمر القبض عليه وزجه في السجن.

في يوم من الايام لبس الزوج ثياب الحداد وكسا بيته بشارات الحداد واستقل مركبة مجللة بالسواد واقبل على القصر يستأذن الملك في السفر الى مزارعه. ولقد كان منظر الزوج المحزون يومئذ منظراً مؤثراً، جمع حوله قلوب الذين كانوا يسخرون منه بالامس، وتبدت جريمة الملك بشعة امام جميع العيون، واحس الماجنون والمستهترون بغلظة ذلك الملك الذي يسخر قوة العرش في الاعتداء على الاعراض والكرامات. ولكن الشاعر الكبير موليير ابى إلا ان يسخر بلاغته في خدمة الجريمة فمثل رواية شهيرة على مسرح القصر وانهال فيها على الزوج التعس دعابة وسخرية ومجوناً حتى اضحك الساخطين والناقمين واعادهم الى صف الملك وانطلقت الاكف تصفق والحناجر تهتف للشاعر البليغ وهو يقول: يا ليت شعري هل في مشاركة الارباب من عار؟

وسافر المركيز دى مونتسبان الى مزارعه، وحدث وهو في طريقه اليها ان اشتبك رجاله في مشاجرة مع مختار قرية برينيان ورفع الامر الى الوزير

الاكبر لوفوا فكتب هذا الى حاكم المقاطعة كتاباً يقول فيه : (ان اوامر جلالة الملك تقضي باجراء تحقيق سريع بطريقة تجعل ادانة المركيز دى مونتسبان امر لا شك فيه. وحبذا لو استطعتم ان تحملوا الشهود على تأدية شهادة من شأنها ان تضاعف الجريمة المعزوة اليه حتى يكون في الامكان القضاء عليه مع المحافظة على ظواهر العدل والقانون. ولا شك انكم تقدرون اهمية الامر قدره عندما اقول لكم ان لدينا من الاسباب ما يدعو الى ذلك وان المسألة مسألة جلالة الملك).

وهنـا نتـرك للقـارىء ان يلمس العدل في (القصر الاعظم) ما يشاء موقنين ان كتاب الوزير لوفوا غني عن كل تعليق ونستمر في حديثنا فنقول ان المركيز دى مونتسبان احس ان الملأ يأتمرون عليه. ففر الى اسبانيا هارباً من وجه الملك الطاغية ملتمساً عدل الله بعد ان يئس من عدل الناس.

وهذا ما زاد من مخاوف لويس الرابع عشر بعد ان اصبح زوج عشيقته طليقاً في بلاد لا سلطان له عليها، وخشي ان يعمد المطالبة بأولاد زوجته فأوعز الى عشيقته ان ترفع الدعوى امام المحاكم طالبة الانفصال عن زوجها جسمـاً ومـالاً. ورفعت الدعوى وظلت معلقة امام محكمة الشاتليه ووقف القضاة حائرين بين ما يريده الملك وما يريده الحق. ولكن الحيرة لم تلبث طويلاً بعد ان لوح الملك لكبير القضاة بكرسي وزارة العدل، فصدر الحكم في ٧ تموز سنة ١٦٧٤ قاضياً بانفصال المركيز عن زوجها بدعوى ان الزوج بدد الثروة الزوجية واساء معاشرة الزوجة وانه غير كفء لها. وهكذا استطاع لويس الرابع عشر ان يفرض جبروته على مواطن له منتزعاً زوجته منه.

● ● ●

وبعد مضي عدة سنوات على هذه العلاقة الغرامية، بدأ الملل يتسرب الى قلب لويس الرابع عشر لما بدت في سماء فرساي انجم زهر رنت اليهن عين الملك بعـد ان ملت طلعة المركيزة دى مونتسبان طوال تلك السنين. وكانت اولى تلك الانجم الآنسة دى روشفوريتوبون، وقد مرت بقلب الملك

مروراً لم يتـرك اثراً ولم يحفل به غير العشيقة المهجورة التي رأت فيه بدء نهـايتهـا. وجاءت بعدها الاميرة دى سوبيز وقد احبت الملك لفرط حبهـا لزوجها، ذلك انها تريثت حتى حصلت لزوجها على ما كان يتطلع اليه من رتب ومناصب ومعاش، ثم حزمت امتعتها وانسحبت في غير ضجة معلنة ان المكان شاغر لمن تشغله، ولحقت بالزوج الوديع الهادىء فالفته قرير العين مرتاحاً الى تلك الرحلة المنتجة، يرى رأي موليير ويردد قوله: (يا ليت شعري هل في مشاركة الارباب من عار!) واعقبتها السيدة دى لوردر فكانت شمسها تسطع حيناً وتخبو حيناً آخر حتى افلت، وانصرف الملك عنها الى السيدة دى مانتنـون ارملة الشـاعـر سكـارون، وكانت قد الحقت بالقصر مربية لاولاد المـركيزة، فما لبثت ان شغلت مكانها في قلب الملك واصبحت العشيقة المدللة، وانتقل اليها كل ما كان يحف بالمركيزة من مظاهر الاجلال والتعظيم.

بيد ان كل هذه الغراميات لم ترو عطشه الى حب يملأ في قلبه الفراغ الذي احدثه زهده في المركيزة دى مونتسبان، وان في نفسه مثلاً عالياً من الجمـال والانوثة لم يصادفه في احدى تلك العشيقات. وإلا فكيف نفسر انـدفـاعـه نحـو الـواحـدة منهن واقباله عليها بحجة قلبه ونفسه حتى يظن المحيطون به ان المجنون قد وقع على ليلاه. ثم لا تنقضي اسابيع أو شهور حتى يعاوده الضجر وينتابه السأم، فيهيم بين نساء البلاط يفتقد المرأة التي يناديها قلبه فلا يجدها. .

وساق اليه الحظ ضالته في شخص فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، شقراء كالسنبلة تفيض عيناها الزرقاوان طفولة ويقطر وجهها عذوبة وتنضج روحهـا رقة وبشراً. تلك كانت الآنسـة انجليـك دى مونتانج. وهي سليلة اشـراف تخـطاهم الحظ وقعـدت بهم صعـوبـات الزمن وسحرهم ما كانوا يسمعون عن عشيقات الملك فأرادوا ان يكون لابنتهم من هذا الحظ نصيب وارسلوها الى القصر وصيفة متوسمين فيها ما يجعل فؤاد الملك يهوى اليها

فلم يخطئوا حساباً. ولقد ولع بها لويس الرابع عشر واعطاها من قلبه ومجده ما لم تحظ بمثله عشيقة من قبل، وتوسطت شمسها سماء فرساي فكسفت ما كان يحيط بها من الاقمار، وايقن اهل البلاط انهم صاروا امام الكوكب الذي لا يأفل بل حيال الشمس التي لا تغيب ابداً.

ولم يكن لهذا الامر ان يمر دون ان تدب افاعي الغيرة في قلب المركيزة دى مونتسبان، وجعلت تروح وتجيء هائجة مضطربة تستقبل احياناً اناساً غير معروفين لاحد من رجال القصر وتنتبذ بهم من الناس في مخدعها مكاناً قصياً، وثارت كبرياؤها لما فرض الملك عليها البقاء في فرساي لترمق بعينها دورة النجم الجديد في سماء البلاط فهدرت وزمجرت وطار صوابها حتى قالت للملك في غصة انها تحمد الله على هذا الفراق الذي اراح انفها من رائحته النتنة، ثم اعتكفت عن الناس اياماً ظنوا فيها انها كانت تبكي وتنتحب ولكن الله يعلم انها كانت تفعل غير الظاهر.

ولم يمض العام حتى اختطف الموت الدوقة دى مونتانج، وذهب الناس في تأويل موتها كل مذهب. فقال قوم انها ماتت مسمومة وقال آخرون بل اماتها السحر وقال غيرهم غير ذلك.

● ● ●

في هذه الاثناء انفجرت على نطاق الرأي العام قضايا السحر والسموم التي بات ضحاياها كثر، حتى ان الملك لم يثق بالقضاء العادي فأمر بتشكيل محكمة خاصة تتولى التحقيق في تلك القضايا والحكم فيها بشكل سريع.

لقد فحت العيون قضية مركيزة دى برانفيلييه وكشفت امام انظار المحققين اجواء واسعة في عالم الاجرام. وكان قساوسة كنيسة نوتردام قد اعلنوا من غير ان يعينوا الاسماء ولا الاشخاص ان معظم الذين وفدوا عليهم لتأدية فريضة الاعتراف اعترفوا بانهم سمموا بعض الناس. وكانت الظنون والريب قد احاطت بمصرع دوقة اورليان وبالوفاة التي اصابت الوزير هوج دوليون وبالامراض التي صحبت مرض دوق سافوا حتى مماته. وكان اولو الامر قد

ضبطوا ورقة سقطت من جيب احد المعترفين بكنيسة الآباء اليسوعيين وفيها مشروع مؤامرة لتسميم الملك وولي عهده. فاهتم الملك للامر اهتماماً كبيراً وانعقدت المحكمة الخاصة وظلت تحقق حتى هداها البحث الى شخص اسمه لويس فاننس ضبطت بين اوراقه وثيقة تثبت وجود جمعية واسعة النطاق تضم السحرة والمشعوذين والكيمياويين ومزيفي النقود، ولها اعضاء كثيرون مبعثرون في قصر الملك وبيوت الامراء والاشراف.

وقادت التحقيقات النائب العام (لاريني) الى ضبط جمعية اخرى من السحرة ترأسها امرأة اسمها مونفوازان لم يلبث خطرها ان تجلى لعيون المحققين لما ايقنوا ان هذه المرأة كانت تأتمر والمركيزة دى مونتسبان على حياة الملك، ولما قام الدليل القاطع امامهم على ان المركيزة دى مونتسبان كانت تتردد على اعضاء تلك الجمعية لتستعين بعلمهم على الاستئثار بقلب الملك وعلى الكيد لمنافستها من العشيقات الاخريات.

كان للسحر في ذلك الوقت اهمية كبيرة، حتى ان الفيلسوف اللاهوتي الكبير بوسويه كان يؤمن بالسحر ويثق بقوة اثره فى حياة الانسان، وان المحاكم كانت تأخذ السحر قضية مسلماً بها فتصدر الاحكام بعقاب السحرة على ما ارتكبوا بسحرهم ضد الناس. وان السحر كان علماً يرثه الابناء عن الآباء ويحتفظون بسره لذراريهم وديعة يلقنونهم اياها ويحرصون على تعاليمهم ان تذاع. وكان بعضهم لا يعترفون بها حتى فوق النطع ساعة الاعدام. ولقد كان الانتقام من الاعداء بوسائل السحر امراً مألوفاً بين الشعب سواء في ذلك المتعلمون أو النبلاء والطبقة الدنيا والجهلاء.

وقد ثبت للمحققين ان المركيزة دى مونتسبان بدأت تزور دور السحرة سنة ١٦٦٦ وهي السنة التي تطلعت فيها الى الملك وحاولت ان تنزل من قلبه منزل العشيقة المحبوبة، وفي ذلك تقول ابنة الساحرة مونفوازان في محضر التحقيق لما جيء بها بعد اعدام امها لتقر بما تعلمه عن علاقة المركيزة بأمها الساحرة (ان المركيزة كانت تهرع الى والدتي كلما آنست من الملك مللاً،

أو صادفت منه اعراضاً، وكانت والدتي تصحبها الى بعض القسس ليقيموا لهـا صلوات خاصـة من شأنهـا ان تقربها الى قلب الملك. وكان القسس يصنعون لها مساحيق تدسها في طعام الملك، وكانت هذه المساحيق تسمى مساحيق الغرام ولتركيبها طرق مختلفة اعرف منها مزيجاً من الذراريح (الذبابة الهنـدية) ودم الخفـاش واجزاء من رؤوس حيوانات صغيرة تجفف وتسحق وتخلط بالـدم البشري وتصنع منها في النهاية عجينة يأكلها الملك بعد ان يباركها القسيس).

أمـا السـاحر لوساج فقد شهد امام المحققين بالتالي: «ان المركيزة كانت تعتمـد في اجتـذاب الملك اليهـا على الاب مارييت قسيس كنيسة القـديس سيفـران الذي كان يلبس المسوح الكهنوتي ويصلي امام الهيكل بعض صلوات يرتل في اثنائها الاناشيد الكنسية. ثم كانت مدام دى مونتسبان تركع على ركبتيها ويباركها الاب مارييت وهو واضع يديه على رأسها بينما هي تدعو وتبتهل الى الله ان ينيلها امنيتها فتقول: (اني اريد ان يخصني الملك بحبه وولي العهد بصداقته واريد الا يفتر الملك عن حبي وان تصبح الملكة عاقراً وان يعاف الملك سريرها ومائدتها وان يجعل لي عنده الحظوة الكبرى حتى لا يرد لي امراً ولا يخيب لي رجاء. واريد ان اظل مهيبة محترمة من اعيان الدولة وكبرائها وان يدعوني الملك للاستنارة برأيي في كل المسائل، واريد ان يحل غضب الملك بالآنسة لافاليير فيكرهها وان يحدث ما يحمل الملك على طلاق زوجتـه فاتـزوج به واصبـح ملكة فرنسا). ولقد شاهدت الاب مارييت مرة اخرى وقد فتح بطن حمامتين واخرج قلبيهما يقطران دماً وبارك احدهما واسماه لويس الرابع عشر وبارك الثاني واسماه المركيزة دى مونتسبان ثم ضم القلبين الواحد الى الآخر وهو يصلي ويقول: فليكن كذلك من امر صاحبي هذين الاسمين».

ولان القصة قصة سحر، شاءت الاقدار أو المصادفات المدهشة ان تلفت المركيزة دى مونتسبان نظر الملك على اثر هذه الصلوات فما ان كاشفها

بحبه حتى ايقنت ان السحر بدأ يؤتي ثماره، فاندفعت تجوب اندية السحرة يقودها اليها الشفاليه لويس فاننس وتنتقل من ساحر الى ساحرة حتى عثرت بقسيس اسمه جيبور كانت له خبرة واسعة بفنون الزار واستخدام الجن. ولقد قصدت اليه المركيزة ذات ليلة ليسعفها بما اوتي من العلم، فأقام لها زاراً يصفه احد الشهود الذين حضروه فيقول:

«لم تكد تمضي خمسة دقائق على وجودها، حتى خلعت المركيزة كل ثيابها ونامت عارية الجسد على مقعد طويل، واقبل الاب جيبور يمسح جسمها بيده ويقول: يا استاروت ويا اسموديه ويا ملوك الحب اسألكم ان تقبلوا هذه الضحية التي اقدمها اليكم واطلب منكم ان تشملوا هذه المرأة بعطفكم ورعايتكم وان تجعلوها محبوبة الملك لا تشاركها في حبه امرأة اخرى. ومد القس يده وراء ستار وحمل طفلًا صغيراً لا يتجاوز عمره الشهرين، وتناول سكيناً غرسه في رقبته وتناول قدحاً تلقى فيه دم الطفل حتى امتلأ وفاض ثم القى الطفل جانباً، وكان قد مات، فحملته امرأة وخرجت به من وراء الهيكل واقبل بقدح الدم يطوف به حول رأس المركيزة وقلبها وهو يتمتم صلوات لم افهم منها كلمة. ثم عاد ينادي استاروت واسموديه وملوك الحب، وهو جاثم امام المرأة العارية. ونهضت المركيزة بعد ذلك ونفحته مبلغاً كبيراً من المال وانصرفت».

لم تكن لمثل هذه الشهادة لتصدق، لفظاعة ما ترويه. فاستحضروا عشيقة القس جيبور وكانت لا تعرف انه متهم وسألوها ان تقص عليهم كيف كان رفيقها يقيم الزار على جسد المركيزة، فانكرت، وظلت تنكر حتى رأت آلات التعذيب تنصب امامها، فاعترفت وجاء اعترافها مطابقاً لشهادة الشاهد. ثم جاء اعتراف جيبور نفسه معززاً لشهادة الاثنين.

وحين دقق المحققون في النشرات الطبيعة التي كان الطبيب داكان يقدمها عن صحة الملك كلما مرض، الفوا تواريخها متوافقة كل التوافق والتواريخ التي عينها الشهود لزيارة المركيزة اندية السحرة الذين كانوا يقدمون

اليها المساحيق والسوائل ليأكلها الملك ويشربها. ولقد كانت تعتري الملك احياناً نوبات عصبية واوجاع في الرأس والمفاصل وآلام حادة في المعدة والامعاء يحار الاطباء في تعليلها وفى وسائل شفائه منها.

ولشد ما كانت دهشة المحققين عندما اتضح لهم في النهاية ان هذه الامراض الطارئة لم تكن إلا نتيجة ما كانت المركيزة الجميلة تدسه لعشيقها في المأكل والمشرب بواسطة خدام كانت تختارهم خصيصاً لخدمته على المائدة ليزداد بها غراماً وهياماً.

لعله من الغريب ان تشك المركيزة دى مونتسبان أو تتردد في الايمان بفعل السحر واثره فيما كانت تبتغيه وهي ترى نجمها في صعود مطرد والملك يهجر عشيقاته عقب كل زار ليعود اليها تائباً باكياً؟

وكيف لا تؤمن بعلم الاب مارييت والاب جيبور وهي ترى الملك يكره عدوتها ومنافستها لافاليير على ان تقوم بخدمتها مع الوصيفات ويعرض عن مدام دى لودر ولم يمض معها غير ليال معدودات، ويزهد في الاميرة دى سوبيز فتبرح القصر ولا تعود تخطر له ببال، ويهجر مدام دى مانتنون فلا يزورها إلا بعدما ان هام بها كالمجنون واصبح عبداً لها.

— حين تمتزج الغيرة بالحقد فان ذلك يخرج المرأة عن صوابها ويدفع بها الى اقصى حدود الشر والجريمة. ولقد يهون على المرأة كل شيء ولكن لا يهون عليها كبرياؤها تدوسها امرأة سواها تنازعها قلب عاشقها.

ولقد وجدت المركيزة دى مونتسبان في هذه الحالة النفسية الحادة فعقدت مؤتمراً من السحرة وشاورتهم في الامر فلجأوا الى الوسائل القصوى في السحر، ولكن حب الملك للدوقة الصغيرة كان امنع من ان تنال منه الصلوات والزار والرقى والتعاويذ.

اذن.. فليهلك الملك ولتهلك الدوقة وليكن بعد ذلك ما يكون وليأت المطاف.

نهضت المـركيزة الى بيت السـاحـرة مونفـوازان واستشارتها في خير الوسائل لقتل الملك وعشيقته.

واستقر الرأي على تسميمهما بنوع من السم كانت تعرف سر تركيبه، ومن شأن هذا السم اذا مس بشرة الانسان تشربته البشرة وسرى الى الدم فيميت.

كان للملك يوم في كل شهـر يجلس فيه على العـرش ويستقبـل المـظلومين من رعـاياه يرفعـون اليه شكاياتهم في شكل عرائض مكتوبة. فاقترحت مونفوازان ان تذهب بنفسها الى القصر لترفع الى الملك عريضة تطليها بذلك السم، حتى اذا مسها بيده سرى السم الى جسمه فلا ينجو من اثره الاكيد.

اما الدوقة دى مونتانج فقد استحضروا لها احد اتباعها وألبساه لباس تجـار الازياء المتنقلين وزوداه ببضـائـع بينها قفاز مسموم صنع من اجمل اصنـاف الجلد وزركش احسن زركشة وارسلاه الى الدوقة يعرض عليها ما يحمل ويغريها بتجربة القفاز الجميل.

ولعبت الصـدفـة دورهـا، فمـرض الملك في اليوم المعد لاستقبال الشاكين والمظلومين، فكان لا مناص للساحرة من انتظار مثل هذا اليوم من الشهـر الـذي يليه، ولكن لم تمض ايام حتى قبض عليهـا لتهم اخـرى، فاحـرقت العـريضـة المسمومة، وهكذا نجا لويس الرابع عشر من الموت الذريع بأعجوبة من اعاجيب المصادفات.

اما الدوقة دى فونتانج فقد اعتلت صحتها وهي في الشهر الاخير من حملها بفعل المساحيق والسوائل التي كانت المركيزة تغري خدامها بدسها فيما تأكل وتشرب. فلما وضعت لم تقو بنيتها المتهدمة من تأثير السموم على تحمل آلام الوضع، فماتت.

وهكذا استراحت المركيزة دى مونتسبان من تلك المزاحمة التي طالما

جعلتها تنام بليلة الملسوع، وهل يكون افضل من ذلك من ازاحة منافسة لها الى النهاية الابدية.

● ● ●

رفع النائب العام لاريني تقريره الى الملك، بعد انتهاء المحكمة الخاصة من التحقيق في هذه القضية، حاوياً كل التفاصيل، يؤيدها من الادلة والبراهين ما لا سبيل للشك اليه. وفتح الملك عينيه على الحقيقة ووقف على ماكانت تكيده له تلك المرأة التي خصها بأوفر نصيب من قلبه ومجده والتي ظل يرفعها حتى كادت ترتقي العرش عابثة لاهية. والفى نفسه بين امرين احلاهما مر: اما ان يدع العدالة تجري في مجراها وتأخذ الفاجرة بما اثمت، وهنا لا مفر من فضيحة يسير بها الركبان ويتحدث بها العالم وتظل لاصقة باسماء ابنائه منها، واما ان يطوي صفحات التحقيق وينقذ المجرمة من بين براثن القانون لينقذ اسمه وعرشه مما يكشف عنه هذا التحقيق فيما يتعلق بالمركيزة وان يحرق المحاضر بما اشتملت عليه مكتفياً بما اصدرته المحكمة من احكام الاعدام على السحرة شركاء عشيقته في الاجرام.

واقبلت المركيزة على الملك تبكي وتنتحب وتتعلق بأذياله طالبة الصفح والغفران، فلما آنست منه عدم الاكتراث بدموعها وتوبتها تحركت في نفسها كبرياء المرأة، وتجمع في ذاكرتها ما قاسته من آلام الغيرة، وما اصابها من الاهانة والاذلال، وهبت واقفة وامطرت الملك وابلاً من اللوم والعتاب قائلة انها اذا كانت قد اقدمت على ما اقدمت عليه فلان حبها كان اقوى من صوابها ولان الملك لم يرحم كبرياءها الجريح ولم يواس عزتها المكلومة.

وختمت دفاعها وهي تهوي على الارض فاقدة الرشد تردد قولها: والآن هذه ام ابنائك بين يديك فاصنع بها ما تشاء.

نحيت المركيزة عن القصر وهجرت باريس وانتبذت من الناس عزلة قصية في دير من اديرة الريف. وقد حرم الملك على اهله وحاشيته ان يذكروا اسمها في البلاط، حتى انه لم يسمح لها بحضور حفلة زواج ابنها وابنتها،

وحتى انه حرم على اولادها ان يلبسوا عليها الحداد يوم وفاتها.

أما هي فقد عاشت بعدها سبعة وعشرين عاماً في حياة من التدين كأن ذلك قد اعاد الى قلب هذه المرأة العاتية بعض الشعور بالندم على ما اسلفت، فتوسلت الى زوجها ان يعفو عنها وان يتقبلها في بيته تائبة نادمة، ولكنه ارسل اليها يقول انه لا يريدها ولا يريد ان يسمع بها مادام حياً. وهكذا قضي عليها ان تعيش هذه الحياة وهي تزكي وتواسي المرضى والفقراء وابناء السبيل ورصدت كل مالها على اعمال الخير والبر والتقوى الى ان ماتت.

● ● ●

ربما كانت قصة غرام لويس الرابع عشر مع المركيزة دى مونتسبان أو مع دى لافاليير أو مع غيرهما مما تناولته الشاشة الفضية في الكثير من افلامها.

وقصص غرامياته يضفي عليها طابع السحر والشعوذة، ولجوء العشيقة للتخلص من غريمتها عن طريق وضع مواد سامة، كادت ان تسمم الملك بها حتى لا (يطير) من يدها وتأخذه منها غيرها.

كان الشعب الفرنسي في ذلك الوقت ميالاً الى العواطف نزاعاً الى الحب. بل كان ملكه ايضاً - لويس الرابع عشر - أولع ما يكون بالغرام، وافتن ما يكون بالغادات الحسان. فقد احب لويس الرابع عشر فتاة في الثامنة عشرة، ذهبية الشعر، زرقاء العينين، رقيقة المظهر، حيية خجولاً، يسحر جمالها الانظار ويأخذ بمجامع الافئدة والقلوب.

فقد احب هذا الملك لويزا دى لافاليير ثم انصرف عنها بعد بضع سنوات. اما هي فقد اخلصت له الود، واحبته حباً صادقاً. وكانت في خلال اتصالها به، تعتقد انها ارتكبت خطيئة مروعة، وان الله لن يغفر لها هذا الذنب، وان من واجبها ان تسمو بهذا الحب جهد الطاقة وتخلص فيه كل الاخلاص كي تشفق عليها العناية وتمنحها الصفح والتوبة.

وبما ان عواطف الملك متقلبة، مال عنها الى مدام دى مونتسبان،

فاحتملت عذاباتها بنفس هادئة، وصبرت على الاعراض والذل، واعتبرت آلامها عادلة، ورضيت بها تكفيراً عن خطيئتها، ثم قدمت هذه الآلام الى الله واتجهت اليه بالصلاة والتقوى عساه ان يرحمها ويغفر لها ماضيها. واشتد بها العذاب، وضاق صدرها ذرعاً بخيانة الملك، فوطنت العزم على الانقطاع لخدمة الله.. وودعت العالم ودخلت الكرمليات حيث ماتت بعد ست وثلاثين سنة، قضتها في الزهد والتقشف والعزلة.

ويلاحظ ان بطلات الحب القديمات امثال ايزولت وفرنشيسكادى رميني، كن لا يحفلن بنتائج هذا الحب ولا يندمن عليه ولا يشعرن حياله بتبكيت الضمير. اما بطلات القرن السابع عشر، فكن يعتبرن الحب خطيئة مع اخلاصهن وتفانيهن فيه. فقد كن في صميم قلوبهن مسيحيات كاثوليكيات، يطالعن اعمال القديس فرنسوا دى لاسال، ويذهبن الى الكنيسة في بعض الاحيان لسماع الوعظ الديني، ويجادلن اصدقاءهن في البحوث الاخلاقية واللاهوتية، ويفحصن ضمائرهن اذا ما اعتزمنا الاعتراف الى القسيس، ويذرفن الدموع في الكنائس كلما قام كاهن نابغ بتأبين شخصية عظيمة وشرع يتحدث عن القصاص الذي يعده الله في العالم الآخر للمذنبين العاصين.

ويتبين من التحليل النفسي لمثل هؤلاء النسوة انهن كن يقفن في مستهل شبابهن تحت تأثير الحب المحرم، وكن يعرفن اللذة والالم، ولكن تقديسهن الحياة الروحية كان يستيقظ في نفوسهن متى بلغن سن الكهولة، وذبلت زهرة جمالهن، فكن يلجأن حينئذ الى الله مدفوعات بقوة خفية لا تقبل المقاومة، فيلوذ البعض منهن بالصلاة والتقوى، ويدخل البعض الآخر الدير كما فعلت لويزا دي لافاليير.

ومثل هذا الصنف من النساء اللاتي بالغن في التمتع في التدين والتفكير يحفل بهن القرن السابع عشر. ولكن الظاهرة الهامة التي يجب ان نسجلها، والتي مهدت لاسلوب الحب العابث في القرن الثامن عشر

تتلخص فيما يأتي : حين عصفت الشيخوخة بالملك لويس الرابع عشر، ارتد الملك نفسه الى عقله وثاب الى رشده، وعاد هو الآخر الى التدين والتقوى، فاقتدى به رجال ونساء البلاط، وطفت على الشعب موجة من التدين (الاجباري) واصبحت الفضيلة مفروضة على الناس فرضاً. . فتولد من ذلك ضرب من النفاق واخفاء الذنوب تحت مظاهر الفضيلة، وستر الملذات بقناع التدين.

يرى فرويد ان الدين ينبع عن عجز الانسان في مواجهة قوى الطبيعة في الخارج، والقوى الغريزية داخل نفسه. وينشأ الدين في مرحلة مبكرة من التطور الانساني عندما لم يكن الانسان يستطيع ان يستخدم عقله بعد في التصدي لهذه القوى الخارجية والداخلية، ولا يجد مفراً من كبتها، أو التحايل عليها مستعيناً بقوى عاطفية اخرى. وهكذا لا بد من التعامل مع هذه القوى عن طريق العقل، يتعامل معها بـ (عواطف مضادة)، بقوى وجدانية اخرى، تكون وظيفتها هي الكبت أو التحكم فيما يعجز عن التعامل معه عقلانياً.

وفي هذه العملية، ينمي الانسان ما يطلق عليه فرويد اسم (الوهم)، وهذا الوهم تؤخذ مادته من تجربته الفردية الخاصة عندما كان طفلاً. اذ يتذكر الانسان - حين يواجه قوى خطرة لا سبيل الى السيطرة عليها أو فهمها - ويتذكر الانسان ويعود القهقرى الى تجربة مر بها وهو طفل، حينما كان يشعر ان اباه يحميه، اباه الذي يعتقد انه اوتى حكمة عالية، وقوة، وهو يستطيع ان يكسب حب ابيه وحمايته باطاعة اوامره، وتجنب نواهيه.

وهكذا يكون الدين، في رأى فرويد، تكراراً لتجربة الطفل. ويتعامل الانسان مع القوى المهددة له بنفس الطريقة التي تعلم بها وهو طفل أن يتعامل مع شعوره بعدم الامان، وذلك بالاعتماد على والد يعجب به ويخافه. ويقارن فرويد بين الدين وبين عصاب الانحصار الذي نجده عند الاطفال،

والدين في رأيه عصاب جماعي تسببه ظروف مماثلة للظروف التي تحدث عصاب الطفولة.

إن نهاية الملك لويس الرابع عشر مع عشيقاته كذلك، اذا ما وضعناها امام المحلل النفساني، والذي يعد ملاحظاً مشاركاً لافكار شخص آخر ومشاعره، فانه قادر على اضافة برهان آخر على حقيقة ان الحاجة الى اطار للتوجيه وموضوع للعبادة متأصلة في الانسان. وفي دراسته لانواع العصاب يكتشف انه يدرس الدين. وكان فرويد هو الذي رأى العلاقة بين العصاب والدين، ولكنه حين فسر الدين على انه العصاب الجماعي لطفولة الجنس البشري، كان من الممكن عكس هذا القول ايضاً، اذ نستطيع ان نفسر العصاب على انه شكل خاص من اشكال الدين أو على نحو اكثر تخصيصاً ـ نكوصاً الى الاشكال البدائية للدين يتصارع مع النماذج الرسمية المعترف بها من الفكر الديني.

وبامكان المرء ان ينظر الى العصاب من وجهين: ان يذكر الرؤية على الظواهر العصابية نفسها، أي على الاعراض والمصاعب الاخرى الخاصة بالمعيشة التي يحدثها العصاب. أما الوجه الثاني فلا يعني بالايجابي من حيث هو كذلك، أعني بالعصاب، بل بالسلبي، اعني باخفاق الفرد العصابي في تحقيق الاهداف الاساسية من الوجود الانساني، كالاستقلال والقدرة على ان يكون منتجاً، وعلى ان يحب ويفكر. وكل من اخفق في بلوغ النضج والتكامل يصيبه هذا النوع من العصاب أو ذاك. فهو لا يعيش وكفى، غير عابىء بفشله، قانعاً بالطعام والشراب والنوم، راضياً بممارسة الجنس ومزاولة عمله، فلو كان الامر على هذا النحو لكان لدينا بالتأكيد برهان على ان الموقف الديني ـ وان يكن امراً غير مرغوباً فيه ـ إلا انه ليس جزءاً اصيلاً في الطبيعة الانسانية. بيد ان دراسة الانسان تبين ان الامر خلاف ذلك. فلو ان شخصاً لم ينجح في ادماج طاقاته في اتجاه ذاته العليا، فانه يسيرها في اتجاه الاهداف الادنى، فاذا لم تكن لديه صورة عن العالم وموقفه فيه تكون

قريبة من الحقيقة، فانه سوف يخلف صورة وهمية يتشبث بها بنفس الاصرار الـذي يؤمن به رجل الدين بمعتقداته. والحق ان الانسان لا يعيش بالخبز وحـده، وليس لديه إلا اختيار بين الاشكال الحسنة أو الرديئة، السامية أو الدنيئة، المرضية أو الهدامة، من الفلسفات والاديان.

إن المرضى بالعصاب القهري يعرضون اشكالاً عديدة من الطقوس الخـاصة. فالشخص الذي تدور حياته حول الشعور بالذنب والحاجة الى التكفير قد يختار الاغتسال القهري بوصفه الطقس المسيطر على حياته، وقد يختار شخص يتبدى عصابه في التفكير اكثر مما يتبدى في الافعال - طقساً يدفعه الى التفكير أو الى صيغ معينة مفروض فيها ان تمنع وقوع الكارثة، أو صيغ اخرى تضمن النجاح.

وسواء وصفنا هذه الصيغ بانها اعراض عصابية أو طقوس، فان هذا الوصف يتوقف على وجهة نظرنا، غير ان هذه الاعراض (هي) في جوهرها طقوس دين خاص.

ت. لورنس

هناك اسماء في التاريخ، مهما تجاوزها الدهر، يبقى لها اسم رنان في عالم الذكريات

ولـورنس العرب هو احد هذه الاسماء التي اشتهرت في مطلع هذا القرن، وبقيت لغزاً من الالغاز حتى بعد وفاته في حادث غامض في ١٩ ايار ١٩٣٥ حيث بقي الكثير من الناس يؤكدون ان مقتله ما هو إلا احدى الطرق الخادعة التي تلجأ اليها المخابرات البريطانية حتى تعطي لعميلها دوراً آخر وباسم غير الاسم السابق حتى يتم مهمته.

يشدك لورنس في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) فتقرأ به عن اجدادك والمـرحلة الاخيرة من الحكم العثماني للاقطار العربية، فتتذكر الرومانسية التي رافقت حياتهم.

والشهرة التي تعاظمت من حوله كان معظمها من صنعه، وعلى اساس كتـابـه والتخيلات الغريبة التي فبركها للصحفي الامريكي (لوليل توماس) خلال الايام القليلة التي امضـاهـا مع لورنس في الصحراء. لقد كان ولع توماس بالدعاية والعبقرية هو الذي جعله يخلق شخصية لورنس العجيبة. ثم يطلق عليها الاسماء من العالم السحري الذي تخيله (لورنس العرب، امير مكة، الملك غير المتوج للجزيرة العربية، ومنقذ دمشق). وما الى ذلك من الاسماء الغريبة التي استولت على عقول الغرب. لقد كانت اوربا في حاجة الى بطل في الحرب، فكان لورنس هذا البطل الذي جسد كل ما يمكن وما

لا يمكن للعقلية الاوربية ان تتخيل. ولـورنس نفسـه لم يكن افضـل من توماس، بل لقد كان اشد سوءاً. فتوماس لم يكن مدعياً.. كان يقول دائماً انه شخص استعراضي. اما لورنس فهو الذي زود توماس بالحكايات والاوهام التي تساعد على خلق الاسطورة.

ففي (اعمـدة الحكمة السبعة) تعمد ان يطبع منه طبعة محدودة لم تتجاوز ستا وعشرين نسخة، ووزعت هذه النسخ سراً على اشخاص محددين ومختارين. وقد تعهد الا يرسل نسخة واحدة لاية صحيفة أو مجلة خلافاً لما جرت عليه عادة الكتاب والناشرين. وكان هذا جزءاً من عملية دعاية واسعة، تنفذ وفق احدث ما تقدمه مكاتب العلاقات العامة. وهو الذي جعل الناس ينتظرون بفارغ الصبر الطبعة الرخيصة لكتابه (ثورة في الصحراء) التي نشرت بعد بضعة اسابيع؟ وقد قال فيها ان العرب كانوا يسمونه اورانز أو لورنز، مع ان العرب لم يجدوا اية صعوبة في نطق اسمه.

لكن المثير ان العرب خلقوا اسماً خاصاً له! لكي تتم جوانب الاسطورة أو الاكـذوبـة الكبـرى بالطبع. إلا ان الضوضاء التي اثارها حوله في اطار الدعاية الشخصية بقيت شيئاً تافهاً امام الذكريات الاكثر تعذيباً حول ما صنعه بالعرب: الخداع الذي اكتشف انه اكثر عذاباً للنفس من أي شيء آخر. وكان من الصعب ان يتعايش معه، وكان اكثر صعوبة ان ينساه! فادعاؤه هو الذي قاد العرب في نضالهم ضد الاتراك وحقق لهم حريتهم هي التي تثير هذه الآلام المتعاقبة من جراء تعدد الكوابيس. لقد كان يريد نوعاً من الحرية لهم، ولكنه نوع خاص، حرية في داخل الامبراطورية البريطانية، دون ان ينسى دوره في حرية المستقبـل: مستشار الحاكم العربي المقبل. نعم لقد اراد الكثير لنفسـه، واراد ان يتكلم باسم المـلايين ومن اجـل ذلك، من اجل السلطة استغل العرب.

لورنس العربي هذا هو توماس ادوارد لورنس الذي ولد في ١٦ آب عام ١٨٨٨ وكـان الابن الثـاني غير الشرعي للسير توماس روبرت تشابمان من

السيدة سارة مادن، التي كانت تعمل في منزله كمربية لبناته الاربع، فاحبها وهجر زوجته الشرعية من اجلها. ثم رحلوا جميعاً من ايرلندا واستقروا في مقاطعة ويلز، وهناك عاشرها معاشرة الازواج، وما لبث ان بدّل اسم أسرته من تشابمان الى لورنس.

في عام ١٩١٩ توفي الوالد - أي السير لورنس - وذلك اثر اصابته بوباء الانفلونـزا، بينمـا توفي لورنس الاسطورة في عام ١٩٣٥، وذلك على اثر اصابته في اصطدام حدث لدراجته النارية. اما الوالدة فقد توفيت عام ١٩٥٩ بعد ان عاشت حياة طويلة امتدت الى ثمان وتسعين سنة.

وقد روى لورنس في مذكراته الشخصية انه كان في العاشرة من عمره عندما اعترف والده بواقع حياته الزوجية وقصة فراره مع والدته من ايرلندا. ويذكر ايضاً ان والده كان يرغب الزواج من والدته بصورة شرعية، لو ان زوجته الشرعية - الليدي تشابمان - رضيت بالطلاق منه. والظاهر ان لورنس تأثر جداً بمـا عرفه عن ماضي اسرته، ذلك الماضي الذي جعل رفاقه في المدرسة يعـرضون عنه وعن مخالطته ومعاشرته كغيره من الطلاب. من هنا كان ان تولدت في نفسيته نزعة جامحة هي التي كانت تدفعه نحو المعالي، وهي التي كانت تحثه على القيام بمثل تلك الاعمال الخارقة التي يمكن بها من التفوق على جميع اقرانه الطلاب، الذين كانوا ينظرون اليه من زاوية القيم الاخلاقية السـائدة في ذلك العصر يقيناً منهم بان ذلك كان كافياً لتجريده من جميع الاعتبارات الاجتماعية. ومما كان يزيد في اعتباره الاجتماعي حرص والديه على تمسكهمـا بالمبـادىء والقيم الاخـلاقية، وحرصهما على بقاء اواصر عائلتهما القوية، متينة، مترابطة. واهم من كل ذلك ان والدته قضت حياتها شريفة بين الناس، تقية، مخلصة لزوجها، عطوفاً على اولادها، حريصة كل الحرص على ان تربيهم تربية صالحة.

ويمكن القول ان انصراف والدة لورنس الى تربية اولادها تربية حسنة لائقة، وانصرافها الى الصلاة واعمال البر والاحسان، انما كان بدافع ما كانت

تشعر به من وطأة تلك الجريمة التي اقترفتها بحق مخدومتها الليدي تشابمان، على تفكيرها وضميرها.

وبعد ان التحق عام ١٩٠٧ بجامعة اكسفورد استطاع في غضون فترة قصيرة ان يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار. وبلغ اهتمامه بالحصون والقلاع القديمة المنتشرة في انكلترا وفرنسا حداً كبيراً دفعه الى السفر الى سورية وفلسطين سعياً لدراسة القلاع الصليبية هناك والاطلاع عليها عن كثب. وما ان وطأت قدماه ارض الشرق حتى راح يطوف في مناطقه سيراً على الاقدام. فكان اذا جن الليل لا يتردد عن طرق ابواب بيوت البدو ليقضي ليلة بينهم. والمدهش في لورنس انه كان لا يتوقف ولا يكف البتة عن السفر والتنقل حتى في اشد حالات الارهاق أو تعرضه للمرض. وطبيعي انه وجد في سحر الشرق وروعته، ولطف شعبه وكرمه، وشهامته، وحسن ضيافته، ما كان ينسيه مرضه ويخفف عن نفسه شدة النوبات التي كانت تنتابه.

بقي لورنس ينقب عن الآثار الى عام ١٩٠٥ حيث بلغ القيظ اشده في ذلك العام مما سبب له شدة الارهاق. فاوقف عمليات الحفر والتنقيب عن الآثار في المدن العربية وقفل عائداً الى سورية مشياً على الاقدام.

وقد توصل لورنس ورفيقه الدكتور وولي الى ازاحة النقاب عن آثار اثبتت انها كانت الحلقة المفقودة في سلسلة الحقائق التي تربط ما بين الحضارات التي ازدهرت في نينوى وبابل، وبداية الحضارة اليونانية في جزر البحر المتوسط، تلك الآثار التي يعود عهدها الى خمسة آلاف سنة مضت. هذا ويضم متحف اشمولين في اكسفورد الكثير من الآثار التي وهبها لورنس له لعرضها فيه قبل ان يبلغ العشرين.

قال لورنس الكثير في العرب (كن دائماً حذر لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة. راقب نفسك ورفاقك دائماً. اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر. اقرأ اخلاقهم. اكتشف ما يلذ لهم، وتبين مواطن الضعف فيهم، واحتفظ بكل ما تكتشفه لنفسك.. ونجاحك يكون على قدر

الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل).

في هذه العبارة الاخيرة مفتاح لفهم عمل لورنس بوجه عام، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب. ولعل اهم ظفر اوتيه لم يكن استنفار العرب للحرب، بل فرض مقدرته كزعيم عسكري على اخوانه الضباط الانكليز الذين اتصلوا به اتصالاً وثيقاً. وليس ثمة ابعث على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه رتبة عسكرية، لاتباع قيادته. كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها، فهو برهان كذلك على صفاته العسكرية من ناحية القيام بالتجسس.

مكنته عبقريته من التغلب على حوائل لم يتعرض لها كبار القواد في الحرب العالمية الاولى. كان عليه ان يكون قائداً من دون قيادة، وزعيماً لا يسعه إلا افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد. وكان جيشه مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة احياناً. اما وسائل الحروب الحديثة، التي درسها لورنس وعرف مزاياها، فكانت غير متوافرة لديه فاضطر ان يعتمد على قوة ابتداعه لابتكار الخطط التي تمكنه من النجاح. واكبر العوائق التي قامت في سبيله كانت اقناع رؤسائه بقيمة هذا الجيش في الصحراء، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لاية مساعدة عسكرية غير نظامية.

إن ما تم على يدي لورنس والعرب من اعجب ما يرويه التاريخ العسكري. فقد نظمت الثورة العربية، وتحول احتلال الاتراك للجزيرة الى حامية محصورة، لم تلبث ان سقطت في ايدي اعدائها، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبة الريح. وقد كان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربي. فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح واسير من الاتراك. فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب به الجيش الانكليزي في غزة، وتفويتاً لاضراره،

وازالة كل خطر يهدد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس.

بقي حربه قائماً مع الاتراك مقترناً اسمه بالخط الحديدي الحجازي.

كان الطموح آخر قيد يفل حريته الروحية. فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام، وكأن الطبيعة قد اعدته خاصة لذلك فجردته من شهوات معظم الرجال. فليس لشهوة الطعام والشراب اثر في حياته. انه يستطيع ان يأكل عشاء كامل الالوان وان يتمتع بلذاته، إلا انه يفضل اكلة واحدة في اليوم، وافضل الطعام ابسطه. ويظهر انه كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية. وما على المرء إلا ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان، وكيف تكبلانه بقيود منظورة وخفية، حتى يعرف مدى الحرية التي ادركها لورنس بتجرده منهما.

والمعروف عن لورنس انه لم يقرب امرأة في حياته. والسيدة التي ادعت انها كانت على علاقة غرامية معه عام ١٩٠٥ واسمها فيفيان رتشاردز عادت واعترفت فيما بعد انه لم يكن بينها وبين لورنس اية علاقة جسدية من أي نوع كان.. وحسب قولها: (اني لم الاحظ انه فهم مغزى دوافعي، ولم يقم باشباع رغباتي. اني افهم الآن انه كان فاقد الاحساس نحو الجنس الآخر، وانه لم يكن يحس بوجود الجنس الآخر).

برأي الكاتب الانكليزي كولن ولسون ان لورنس كان خارجاً عن مجتمعه طيلة حياته، إلا ان خروجه هذا لم يتوقف عند حد، الى ان اغرقه في شذوذ الشذوذ على حد تعبير احد كتاب سيرته.. لقد عاش لورنس شاذاً ومات شاذاً.. يتعايش مع اشباح الصحراء التي كانت تتمثل في حبه الوحيد متجسداً في دحام البدوي، وهو شاب مراهق، اورد اسمه لورنس بـ داهوم، وهو الذي لم يستطع فراقه الى الحد الذي جعله يرافقه الى لندن في صيف ١٩١٣. وهناك اكثر من دليل على علاقته الشاذة بدحام. منها انه قام بنفسه بنحت تمثال صغير له وهو عار. وعندما مات دحام بحمى التيفوس سنة

١٩١٨ كاد لورنس يصاب بالجنون. ويقال ان طيف دحام لم يفارقه طيلة حياته، الى الحد الذي جعله يزور سراً احد مستحضري الارواح على امل ان يتحدث الى روح دحام، ويقال كذلك ان الاهداء الذي ظهر في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) موجه بالاصل الى دحام، وهو الاهداء الذي يقول فيه: (لقد احببتك، ولذلك دفعت بهذا المد من الرجال بين يدي وكتبت ارادتي في نجوم السماء).

ومن الحوادث المثيرة في حياة لورنس ما وقع له في درعا عام ١٩١٧، وطبقاً لروايته لهذه الحادثة، فان الاتراك قبضوا عليه اثناء رحلة استطلاعية كان يقوم بها متخفياً الى خطوط الاتراك. وهناك ساقوه الى الضابط التركي المسؤول عن منطقة درعا، حيث قام الضابط باغتصابه، وقام الجنود بضربه ضرباً مبرحاً. إلا ان لورنس قد قال في وصف هذه الحادثة بأنه استسلم للضابط لكي ينجو من عذاب الضرب المبرح، لكن لورانس قال في رواية ثانية للكولونيل مانيرزاغن بانه سمح كذلك لجنود الضابط التركي بالاعتداء عليه جنسياً، إلا ان لورنس وصف عملية الاعتداء عليه بانها عملية تلذذ جنسي.

وبعد، ان الحديث عن لورنس يطول ويمتد ويتشعب، وما يهمنا هنا ان الناحية الغرامية في حياته ـ بحدودها الطبيعية ـ كانت مفقودة، مع مظاهر الشذوذ والانحراف والتصعيد، بحيث يمكن القول انه كان شخصية فذة، استطاع بحنكته ان يدخل التاريخ من باب خدمة بلاده قبل نفسه ولو على حساب الغير.

● ● ●

تثير شخصية لورنس المتناقضة الاهتمام لعالم النفس، كون الكثير من اسرارها كان معروفاً للناس. فبقدر ما كانت علاقة والده مع امه مشبوهة، كانت تربية الاولاد على غير ما جرى للوالدين.

التربية الحازمة، التفاني الكامل للاولاد، توجيه عبقرية لورنس الى

الآثار والمغامرة السياسية مع الصحراء التي ولدت احداث الف ليلة وليلة، مع حادثة درعا. . كل ذلك جعلت لورنس يهرب الى الجنس الواحد أو اللواط، انتقاماً من وضعه الذي اعتبره وضع لقيط كما اعترف لزميله في معسكر الطيران في انكلترا؟

كان لورنس مازوشياًشاذاً جنسياً يحب الجلد، وطبقاً لاعترافات احد اصدقائه فقد كان يفضل جلده بالعصى. ومن هنا جاء سر الاصوات المبهمة الغامضة التي يسمعها جاره احياناً عند المساء، واحياناً اخرى في الهزيع الاخير من الليل. وكانت الاصوات المبهمة هي آهات اللذة التي كانت تصدر عن لورنس اثناء جلده.

وقد تضاربت آراء المحللين في تفسيرهم لهذه الظاهرة، فهناك من يقول ان عملية الجلد كانت عبارة عن عملية (تطهير) ذاتي بعد اذلاله في درعا، عندما قام ضابط تركي باغتصابه. وهناك من يقول انها عملية (تطهير) كرد على العلاقة التي اتسمت بطابع الفضيحة بين والده ووالدته. وقد حاول لورنس ان يشرح هذا الشذوذ برموز شفرية في كتابه (النعناع) الذي نشره على صورة تأملات اثناء خدمته السرية في سلاح الجو الملكي البريطاني، ولكنه كان اكثر وضوحاً في نظرته الخاصة لشذوذه في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة).

ويبدو ان الخيال الخصب الذي كان يتمتع به لورانس مسؤول عن هذا الاستغراق غير العادي في تعذيب الذات عن طريق الجسد، كما يقول احد اصدقائه. ولكن هذه هي الصورة البراقة (للبطل) كما يقال. والواقع ان لورنس كان يذهب الى حفلات الجلد السرية في منطقة (تشلسي) بلندن التي كان ينظمها شخص من (العالم السفلي) أي عالم المجرمين والنشاطات السرية يدعى (ذو اللحية الزرقاء). وقد اعترف لورنس لزميل له يدعى (جون بروس) بانه كان يذهب فعلاً الى هذه الحفلات بصورة مستمرة. وانه كان مجبراً على القيام بها. وادعى لورنس ان قريباً له اطلق عليه اسم (الرجل

العجوز) هو الذي كان يدفعه الى القيام بهذا العمل لانه كان يبتزه مهدداً بفضح امره، على اساس ان لورنس كان لقيطاً. وقد اعترف بروس في عام ١٩٦٨ بان لورنس ذهب الى حفلات الجلد قبل ان يذهب الى الهند، وكان يجلد اثنتي عشرة جلدة. وعندما عاد من الهند عام ١٩٢٩ ذهب الى المكان نفسه وتكررت عملية الجلد اثنتي عشرة جلدة بالتمام والكمال، ولم يكشف السبب عن سر عدد الجلدات.

لكنه جاء الى بيتي في ابردين، وبعد تناول طعام الافطار طلب الي القيام بهذه العملية وجلدته على قدميه هذه المرة، واستقل بعدها القطار عائداً الى بيته. ثم تكررت عمليات الجلد في عام ١٩٣٠ و١٩٣١ وعام ١٩٣٤. وكان الرجل العجوز وراء عمليات الجلد هذه. وقد قال لورنس في رسالة لاحد اصدقائه ان عملية الجلد كانت تستغرق عشر دقائق، وانها عملية ملذة تريحه وتجلب له الحبور.

التعويض في غراميات لورنس كانت مازوشيته؟

ڤيدور دستويفسكي

ليس من اليسر التحدث عن فيدور دستويفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) وايفاءه حقه، واظهار اهميته بالنسبة الى حياتنا الداخلية، فذلك عمل جريء شاق، وعر المسالك كثير الشعاب، لان اساليب التقدير المعروفة اعجز عن ان تحيط باتساع افقه وقوة شخصيته.

للوهلة الاولى، نظن اننا امام عمل ادبي محدود، امام كاتب من الكتاب، واذا بنا نكتشف اللانهاية، نكتشف عالماً تتحرك كواكبه، وترن افلاكه بايقاع منسجم غريب فيقول لنا اليأس: (ان عالماً كهذا يستحيل التغلغل في جميع مجاهله). انه يقدم لنا قدرة سحرية صعبة المنال، وفكرة تضيع في اللانهاية الكثيرة الغيوم، ورسالة ادبية غريبة عنا، فلا تقوى النفس ـ دون واسطة ما ـ على تأمل سماء وطنها.

وليس دستويفسكي شيئاً يذكر اذا لم نعد النظر اليه في اعماق كياننا. فعلينا ان نتحقق من قوة قابليتنا للتأثر ونغمسها في اعماق نفوسنا، ثم نسمو بها بعد ذلك الى قابلية للتأثر جديدة، متسعة الارجاء. وعلينا ان نغوص، حتى الى عمق اعماق وجودنا الخفي، كي نكشف ذلك الشيء الذي يربطنا بانسانيته، هذه الانسانية التي تتراءى لنا غريبة في بادىء الامر، وحقيقة مدهشة بعد ذلك. هنا في اعماق كياننا، في كل ما هو ابدي وثابت، نأمل ان نكشف جذراً جذراً، مصدر الصلة التي تربطنا بدستويفسكي.

إن دستويفسكي لم يكن من ابرز الكتاب الروس فقط بل من ابرز

الكتاب العالميين. فقد تغلغل في النفس البشرية كما لم يتغلغل غيره من الكتاب، وقد كان جديداً في ذلك كل الجدة. افكاره، نظرته الى الرواية كمحتوى، رفعها من اداة تسلية الى مطرح لتمزيق الحجب. كل الحجب، وتكسير الاطر. كل الاطر. قبله عالج الروائيون الكبار بشراً، ونماذج، اما هو فعالج قضايا الانسان التي هي قائمة وثابتة في كل زمن.

مع دستويفسكي صارت الرواية شيئاً آخر، وكأنه قال كل شيء، كما قال شكسبير في المسرح كل شيء بعد كبار الاغريق، وكما اقترن اسم هوميروس بالملحمة، وشأن موليير، الذي لايزال حياً في الكوميديا لم يتجاوزه الزمن.

شبح دستويفسكي الجبار خيم على الرواية منذ اكثر من قرن ولايزال. طبعاً عصر اليوم، وما فيه من وسائل مواصلات سريعة وتطور سينمائي، جعل اسلوب دستويفسكي بطيئاً الى حد ما، باعتبار ان السينما التي تأثرت بالرواية في البداية قد اثرت هي عليها بدورها، فاذا اللقطات السريعة والخطفات التعبيرية الايحائية تختلف عن طريقة دستويفكسي أو طريقة تولستوي في الاسهاب وكأنهما يذوبان في السهوب الروسية الفسيحة من دون اهتمام الزمن.

وحتى نفهم اعمال دستويفسكي الخالدة يجب ان يتحول اعجابنا الى حب جارف وان نغوص حتى الى عمق اعماق طبائعنا وعاداتنا، كي نفهم كم في هذا الروسي من اخوة عميقة، وانسانية شاملة. فأي منحدر لا نسلكه، وأي تيه لا نجتازه كي نصل الى اعماق قلب هذا العملاق؟ ان هذا العمل الادبي العظيم، الواسع، البعيد المنال، المخيف، يغدو اكثر سرية، كلما حاولنا ان نتغلغل الى اعماقه البعيدة القرار. فهو مكتنف بالاسرار، وكل شخص من اشخاصه يجعلنا نتحدر كأنما الى بئر، نحو هاويات العالم الشيطانية، واضعف خفقة جناح من فكرة تمس وجه الله مسا خفياً.

في رواية (الاخوة كارامازوف) شخصيات تتعدى المألوف، وقد ابرزها

دستـويفكسي ببـراعـة متنـاهية. من هذه الشخصيات شخصية ديمتـري كارامـازوف الـذي عاش حياة تهتـك، والذي اتهم بقتل والده وحكم عليه بالنفي الى سيبريا، فعاش ممزقاً بين الايمان وعدم الايمان، لكنه في النهاية انتهى بالايمان وقال ان الله يفرض وجوده في الكون. فلا معنى للحياة البشرية من دون الله. وهذا الايمان اهتدى اليه ديمتري كارامازوف في المنفى.

وروايتـه (الجـريمـة والعقـاب) لانـزال نرى لها اصداء في كثير من الـروايات في العـالم، في الادب الامريكي كما في الفرنسي والايطالي، دستويفكسي عاش في العهد القيصري الروسي، ومع ذلك فان هذا الفنان الرجيم كرهه النقيضان: القيصرية والثورة. واذا كان القياصرة ينفذون حكم الاعـدام به، فان الثورة التي انفجرت بعد موته بنحو ٣٧ عاماً لم تنصفه، وحاولت الستالينية اعدامه اكثر من مرة حين حدت من توزيع كتبه في مسقط رأسه.

ودستـويفسكي الـذي وقف الى جانب الانسـان - أي انسـان - ضد القمع، نجد في جوهر اعماله - في ما نجد - رفضاً للقمع القيصري وللقمع الثوري. في روايته (الشياطين) صورة غير شهية لما يدعى الخلايا الثورية، كما ان فيها صورة غير شهية لطبقة الحكام القياصرة. وهكذا فهو مع الثورة، لكنه ضد بعض الثوار. وهكذا كان عليه ان ينتظر طويلاً ريثما انصفه وطنه، وهـا هو يتـألق في مسارح هذا الوطن وافلامه، وتعاد طباعة اعماله. ويقوم الباحثون بكتابة الاطروحات عن فنه العبقري الخارق.

دستويفسكي لا يقدم نظرية محدودة محددة ولا كليشيهات يرضى عنها اصحاب النظريات.. انه امير اللانظرية.. انه ساخر ومجنون.

● ● ●

النساء الضيقات الافق لا يمكنهن حب دستويفسكي الذي يقول في المرأة عبارات كثيرة الطفها (كل امرأة افعى، وكل افعى امرأة) ويقول ايضاً (النساء كلهن سواء، هل في الدنيا امرأة غير دنيئة؟ لهذا هن في حاجة الى

الرجل. لقد خلقن عبيداً. المرأة رذيلة وفضيحة، والرجل نبل وكرم).

وفي ذلك يمكن ان نقول ان دستويفسكي رسم نماذج بشرية نسائية حية وحقيقية، ولا تخلو من البشاعة، لان المرأة ـ كالرجل ـ كائن مفطور على النقص، وما ذنب دستويفسكي اذا كان يرى بوضوح هزلية الطبيعة البشرية.

كان دستويفسكي في الثامنة والعشرين من عمره حين حكم عليه بالاعدام، ثم استبدل هذا الحكم بالسجن مع الاشغال الشاقة، وبعدها عدل الحكم الى النفي في مجاهل سيبيريا لاتمام مدة عقوبته.

في ١٥ شباط عام ١٨٥٤ نقل الى قرية (سيميبا لاتنسك) حيث الحق بالخدمة العسكرية بجيش سيبيريا، ليتم مدة عقوبته، ولم يكن ذلك امراً غريباً، ففي عهد نيقولا الاول لم يكن ثمة فارق كبير بين حياة الجنود وحياة المجرمين في السجون. وخفف من قسوة الحياة عليه في تلك القرية النائية وصول شاب انيق يدعى فرانجل ليشغل وظيفة نائب الملك في القرية، وكان على صلة بميشيل شقيق دستويفسكي، فتوثقت الصداقة بين الشابين برغم تفاوت مركزيهما الاجتماعي، واصبحا يمضيان معظم اوقاتهما معاً، احدهما شريف والثاني نزيل السجن.

وكتب دستويفسكي في تلك الفترة الجزء الاول من رسائل (بيت الموتى) احد كتبه الهامة، على ضوء مصباح غازي صغير. وكان يجد عزاء لوحدته في التردد على منزل رئيسه الكابتن (ايساييف) وهو ضابط تزوج من فتاة جميلة فرنسية الاصل ورضى ابوها به زوجاً اذ كان يؤمل له مستقبلاً زاهراً، ولكنه اكتشف في زوج ابنته عيباً كبيراً، فهو مدمن الخمر لا يفيق منها إلا اويقات قليلة يظهر فيها الندم والتوبة ثم لا يلبث ان يعود لهذه الرذيلة، وقد غضب عليه لهذا الامر رؤساؤه فنقل من بطرسبرغ الى سيبيريا وانتقلت زوجته معه. وكانت هذه السيدة تنظم الشعر وتحاول ان تحتفظ بمركزها بالرغم من حالة زوجها، وتعرفت اليه فصار كثير التردد على هذا البيت.

وثق دستويفسكي صلته بهذه العائلة، واكثر من زياراته، فكان ان احب

الزوجة (ماري ايسايفا) وهي في الثلاثين من عمرها شقراء متوسطة القامة نحيلة الجسم متوقدة العواطف، خداها مشربان بحمرة غير طبيعية لعلها اول علامة للمرض الذي ماتت به بعد سنوات، وكانت تهتم له اهتماماً كبيراً، وان لم تكن في الغالب تقدره حق قدره، بل كان اهتمامها ناشئاً عن الاشفاق، اذ تعرف فيه الفقر وتعرف انه مصاب بمرض خطير هو الصرع، وكانت كثيراً ما تقـول انه رجل بلا مستقبل. ومن الثابت انها لم تكن تعشقه بيد انه اخطأ التقدير فظن الشفقة عشقاً، وصار يعبدها بكل جوارحه، وصار هذا الحب ينمـو حتى لم يعـد له حديث مع صديقه فرانجل غير جمال مدام ايسايفا وسحرها، وهو يعجب لان هذا الصديق لا يشاطره رأيه هذا.

في ذات مساء دخل على صديقه فرانجل وهو في حالة يأس شديد، اذ بلغه ان ايساييف نقل الى مدينة اخرى تبعد بضعة اميال عن مدينتهما وقال لصـديقه في مرارة (العجيب في الامر انها هادئة لذلك ولا ترى في النقل كارثة.. اليس ذلك مما يدفع للجنون؟).

وحين جاءت ساعـة الرحيل صار يبكي كالاطفال، فقرر فرانجل ان يشيع هذه الاسـرة مصـطحباً اياه بعض الطريق، ودبر الصديق وسيلة لكي يستطيع دستويفسكي ان يودع السيدة الوداع الاخير، فدعا الزوج الى شرب كأس من الخمر في منزله وسقاه منها حتى ثمل، وفي الطريق سقاه شيئاً من الشمبـانيا حتى فقـد صوابه ونام، فاجتمع بماري في عربتها، وكانت ليلة جميلة من ليالي شهر ايار، ضوء القمر فيها عجيب والجو عبق بروائح الازهار.

وجـاءت ساعة الوداع وكأنه يودع الحياة، فعانق السيدة وترقرقت في عينيهما الدموع، بينما اخذ فرانجل يوقظ الزوج المخمور لينتقل الى العربة الاخرى، وانتقل الزوج الى جانب زوجته وما لبث ان عاد الى احلامه من جديد.

عاد الصديقان الى المدينة في مطلع الفجر والدموع تنهمر من عيني

دستويفسكي وهو متعب من اثر الرحلة، ومع ذلك لم يذهب الى فراشه، بل ظل يسير ذهاباً وجيئة في الغرفة يحادث نفسه حتى الصباح، ثم ذهب الى المعسكر للتمرين فاذا عاد الى بيته لم يتناول طعاماً ولا شراباً طول يومه بل اكتفى بالتدخين.

كتب لها مرة يقول:

(آه، لو تعلمين الى أي حد تضنيني الوحدة هنا.. ان عذابي الآن ليذكرني بالفترة التي قبضوا فيها علي، ودفنوني حياً في زنزانة رطبة ضيقة، لقد تعودت على رؤيتك، وها انذا الآن محروم منك.

لقد عشت خمس سنوات خارج المجتمع، وحيداً بلا صديق اسر له شكـاتي، ثم جئت انت فعاملتيني كفرد من اسرتك، ولكم آلمتك بطباعي الشاذة، ولكنك احببتني مع ذلك. لقد ادركت ذلك واحسسته، فلست بلا قلب يا عزيزتي.

وفي تلك اللحظة التي مددت فيها يدك الي سجلت حادثاً هاماً في تاريخ حياتي، وفي هذه الساعة التي اكتب لك فيها واعترف بحبي، اشعر بحزن شديد يعتصر قلبي، وها هي ذي دموعي تسيل غزيرة على خدي.. نعم، انا ابكي من اجلك، وارجو ألا تسخري مني، فانا اعيش الآن وحيداً ولا ادري الي اين اذهب..).

على ان الـزمن خفف من وطـأة يأسه. ومع ذلك استمر يراسل هذه السيدة ورسـائلها لا تأتي اليه باخبار سارة، فهي تشكو اليه الفاقة المدقعة وتشكو اليه المرض وتشكو اليه ادمان زوجها وما ينتظرهما من مستقبل مظلم، فيؤثر ذلك في نفسه تأثيراً سيئاً وتسوء صحته ويصير سريع الغضب ويبدو كأنه شبح لا انسان، بل انه اقلع عن الاستمرار في تكملة (بيت الموتى) بعد ان بدأها في حماسة.

وزادت رسـائـل مدام ايسـاييف في الانبـاء السيئـة فهي تخبره بوفاة زوجها، فلم يستطع ان يمنع السعادة الآثمة من ان تغزو صدره لهذا الخبر،

فقد اصبحت الحبيبة حرة خالصة له. كما اصبح يرى في احلامه امكانية تحقيقها فيما اذا تزوج من المرأة التي ملكت قلبه.

ثم بدأت تذكر اسم شخص تعرفت به، هو مدرس شاب وزميل لزوجها، وزادت رسائلها في مدح هذا الشخص والاشادة بعطفه واخلاصه، فاشتعلت الغيرة في نفسه وزادت آلامه، فرأى فرانجل ـ قبل ان ينتقل ـ ان يرفه عنه بان يدبر مقابلة بينه وبين السيدة ايسابيف في مدينة واقعة في منتصف الطريق، وكان من المستحيل الحصول على موافقة السلطات على هذا السفر الطويل، وقد سبق ان رفض الحاكم مرتين منحه اجازة، فلم يكن امام الصديق إلا ان يدبر هذا اللقاء في الخفاء، فاذاع ان دستويفسكي مريض اذ اصيب بعدة نوبات من الصرع وانه مضطر لملازمة الفراش، واخبر قائد فرقته بمرضه وانه تحت علاج طبيب الجيش وكان هذا الطبيب واقفاً على سرهما وهو بولندي، كان طالباً بجامعة فيلنا ثم نفي الى سيبيريا لارتكابه جرماً سياسياً، ونبه القاضي على خدمه ان يقولوا لكل الناس انه راقد في منزل القاضي واقفلت النوافذ اذ ان الضوء يهيج اعصابه. وحدث لحسن الحظ ان تغيب جميع الرؤساء في ذلك الوقت. وفي الساعة العاشرة مساء ركب الصديقان عربة سارت تنهب الارض ولكن المسكين كان يتخيلها تزحف وئيداً كالسلحفاة، ووصل الصديقان في الصباح الى المدينة فلم يجدا ماري ايسابيفا بل وجدا رسالة منها تخبرهما انها لم تستطع السفر لانها لا تجد المال اللازم لرحلتها هذه.

في اواخر كانون الثاني من عام ١٨٥٤ تحتم على دستويفسكي ان يفارق صديقه وان يذوق الم الوحدة في تلك القرية النائية، اذ تقرر نقل فرانجل الى بطرسبرغ. وحزن الصديقان لهذا الفراق حزناً عظيماً ووصفه فرانجل بقوله: (كان هذا الفراق مريراً اذ كنت عندئذ شاباً قوياً ممتلئاً بالآمال المزدهرة بينما هو الكاتب العظيم الموهوب المحترم عليه ان يفقد صديقه الوحيد وان يمكث في زي جندي بسيط مريضاً مهجوراً مبعداً عن سيبيريا.

ظل الصديقان طوال يومهما يرتبان الحقائب دون ان يتكلما، فاذا حانت ساعة الفراق تعانقا وتواعدا على ان لا ينسى احدهما الآخر وقد بللت الدموع اعينهما، ثم جلس فرانجل في العربة الزاحفة وقبل صديقه المسكين للمرة الاخيرة، وسارت العربة سريعاً، والتفت الراحل للمرة الاخيرة كي يتبين منظر صديقه فاذا هو واقف حزين لا يكاد يرى في ضوء النهار الخافت فيما بعد الظهيرة.

انفرد دستويفسكي بنفسه وافكاره في هذه البلدة الحقيرة، فمن الطبيعي ان يتحول بفكره نحو تلك المرأة التي تتجه اليها جوارحه وهي بعيدة عنه في بلدة (كوزنك) وهو يواليها بالرسائل الملتهبة التي تعبر عما في نفسه، لم يعد له صديق قريب غير صورة هذه المرأة، اما رسائلها فهي مبعث سرور والم، ففيها اعتراف وتقدير لاخلاصه وهذا ما قد يبعث السرور في نفس المحب، وفيها الم اذ لا تفتأ هذه المرأة تذكر صديقها الجديد المدرس وتصف اخلاصه لها وعنايته بها. وهي تكتب اليه لتسأله كصديق: ماذا تفعل لو تقدم اليها احد الناس يخطبها لنفسه؟ فاذا قرأ هذا الخطاب ارتمى على مقعد واجهش بالبكاء وكان شعوره الاول ان يناضل ويقاوم فهو قد ظل يعبدها عبادة مدة سنتين فكيف يتخلى عنها الآن في سهولة؟

حاول الهرب لكي يصل اليها في سرعة ولكن عقله عاد اليه فعدل عن فكرته وسعى للحصول على اجازة بالسفر واخيراً اجيب الى طلبه. فأسرع ينهب الارض نحو البلدة التي هي بها مقيمة، فلما وصل اليها اذا به يشهد منظراً مسرحياً مفاجئاً، فهي ترتمي امامه وتقر له، وهي تقبل يديه انها عالقة بحب المدرس وترى فيه غاية آمالها. وظل يومين يبكي ويتوسل حتى نجح في اثارة اشفاقها عليه، فانتزع من بين شفتيها وعداً بألا تتزوج غريمه الوسيم.

وعاد الى مدينته وهو محمل بالهموم، فلما وصل اليها كتب خطاباً مسهباً لحبيبته يشرح فيه موقفه ويستجديها لكيلا تهجره من جديد، وجاءه الرد شتائم بذيئة من منافسه (فروغونوف). فوضح لدستويفسكي انه فقد كل

شيء، وقبل الهزيمة ولم يجد بداً من ان يقبل القيام بدور البطل المضحي بسعادته في سبيل سعادة المرأة التي يعبدها، واذا كان لم يستطع الفوز بها، فانه يستطيع على كل حال ان يعمل على اسعادها، أليست التضحية لا تقل لذة عن الكسب؟ أليس الحرمان اكبر من الامتلاك؟ فلماذا لا يشجع صديقته على تحقيق رغبتها ويقنع هو بما يشعر به من ارتياح لرؤيتها سعيدة قريرة العين؟

وقد بذل الوساطات لالحاق ابنها (بول) بمدرسة داخلية، وألح على اصدقائه الاثرياء كي يرسلوا لها معاونات مالية، وكتب الى صديقه فرانجل: (كل ذلك من اجلها . . من اجلها وحدها لئلا يعضها البؤس بأنيابه، ومادامت ستتزوجه، فلا اقل من ان توفر لها بعض المال الضروري، وفروغونوف اصبح الآن احب الي من اخي، فلا ضير علي اذا طلبت له بعض المـال). وقد كانت تلك العاطفة النبيلة التي اظهرها دستويفسكي اثر هزيمته احد العناصر الرئيسية في روايته (مهانون ومستذلون) حيث نجد (ناتاشا) تدافع بحرارة عن عشيقها (أليوشا) الذي غرر بها، ثم هجرها الى فتاة اخرى.

لم يتوقف دستويفسكي عن الكتابة لحبيبته، وفي هذه الاثناء كان قد رقى في تشرين الاول عام ١٨٥٦ الى رتبة الملازم، فزاد راتبه وتحسن مركزه الاجتمـاعي، وكـان فروغـونـوف قد بدأ يسـوف في موعد الزواج ويحاول التخلص منه.

في ظل هذه الاوضاع اتت رسالة دستويفسكي الاخيرة لماري ايساييفا بنتيجة غريبة لديها، فهي الآن تنبذ الفكرة التي ايدها وتلح عليه في ان يقبلها زوجة بل خادمة، فلم يدع الفرصة تفلت من يديه وليس امامه إلا تحقيق هذا الزواج.

رضي عنـه احـد اعمـامـه فمده بشيء من النقود، وكتب الى اخيه ميخائيل يصف له تفصيل الملابس التي يشتريها ليفاجيء بها زوجته ولا ينسى

وصف القبعة والمناديل من التيل الفاخر، ويهتم لهذه الامور التافهة في الوقت الذي يتم فيه كتابه العظيم (بيت الموتى).

تم هذا الزواج وسافر الزوجان قاصدين المدينة التي يقيم فيها دستويفسكي. وفي اول ليلة اجتمع فيها هذان المحبان على انفراد، اذ به يقع على الارض مغشياً عليه يضرب الهواء بيديه، وقد شحب لونه، وامتلأ فمه بالزبد الاصفر، اذ اتته نوبة من نوبات الصرع، وقد كانت من اشد نوبات ذلك الداء الذي ليس له دواء.

والزوجة العروس الحادة المزاج، المغرمة بالمظاهر والترف، حائرة تقاوم احساس الاشمئزاز الذي يدفع بعض الناس الى الهرب امام مثل هذا المنظر المروع، والزوج ملقى امامها كالجثة التي فقدت الحياة.

في كانون الثاني سنة ١٨٦٠ صدر اذن لدستويفسكي بانه يستطيع الاقامة في احدى ضواحي موسكو، ثم سمح له فيما بعد بالانتقال الى بطرسبرغ ولكن الاقامة فيها لم تكن لتناسب صحة زوجته، اذ ما لبثت السيدة بعد الزواج ان ظهرت عليها اعراض المرض الخطير الذي اودى بحياتها فيما بعد، وهو داء السل، لذلك اتخذ مسكناً لزوجته وابنها في موسكو، ثم عاد وحده الى بطرسبرغ حيث استأجر مسكناً في شارع جررسوتويا واستعد للعمل كي يفتح لنفسه طريقاً جديداً في الحياة.

● ● ●

حين كان دستويفسكي ينتظر ان (تحن) عليه حبيبته وتتزوجه، وهو ما بقي لمدة سنتين ينتظره، كان يقتل الوقت قتلاً، فالانباء التي ترد اليه عن صديقته تزداد سوءاً فهو يتردد على العّراف عله يعرف ما يخبئه له القدر وهو لا يقبل على التأليف والكتابة. وفجأة تذكر فتاة صغيرة ابنة احد البولنديين عرفته اليها (ماري) وطلبت منه ان يساعد في تعليمها، فألقى عليها بعض الدروس، فما ان ذكرها حتى ذهب الى دار ابيها وسأله ان يرسل اليه الفتاة يومياً ليستمر في تعليمها. وكانت الفتاة بهية الطلعة متوردة تحب الضحك مع

معلمها ومغازلته في بساطة، فهي كشعاع من الشمس نفذ الى داره.

ويظهر ان الفتاة كانت تكن حباً لاستاذها، ولذلك امل فرانجل في ان يعدل دستويفسكي عن حبه المخيف لماري، وقام فرانجل في رحلة قصيرة غرامية، فلما عاد وجد مأساة خطيرة.

فقد رأى الفتاة وقد غارت عيناها ونحل جسمها وتقلصت عظامها. وابدى دستويفسكي انه حاول عبثاً ان يعرف السر في ذلك لم يوفق. ولكن الصديقين اجتمعا الآن على الوقوف على سرها، واخيراً قصت عليهما قصتها، فقد احبها ابن عمدة المدينة، وهو شاب في الثامنة عشر من عمره واتصل بها ثم لم يلبث ان هجرها. وللغلام سائق للعربة وهو شركسي شيخ وقف على علاقتهما، اذ كثيراً ما ذهب بأمر من سيده ليأتي بالفتاة الى الموعد.

وفي مرة من هذه المرات هددها بان يخبر اباها اذا لم تخضع له، وهي فتاة صغيرة ضعيفة الارادة، فلم تقو على معارضته، واستمر السائق يستغلها لنفسه وهي تكرهه وتخشاه. باحت بهذا السر، ثم توسلت اليهما بان ينقذاها من هذا الوحش. وقد فعل فرانجل بما له من نفوذ، وابعد الشركسي عن البلدة، وبعد سنة من هذا الحادث زوّجها ابوها بضابط شيخ من القوازق رغماً عنها، فصارت تغازل من تشاء بينما زوجها يتلظى من الغيرة.

تحسنت احوال دستويفسكي بعد ان ترك سيبيريا، ونخطىء التقدير لو اعتقدنا ان علائم الثراء ظهرت عليه، فالمال لديه وسيلة لاطالة السهر على المائدة الخضراء ووسيلة لاحتساء الخمر، ووسيلة لكي ينعم بالنساء.

هل حدثت عندئذ في حياته تلك الحادثة المروعة التي وصفها في صفحات من كتاب (الشياطين) واحجم ناقلو هذا الكتاب الى اللغات الاوربية عن نقلها؟ هل حدث ان اعتدى (ستافروجين) على فتاة صغيرة، فاذا زالت سورة اللذة شعرت بفداحة عملها ويئست من حياتها، فانتحرت شنقاً في غرفة، بينما الفتى في الغرفة المجاورة ينتظر ان يتخلص منها بالموت؟ ام

(ستافروجين) هذا ليس إلا اسماً يختفي تحته مؤلفه.

البعض يرى ان هذا الحادث وامثاله الواردة في بعض روايات دستويفسكي ليست إلا اعترافات مقنعة، وان هذا الكاتب العظيم كان يجد في نفسه حاجة الى ارتكاب الآثام فلا يرتكبها حتى يندم على فعلته. يقول بعضهم ان فيه عنصراً من الشياطين وان الرجل كان قادراً على ان يأتي كل شيء من انواع الرذيلة، وان نزعته هي نتيجة مرضية لا شك فيها، نتيجة المجهود العقلي الذي كان يقضي فيه نهاره يدفعه الى ان يكون دائم القلق في عاطفته، لذلك نجد له في هذه الفترة بصفة خاصة كثيراً من المغامرات الغرامية.

فنحن نذكر ذلك الحب الوقتي الذي كان بينه وبين الممثلة شوبرت، حيث قام بينها وبين زوجها المشاكس بدور الوسيط للصلح بينهما، ولو انه شعر بلمحة من الذكاء في هذه الممثلة لاقبل على تأليف روايات تمثيلية لها، فهذا الحب لم يدم طويلاً، لان الممثلة لم تكن اهلاً له، ولكن نشأة هذا الحب تدل على ان عاطفته في حاجة الى الحب، وانها ستسقط فريسة في يد اول من يتقدم لالتقاطها.

وحين تعرف الى الاختين سوزولوف سقط فريسة لاحداهما، وكانت الفتاتان من ذوي الذكاء وكانت كبراهما اولى النساء الطبيبات في روسيا، اما الاخرى بولين فهي تطمح الى ان تصير روائية، وكانت فتاة متقدة العاطفة سريعة التأثير، فما ان رأت دستويفسكي حتى اقبلت عليه. وكان ذلك في ليلة دعي فيها لقراءة فصل من فصول (بيت الموتى) على جماعة من الطلاب، وكان رائعاً في القائه ورائعاً لانه جرب ما تلاه على سامعيه.

تأثرت الفتاة بنزيل السجن اكثر مما تأثرت بالكاتب العبقري، فذهبت اليه في ادارة الجريدة لتعرض شيئاً من كتاباتها، واستقبلها المدير خير استقبال بل انه احتفظ بقصة لها كي يفكر في نشرها، ثم كان اللقاء وكان الاتصال. فقد اعجبت بولين بالرجل وهو يتلو صوراً من حياته، ولكنها

ماكادت تختبره في خلوة غرامية حتى نبذته وحطمت صورة هذا المعبود، اما هو فصار أسير هذه الفتاة يحاول ان يجتذب حبها بأية وسيلة. ولكن الفتاة لا تلبث ان تهرب منه الى بلاد بعيدة تبحث فيها عن الرجل الذي ترتجيه، وهي تسلم نفسها لكل من تتوسم فيه انه المثل الذي تنشده ولكنها لن تكون للكاتب العبقري.

لقد جذبتها شهرة دستويفسكي واعتقدت انها في حاجة الى توثيق علاقتها به، لينظم لها تفكيرها المضطرب، ويجعل لحياتها معنى كبيراً.

كانت تتمنى ان يسيطر عليها بعقله وروحه، فاذا بها تجد نفسها مسيطرة عليه بجسدها وفتنة انوثتها، واذا به ينهار عند قدميها ذليلاً يستجديها ان تمنحه نفسها، وبعد ان كانت مأخوذة بشهرته وعبقريته، اذا بها تجد نفسها تحتقره وتكاد تكرهه، حتى لقد كتبت في مذكراتها تقول: (كنت استيقظ من نومي، فأتذكر ما حدث مع دستويفسكي في الصباح، فيملأ الاسى نفسي، واجري في الحجرة منتحبة باكية).

حين علم دستويفسكي ان بولين سافرت الى باريس، سرعان ما لحق بها هناك، ليجد في انتظاره دوره القديم في الحب، دور الصديق المواسي الذي لا يستحق من النساء اكثر من الاشفاق والرثاء، فقد وقعت بولين في حب شاب اسباني اسمر، ولكنه كان يعذبها ولا يبادلها حبها، فقبلت تحت الحاح دستويفسكي وتوسلاته ان تصحبه الى ايطاليا ثم سويسرا، وكانا يتوقفان في كل مدينة فيها ناد للقمار، ولا يكف دستويفسكي عن اللعب حتى يخسر آخر مليم معه. وقد تركت هذه العلاقة، وتلك الفترة من حياته اثراً عميقاً في دستويفسكي، فسجل جوانب منها في روايته المشهورة (المقامر) واسمى بطلتها بولين، كما اضفى كثيراً من صفات بولين على بعض بطلاته الاخريات، (دنوتشكا) شقيقة (راسكولينكوف) في الجريمة والعقاب.

عاد دستويفسكي من رحلته الصاخبة ليجد صحة زوجته قد ساءت الى ابعد حد، وفي ١٥ نيسان سنة ١٨٦٤ فاضت روحها، وبعد ثلاثة اشهر مات

شقيقـه ميشيل، فتضـاعفت احـزانـه وكتب في احدى رسائله يقول: (لقد اصبحت وحيداً تماماً، واجد كل ما حولي غريباً، لقد انتهت حياتي بانتهاء هذين العـزيزين، فهـل سأستـطيع ان ابدأ حياة جديدة، وانشيء علاقات اخرى مع اناس آخرين؟ لا اعتقد، فانا لم احب في حياتي سواهما، ومن المستحيل ان احب احد بعدهما).

● ● ●

انصـرف دستويفسكي الى الكتابة والتحرير، وفي ذلك كان يكتسب المال والشهرة، وان وقف اكثر الناقدين موقفاً عدائياً نحوه، وكانت مؤلفاته تؤثر في الشبيبة تأثيراً كبيراً وتقبل عليه الاندية والمجتمعات.

ومن بين الحوادث التي حدثت له في حياته في تلك الفترة تعرفه بأسرة (كـورفين) وهي اسـرة المـانية الاصـل لهـا ابنتان كبراهما (آنا) والصغرى (صـوفي) وهمـا فتـاتان نالتا قسطاً وافراً من التهذيب، تميل الكبرى منهما للادب والصغرى للعلوم، وبلغت الصغرى فيما بعد اوج الشهرة في الرياضيات.

واول تعارف تم بين (آنا) ودستويفسكي كان حين نشر لها في مجلته قصة، ثم دعته الى منزلها وزارها الكاتب، واخذت الفتاة الكبرى تحتفي به، بينما الصغرى، وهي لا تتجاوز عندئذ الرابعة عشرة من عمرها، شعرت نحوه بشعـور عجيب، لعله بدء استيقـاظ ذلـك القلب الصغير وخفوقه من اجل الرجل، وصار يتردد على البيت، وفي احدى هذه الزيارات تعرف الى الوالدة التي ركنت اليه، على خشونة مظهره، وصار لا يمضي يوم حتى يزور الاسرة وكأن قلبه الناضج قد فتح لحب جديد، هو حب الفتاة (آنا).

وذات ليلة اقامت الاسرة حفلة ساهرة، وكان بين المدعوين، فحضر في ملابس السهرة، فاذا دخل البهو احتل فتاته احتلالاً، وظل يحادثها غير عابىء بان واجبهـا يقضي بالاحتفـاء بضيوف عائلتهـا، وتقسيط وقتهـا بينه وبينهم. ودعيت الفتاة للرقص مع ضابط جميل فغضب لذلك وانتحى ناحية

من القاعة، وظل صامتاً مغضباً لا يخاطب احداً حتى لفت انظار الحاضرين بمسلكه. ووقعت سيدة المنزل في حيرة، وغضبت على فتاتها لاتصالها بذلك الضيف الذي ان يكن عظيماً، فانه لا يعرف واجبات اللياقة، اما الفتاة نفسها فكانت مترددة بين الفخر بهذا الحب والمضايقة لما سبب لها من المتاعب.

كانت الفتاة فخورة بهذا الحب الذي يرضي كبرياءها ولكنها رفضت حين طلب دستويفسكي في بساطة ان يتزوجها وفضلت عليه فيما بعد ضابطاً فرنسياً بينما هنالك قلب صغير يتألم لالم الكاتب الكبير ويرثي لحالته.

وفي تلك الايام كان الكاتب يبحث عن قلب يركن اليه ويعينه في حياته المضنية، ويخفف من وحشة الوحدة وكانت حاجته الى الحب عجيبة، ذهبت به الى حد ان تعرف بصديقة لاخته متزوجة من رجل طال مرضه حتى صارت ايامه معدودات فأحبها ومالبث ان خطبها لنفسه عارضاً ان ترضى به زوجاً اذا توفي زوجها.

@abdullah1994

عبدالله أبوبكر

• • •

حين كتب دستويفسكي (الجريمة والعقاب) نشرها في مجلة (رسول روسيا) واستقبلت بترحيب كبير، وارتفعت باسم كاتبها الى قمة المجد الادبي، حتى اصبح قريناً لاسماء تولستوي وتورغنيف، ولكن هذا النجاح لم يخفف من حدة ازماته المالية، وحين اقترب الوقت الذي يتحتم عليه ان يقدم فيه رواية جديدة للناشر الجشع، ولم يكن قد خط فيها سطراً واحداً برغم انه لم يبق على موعد تقديمها إلا اقل من الشهر، نصحه احد اصدقائه بان يستعين بكاتبة اختزال ليوفر وقت الكتابة، وهكذا دخلت (آنا جريجوريفنا) حياته، وبدأ يملي عليها روايته (المقامر) وانس دستويفسكي الى المختزلة الشابة، فكان يملي عليها في مزاج معتدل واضح، وكثيراً ما توقف عن الاملاء ليروي لها بعض ذكرياته الطريفة، أو يسألها عن بعض شؤونها.

وتقدم العمل في الرواية بسرعة كبيرة، فأتمها في خمسة وعشرين يوماً،

وفي التاريخ المحدد سلمها الى الناشر، وآلمه ان صلته بآنا ستنقطع بانتهاء الرواية، اذ كان قلبه قد تعلق بها، فعرض عليها ان تعاونه في كتابة رواية جديدة فرحبت، وتردد دستويفسكي كثيراً قبل ان يصارحها بحبه وبرغبته في الزواج منها، فقد كانت شابة نضرة في العشرين من عمرها، اما هو فكان في منتصف الحلقة الخامسة كئيب الوجه قد هده المرض والازمات المالية، لكنه ما ان بدأ يشير من بعيد الى مشاعره نحوها، حتى اقبلت آنا عليه وشجعته وصارحته هي الاخرى بحبها، فعقد قرانه عليها في ١٥ شباط عام ١٨٦٧.

عندئذ كتب رسالة وداع الى (بولين) التي سماها صديقته الابدية يصف هذا الزواج فيقول: (ان كاتبة الاختزال فتاة في العشرين من عمرها من اسرة طيبة تلقت دراسة حسنة في المدرسة وهي طيبة القلب جداً مخلصة بطبيعتها، وكان العمل في الرواية يسير على احسن حال، وعلى حين فجأة لاحظت انها تخلص لي الحب، وان لم تبح لي بشيء قط، وصارت تروق في عيني ثم ازداد اعجابي بها، وبما ان حياتي اصبحت بعد وفاة اخي مملة جداً وخاوية، فاني اقترحت عليها ان تتزوج مني فوافقت وتزوجنا، والفرق بين عمرينا مخيف، ولكني ازداد ثقة بانها ستكون سعيدة فانها قوية الشعور تعرف كيف تحب).

وبذلك هجر الكاتب الكبير حياة الوحدة ووجد له شريكة!

لكن.. اكان ذلك عملاً حكيماً ام اقدم على الزواج في ساعة طيش؟

ان تاريخ حياته بعد هذا الزواج يثبت لنا انه وجد بين متاعبه وحياته المضطربة موئلاً ثابتاً في قلب هذه السيدة التي عاشت الى جانبه، فهي مثال للزوجة المخلصة تبذل كل ما في وسعها لاسعاده، فتنظم من حياته المعيشية بقدر ما تستطيع، وتعمل على راحته ومساعدته في عمله العقلي، فهي التي تخط صفحات مؤلفاته وتنقلها وترتبها، وهي تحبه حباً اكيداً وان لم تكن تفهمه، ومن الطبيعي ان تحاول ان تباعد بينه وبين النساء غير مكترثة لما يكتسبه زوجها من تلك المغامرات العاطفية من صور وخبرة بالحياة يملأ بها

مؤلفاته، ولكنها فيما عدا ذلك تجيب له كل رغبة. وكان هو من جانبه يقدر فيها هذا الاخلاص، ولكن هل كان يتعشقها في وقت من الاوقات؟

إن رسائله واشاراته اليها تبعثان على الظن بانها لم تكن في يوم ما موطن حب عميق في نفسه فهو يشير اليها في مبدأ زواجه اشارات، فيها شيء من التماس العذر لزواجه، على ان ميله نحوها لم يكن ميلاً عقلياً فقط، بل هو ميل جسدي ايضاً في ساعات الشعور بتغلب الجسد، فهو يكتب لها رسالة زاعماً انها المرأة الوحيدة المرغوبة لديه، على انه يرجوها في خجل ان تظهر اهتماماً اكبر بملابسها، ولكن كيف تستطيع (آنا) ذلك وهي في شاغل بأطفالها وتدبير معيشة الكاتب والسهر على راحته؟

لقد كان لهذه الزوجة المخلصة فضل آخر على زوجها، فهي اول من يسمع رواياته، اذ يملي عليها تلك المؤلفات، وهو يحب ان يعرف تأثير ما يمليه عليها، فهي تمثل لديه جمهوره، وفي تلك العينين المغرورقتين بالدموع، أو تلك الابتسامة العريضة أو تقطيب الجبين أو الاهتمام الذي يطغى على الوجه، يتبين الكاتب الكبير تأثير كتاباته على جمهوره.

وبلغ دستويفسكي قمة مجده الادبي في الاحتفالات التي اقيمت في موسكو عام ١٨٨٠ بمناسبة ازاحة الستار عن تمثال بوشكين، حيث استقبل خطابه بحماسة رائعة لم يستقبل بها اديب روسي من قبل، واعتقد هو ان معظم هذه الحماسة، انما يرجع الى النجاح الكبير الذي حققته (الاخوة كارامازوف).

وبعد بضعة اسابيع، وحين كان الكاتب الكبير منهمك في عمله، اذ سقط القلم من يده، وتدحرج تحت خزانة صغيرة بجواره، فقام وحاول تحريكها، وبينما هو منحن اذا بسائل دافىء يتدفق من فمه، ووضع دستويفسكي يده على فمه، ثم نظر فيها فاذا بها ملطخة بدم احمر قان.. لقد انفجر شريان في رئته، واستمر النزيف حتى قضى عليه في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٨١.

عاشت زوجته الثانية والاخيرة (آنا جريجوريفنا) الى جانبه زهاء عشرين عاماً، وبعد ان مات نشرت مذكراتها عنه، وقد ظنت انها تسدي اليه خدمة عظيمة اذا هي اظهرت صفحة حياته بيضاء ناصعة، وان تفسر نقائصه وتلقي وزرها على الذين لهم اتصال بحياته، لاسيما النساء منهم؟

ونحن بدورنا بعد ان عرضنا لغراميات دستويفسكي لنا تحليلنا النفسي لها.

● ● ●

رغبة دستويفسكي في المقامرة ما هي إلا محاولة تنفيس عن رغباته الجنسية الملحة التي لم تجد الاشباع الكافي، فقد كانت (بولين) مثلاً تسرف في تعذيبه، ولا تستجيب لرغباته المشتعلة إلا بعد الحاح شديد من جانبه، فكانت ممارسة (القمار) في نظره بديلاً عن الحرمان الذي فرضته عليه عشيقته.

وفي زواجه الثاني، وحين كان في درسدن مع زوجته، سافر الى هامبورغ ليقامر في نواديها الكبيرة، وفي اليوم التالي كان قد خسر كل امواله كالعادة، ورهنت زوجته اقراطها وبعض ملابسها، وارسلت اليه بثمنها ليلقي به في اتون العجلة الدائرة، وظل يستجدي اصدقاءه ومعارفه، ويخسر كل ما يصل الى يديه وهو كالمحموم لا يدري ماذا يصنع، ولا يستطيع كبح جماح هذه الشهوة الملحة للمقامرة.

لقد كتب فرويد بصدد دراسته لدستويفسكي يقول: «ليس من قبيل الصدفة على الاطلاق ان تكون ثلاث من تحف الادب في العصور كافة هي (اوديب) لسوفوكل و (هاملت) لشكسبير و (الاخوة كارامازوف) لدستويفسكي تعالج كلها الموضوع نفسه: قتل الاب».

«فيما يتعلق بدستويفسكي نستطيع ان نرجح شعوره الخارق العادة بالذنب وسلوكه المازوشي الى ان الجانب الانثوي فيه قوي للغاية.

يبقى مع ذلك في شخصه قدر كاف من الملامح السادية، تظهر ايضاً

في الطريقة التي يعامل بها، كمؤلف، قارئه. في الشؤون الصغيرة كان سادياً تجاه نفسه، أي انه كان مازوشياً، أي احن البشر وافضلهم واكثرهم نجدة للآخرين».

لم يكن دستويفسكي عاهراً عابداً للشهوة الجسدية، ولكنه كان يحب اللذة كما يحب آلامه. لقد كان عبد غرائزه وعبد فضول متجبر جسمي وفكري يدفعه الى الخطر، والى اشواك الطرقات التي يجتازها. ان لذته ليست مبتذلاً، ولكنها مخاطرة باحساسه وشعوره و(ارادة الاحساس) في حرارة الصرع العاصفة العجيبة، وتجميع احساساته هي بعض دقائق خطرة قبل العمل، ثم السقطة القوية الى الندم. انه يعشق في اللذة لمعان الخطر ورؤية اعصابه عرضة للارتجاف. وهو يفتش في كل لذة ـ بعد ان يدفع الى ضميره بالخجل المخزي ـ عن الندم، عن الطهارة في الشنار، وعن الخطر في الجريمة. ان شهوات دستويفسكي هي تيه تمحي فيه الطرقات، فالله والحيوان يتجاوران في لذة واحدة. ومن هنا يجيء رمز الاخوة كارامازوف فنرى اليوشا الملاك والقديس هو ابن فيدور عنكبوت اللذة الشرسة.. الشهوات الجسدية تولد الطهارة والجريمة العظمى، واللذة تولد العذاب، وبالعكس يولد العذاب اللذة.. المتناقضات تتلامس تلامساً ابدياً، وعالمه يمتد الى السماء والى الجحيم.

إن تسليم نفسه للاقدار، هذا التسليم الواعي، دون تحفظ وحدود، هو سر دستويفسكي الوحيد واللهيب الخلاق في نشوته الفكرية. وكل ما حدث في حياته من الافراط وتجاوز الحدود وضراوة العذاب جعله يحب في الحياة كل ما هو خير وشر، كل ما هو الهي وغامض. انه لا يود الحياة حليمة رؤوفة بل يودها متجمعة عنيفة محمومة. فلم يخطر له ان يتجنب الاخطار الداخلية والخارجية، لانها امكانيات لتهيج اعصابه. لقد طور البذور التي كانت فيه، بذور الخير والشر، والشهوة، والرذيلة بحماسه ونشوته الفكرية دون ان يبعدها عن الخطر. ويستعمل ذاته في اللعب كرأسمال موقت للقوى المظلمة

المبهمة، لانه يشعر بلذة الوجود بين الاسود والاحمر، والحياة والموت. وهو يحب الطبيعة مثل (غوته).

انه يهدف الى حياة اكثر حرارة في الالم، ويدفع بعواطفه بقوة نحو ذروتها، ويرفض ان يتبلور وان يعكس على جميع وجوهه حركة الضجة، بل يتمسك بان يبقى جمرة تلتهم نفسها لكي يقوم من الموت كل يوم ويجد دائماً قوى اوفر ومتناقضات اكثر عنفاً. انه لا يود ان يوجه حياته، بل يود ان يحسها ويشعر بها. غير ان العبد المتعصب لمصيره واحقر خادم من خدم الله تمكن من ان يصبح ذا بصيرة نفاذة تفوق بصائر جميع الناس.

لقد اعاد دستويفسكي الى القدر القدرة على توجيه مصيره، وهكذا سيطرت حياته على فرار الوقت. والرجل الشيطاني الخاضع للقوى الازلية، يعيد الى الوجود النوع البائد من شعراء ايام الزهد والقناعة، انه العراف المجنون، رجل القدر.

المرأة لدستويفسكي محطة في حياته ونزوة من نزواته.

وشأنه شأن العباقرة مجده الادبي هو الاول والاخير؟

دانـــتي

دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) احد اشهر الادباء الايطاليين. وقد كان رجلاً ذا حساسية قوية، هذا ما يلوح على الاقل في مؤلفاته من (الكوميديا الالهية) و(الحياة الجديدة) و(الوليمة) و(فصاحة اللغة الدارجة) وغيرها من المؤلفات.

والواقع ان دانتي واحد من الاسماء الكبرى القليلة في الادب الغربي، غير ان هذا لم يكن السبب الوحيد الذي جعله جديراً بالشهرة. الاهم من ذلـك انـه صاغ اللغـة الشعبية بحيث جعل منها اداة ادبية عالمية كان في استـطاعتهـا لاول مرة ان تضع معايير تتجاوز اختلافات اللهجة المحلية. وبينمـا كانت الـلاتينية، حتى ذلـك الحين، هي وحـدهـا التي تؤدي هذه المهمة، اصبحت الايطالية الآن وسيلة للتعبير بالنسبة الى العمل الادبي. ويمكن القول ان الايطالية، من حيث هي لغة، لم تتغير إلا قليلاً جداً منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا.

وتبدو لنا الكوميديا الالهية رحلة عبر الجحيم والمطهر والجنة، ولكنا نجد خلال هذه الرحلة عرضاً شاملاً للفكر الوسيط، على صورة استطرادات واشـارات. وقـد نفي دانتي من بلدته فلورنسة عام ١٣٠٢، عندما استولى (الجـويلف السود على الحكم) خلال الصراع المدني الذي لا ينتهي بين الاطـراف المتنافسة. وقد ورد ذكر الكثير من هذه الصراعات السياسية في الكوميديا الالهية، ومعه عرض لوقائع التاريخ القريب العهد، التي ادت الى

هذه الاحداث. ونظراً الى ان دانتي كان في صميمه من انصار (الجبلينيين) فقد كان شديد الاعجاب بالامبراطور فردريك الثاني، الذي كان، بافقه الرحب وثقافته الواسعة، نموذجاً مثالياً للامبراطور كما يريده الشاعر.

عاش دانتي حياة العصور الوسطى بمخاوفها وخرافاتها، رغم ان ذلك كان منظماً في جوهره، فالمرء يولد في اطار مركز معين، ويدين بالولاء للسيد الاقطاعي الذي ينتمي اليه. والكيان السياسي مقسم ومرتب بطريقة منسقة الى مراتب لا يمكن ان يغيرها شيء. وقد عمل مارسيليو واوكام على هدم هذه التقاليد في ميدان النظرية السياسية. اما عن السلطة الروحية، وهي المصدر الاول لتلك المخاوف التي قيدت حرية الناس، فان تأثيرها بدأ يضمحل بمجرد ان ساد الاعتقاد بامكان الاستغناء عن العقائد الجامدة. ولا يمكن ان يكون هذا ما قصده اوكام، ولكن من المؤكد ان هذا هو التأثير الذي مارسته تعاليمه فيما بعد على المصلحين، فلقد كان لوثر يكن لاوكام تقديراً يفوق تقديره لاي واحد غيره من المدرسيين، ولكن لا يظهر لدى دانتي اي اثر لهذه التحولات العنيفة. فلم تكن معارضته للبابا مبنية على أي خروج عن الخط الرسمي للكنيسة، وانما كانت ترجع الى تدخل الكنيسة في مسائل كانت تدخل في اختصاص الامبراطور. ولكن على الرغم من ان سلطة البابا كانت قد تقلصت كثيراً في ايام دانتي، فانه لم يعد في وسع أي امبراطور الماني ان يحتفظ بسلطته في ايطاليا، وبعد عام ١٣٠٩، عندما نقل مقر البابا الى افينيون، اصبح البابا يكاد يكون اداة في يد ملك فرنسا، واصبح الخلاف بين البابا والامبراطور صراعاً بين فرنسا والمانيا، اما انكلترا فقد انحازت الى صف الامبراطورية الالمانية. وعندما اصبح هنري السابع، امير لوكسمبرغ، امبراطوراً في عام ١٣٠٨، بدأ وكأن الامبراطورية قد تستعيد قواها مرة اخرى، وتغنى به دانتي بوصفه منقذاً، غير ان نجاح هنري كان ناقصاً ووقتياً. فبرغم زحفه الى ايطاليا وتتويجه في روما عام ١٣١٢، عجز عن تأكيد سلطته ازاء

نابولي وفلورنسة، ومات في العام التالي، اما دانتي فمات منفياً في رافينا عام ١٣٢١.

● ● ●

ارتكب دانتي الكبائـر، وليس الزنى خطيئة من السهل العفو عنها. وربما كان الزنى، في عرف دانتي، اصلاً من اصول الحب. حب المخلوق العـابر في هذه الحياة، لا حب الخالق مدبر الكون الازلي الكامل. حب الجسـد الـزائل، لا حب الروح الطاهر الازلي. حب قد شط بصاحبه عن الصراط المستقيم وعن الهدف الاسمى. حب خطر ربما انحط بصاحبه الى الدركات.

ولكن أليس من الحب مهما كانت صفته بدء خروج عن الانانية والسمو على الـلامبـالاة. أليس هو شرارة يمكن ان تحتـرق من اجـل لذة انبـل واسمى.. حيث يكون الحب مخزن امكانيات الى الارتفاع والسمو.

والـدهـر ذو الاعاجيب كثيراً ما اتحفنا بجحدة اباحيين بلغوا مصاف القديسين المكرمين.

دانتي نفسه كشف لنا عن القمم التي ربما يدفع اليها الحب، حب المـرأة، وحيث الحب ـ ولـو لم يكن في مكانه السامي ـ فان الامل بانقاذ صاحبه لكبير.

ولـد دانتي وفي نفسه عطش للحب الوالدي ولغيره من الحب، كان اليتم اول شقاء ذاق كأسه. ماتت والدته ولما يبلغ السادسة من عمره. ومات ابـوه وكـان له من العمر اثنتا عشرة سنة. وهكذا يكون قد خسر حنان الام وعطفها، وخسر بأبيه مرشداً وحامياً.

ظمئت نفسـه أي ظمـأ الى الحب الابوي. وتعطش الى من يناديه بكلمة يا بني. وقد عوض هو نفسه في (الكوميديا) على نفسه، فجعل كل الذين يحبهم ويعجب بهم ويودونه ينادونه بكلمة يا بني، فكان لها سحرها عليه وكانت تتخدر اعصابه عند سماعها.

دانتي روح لا كالارواح في العظمة، وفنان كبير لا يجارى. ان تفهمه يستعصي على احسن الناس علماً واستعداداً. ان جل الذين تركوا لنا دراسات عن دانتي، حالفهم التوفيق في نواح كثيرة وقصروا في بعض النواحي. ان دانتي شعلة متأججة من نار وشرر. والذين درسوه تغلب عليهم البرودة فكأنهم امام آثار من الحجارة المنحوتة، من العسير ردها الى عهد من العهود.

دانتي ينبض بالحياة نبضاً، وجل دارسيه اشباه اموات. انه نور وهم يقبعون في الظلام، ويدعون المعرفة بهذا الاشعاع. انه قنة وهم حيالها كالحصى والرمال. انه لهيب من الايمان، وما ابعدهم عن الالاهيات.

● ● ●

في الثامنة عشر من عمره احب دانتي وكان ذلك عام ١٢٨٣، لقد اجتاز به في احد شوارع مدينة فيرنتسه موكب اله الحب، فتفتح امامه في ساعة من الحلم مصراعا الحب والود والصداقة والشهرة.

لقد رأى بياتريتشة رمز الشعلة والحب الملهم، اول مرة ولم يبلغ التاسعة من عمره، وكانت هي في الثامنة من سنها. اما اليوم فقد ظهرت له مرة اخرى تتهاوى بين كواعب اتراب. ادارت عينها الى حيث هو، وقد تغلب عليه الوجل والخوف. وكانت في منظرها انيسة، كلها مشاعر واحساس، تذوب لطفاً ورقة. لقد حيته على استحياء وبأدب جم، فكان منها ذلك كشفاً عن المرأة غير المنتظرة. وكالنور انبثق فجأة في اعماق دانتي، فايقظ فيه تلك الشعلة المترددة في جوانحه وهو لايزال فتى يافعاً. انكمش في حجرته معتزلاً نشوان، وكان محور تفكيره تلك الخريدة الرعبوب ذات الانس الاكمل وفيه فراط، ذات الدلال الاوفر المقرون بكثير من الحشمة.

وبعد ذلك كانت رؤيا مزعجة تنبأ بها عن موت صاحبته أو شبه ذلك، وعلى اثر تلك الرؤى وجه برباعية له من الشعر الرقيق الى كل (العشاق الامناء على قدسية الحب) كي يفتوه في رؤياه أو يزودوه بتأويل لتلك الرؤيا المزعجة. ولم يأته جواب إلا من شاعر واحد فقط (كويدو كفلكنتي) الذي

اصبح صديقه فيما بعد. وكانت مساجلة شعرية بينهما. منذ هذه اللحظات تمشى في ركـاب دانتي الشعر والحب معاً. ولقد ملك هوى بياتريتشة كل كيانه، وآل امر هذا الحب الى مأساة، الى موت الحبيبة نفسها.

كانت قوافيه في البـدء مظلمة تعبة وما عتمت ان اشرقت بنور الالم الجـديد والعاطفة الجامحة المكبوتة. فسما في اجواء التعبير فريداً. وكان نظمه فاتحة تجديد في الشعر العامي، وقد تجلى كل ذلك في ديوان له دعاه (الحياة الجـديدة). ان هذا الـديوان، هو الينبـوع الامين الاكيد لحياتـه الداخلية الخاصة ولتحضيره تحضيراً فنياً رائعاً.

بعد تلك التحية الخطرة اصبح شاعرنا ولهان لا يفتأ يفكر في الانيسة المؤنسة. ولم يمر عليه وقت طويل حتى نحل جسمه ورق عوده وضعف. ولم يخف الامر اصدقاءه فدفعهم فضولهم ليسائلوه: أبهذا القدر تخضع لسلطان الحب فتدعه ينال منك ما ينال؟ فكان يبتسم لهم ويحدجهم بعينين تبوحان بكل شيء مع ان شفتيه لا تحيران جواباً.

وفي احد الايام رأى محبوبته في احدى الكنائس. ولكنه حول انظاره عنها الى امرأة اخرى حسناء كانت بقربها. وربما فعل ذلك ضناً على محبوبته من الشبهـات وثـرثـرة المتطفلين والمتطفلات، وادهش تلك الحسناء هذه النظرات المصوبة اليها. لقد اراد دانتي ان يخفي عن الناس حبه لبياتريتشة وفكر في ان يتخذ من هذه المرأة ما يدرأ عنه وعن معشوقته الشبهات. فتظاهر بالهيام بها ونظم بعض الابيات من الشعر الرقيق الراقص.

أما حسناؤه هذه فكانت تدعى فيورتا، ومعنى فيورتا الزهرة الصغيرة. ولكن الـزهـرة التي ادرأ بها وغناها سرعان ما غادرت مدينة فيرنتسه وتركت الشاعر وفي نفسه شيء من الغصة. ولم يحجم عن اتخاذ امرأة اخرى للغاية نفسها وربما للتسلي ايضاً، وقد ذكرها في بعض ابياته.

ولعل هذا الحب الثاني لم يكن حباً كاذباً كما كان حبه لفيورتا، وربما اطاح بدانتي في عاصفة اولى جنسية فتهامس به الناس ولاكته الالسن وشهرت

ببعض سمعته وعملت على ان يصل كل ذلك الى مسامع بياتريتشة معبودته. وانكرت هي ذلك منه، وضنت عليه بتحيتها ولم ترد عليه تحيته. لقد ذرف الشاعر دموعه مدراراً، ومع ذلك فانه لم ييأس من الحصول على العفو من محبوبته ورجوع المياه الى مجاريها.

بيد ان آماله خابت عندما جاءه في احد الايام صديق له دعاه ليصطحبه الى حفلة عرس. وما اشد ما ارتاع عندما علم ان العروس هي بياتريتشة بقدها وقديدها، وقد توسطت اترابا لها. وما كادت تراه حتى بدأت تشير اليه بطرف خفي ساخرة متضاحكة، وكان دانتي في اثناء ذلك ممتقع اللون مصفر الوجه وقد شفه الحب واضناه.

جرحت تلك السخرية منه الفؤاد فأدمته وحفرت فيه اخدوداً عميقاً. ومرت سنوات عدة على هذا الحادث. وتشاء الصدف ان تموت بياتريتشة وهي في ريعان الصبا، وها هو ذا خيال دانتي يجمح به ويجعله يلتقي في اثناء رحلته عبر العالم الآخر، وقد اسكنها في الجنة، وراعه منها انها لاتزال تحتفظ له في نبرات صوتها ببعض الجفاء استذكاراً مما كانت قد لاقته منه في الحياة الدينوية، فكأنما الموت والحياة الثانية لم يقويا على ازالة المرارة من اعماق نفسها، فما كان منه ازاء ذلك إلا ان اطرق واطال وقد عقد الحياء لسانه، وداخلته منه البلبلة.

كان ذلك تصور دانتي لبياتريتشة في العالم الآخر، انها لاتزال واجدة عليه، واعربت عن ذلك نبرات صوتها، وقد استفاد دانتي من هذا الحكم الصامت وكان مجدياً عليه، وما كان ليضعف فيه أو ليخمد له تلك الشعلة التي كانت تلتهب بها نفسه، بل طهره ذلك من كل شائبة وازداد الحب اضعافاً مضاعفة. فالتحية التي انكرتها عليه في حياتها وحرمته منها، تمثل امام باصرتيه وفي ادوار حياته كلها السلم التي يرتقي بها بحبه وشعوره واحساسه القوي، قمة الخلود، حيث يستطيع ان يدبج قصة حبه ضمن اطار لا يعرف الفناء. اجل قصة الحياة الدنيوية انتهت بينه وبينها، وتبدأ قصة الحياة

الابدية في السماء حيث بياتريتشة السعيدة سعادة الخلود تدعو شاعرها الامين اليها بكلمات لها صداها السحري في القلوب فقط.

وقد شملت هذه التورية تارة هذه المرأة وطوراً تلك الاخرى. وعلى كل فان في كتـابه الاول (حياة جديدة) لا نشك بحقيقة وجود اولئك النسوة اللائي اتى على ذكرهن. وقل الشيء ذاته عن الشعراء الذين ذكرهم بكثرة في مؤلفاته ابان شبابه الزاهر.

لقد كان حبه لبياتريتشة حباً حقيقياً لا مرية فيه، لانه بدون هذا الحب يفلت من بين ايدينا المعنى الانساني (للكوميديا). على الاقل في جزء كبير منها. ولن نفهم ابداً تلك القوة والاصالة من الهيام والخيال الحالم المصور الدقيق التي توحد وتختم كلها مجتمعة حياة دانتي في انشودة واحدة ألا وهي عبادة المرأة أو تمجيدها على الاقل.

● ● ●

إن افضل من كتب سيرة دانتي كان الكاتب الايطالي يوسف بابيني، ويلخص هذا الكاتب علاقة دانتي ببياتريتشة بالتالي:

(يعتبر اول حدث عاطفي ذو اهمية في طفولة دانتي وفي فتوته التقاؤه ببياتريتشة التي احبها حتى العبادة، ولم يحتل حدث من الاهمية والتجارب اكثر مما احتل هذا الحدث. فقد رفعها فوق مصاف البشر، مع انها كانت في حياتها، والتاريخ شاهد على ذلك، بشرية، انسانة ككل انسان. اما ان دانتي قد خصها بكل صفة جميلة حتى بلغت درجة المعجزة، مستعملاً احياناً لهذه الغـاية تعبيرات لا تصلح إلا للقـديسين انفسهم، فان المسـألـة فيهـا نظر وتستوجب منا الحذر والشك في صحتها. اجل! ان الشعراء يبدعون بخيالهم وبمالهم من قوة المشاعر حقيقة يجعلونها اشد من الواقع الايجابي التاريخي ذاته، ولكنهم على كل حال لا يستطيعون الغاء هذه الواقعية الايجابية مهما ابدعوا ومهما جمح بهم الخيال.

إننا نهتم كثيراً بدانتي وبحبه هذا لانه ينبوع الفن والسحر، ولان في

حياة كل منا انعكاسات وتجاوباً لمواقف الآخرين منا الذين لهم بعض الصلة بحياتنا شئنا أم أبينا، انهم يصبحون لحقبة من الزمن طالت أو قصرت جزءاً منا).

وواضـح ممـا سقنـاه من كلام لبـابيني ان دانتي احب وعبـد وألّـه بياتـريتشـة. والآن يدور هذا السؤال على ألسنـة الجميع: ماذا كان رأي بياتريتشة في دانتي؟ ما كان صدى ذاك الحب في نفسها؟ هل بادلته الحب أم سخرت منه؟ هذه اسئلة ثلاثة من كثير من الاسئلة، والاجوبة عليها قليلة جداً اللهم إلا ما اطلعنا عليه دانتي نفسه عن محبوبته هذه فانه كثير، ولكنه ينحصر في نواح قليلة. لقد اشاد مثلاً بالفضائل التي ما انفك يتمثل بها، وذكر ما لهذه الفضائل من التأثير عليه وعلى شتى مناحي تفكيره. اما عن حياتها وعن مشاعرها وعن علاقته بها، فانه لم يقل شيئاً يذكر تقريباً اللهم إلا بعض الامور التي تجعلنا نجري اثر بعض التأويلات كل مذهب. كان دانتي عاشقاً ولهاناً دنفاً فقط. لقد اضطربت مشاعره امام ذاك الملك الصغير ولم يتطرق الى قلب هذا الملك ادنى شك بالاضطراب الذي كان يسببه.

وكان الالتقاء الثاني في السنة الثامنة عشرة من عمره وهي في السابعة عشرة من عمرها. وقال دانتي نفسه بصدد ذلك: التفتت الي وهي في احد الشوارع بين اتراب لها، وكنت وجلاً خائفاً، وكان من منتهى لطفها وانسها ان القت علي السلام بأدب جم.

ثم لاسباب لانزال نجهل بواعثها، ضنت عليه فيما بعد بتحيتها. أكان ذلك غيرة منها عندما رأته يغازل بعض النساء؟ ألم يفعل ما فعل عمداً ليبعد الشبهات عنها؟ وكانت نقطة التحول في كل ذلك عندما لاقته في بعض الايام بابتسامة ساخرة هدّت له بها كيانه، فتألم كثيراً. وبعد ان عاجلتها المنية انقلب حبه لها الى وله وهيام، ممجداً اياها كما لم تمجد امرأة مثلها بعد مريم العذراء.

إن وفاة بياتريتشة كانت ضربة قاصمة ظل بعدها طوال اشهر لا شيء

يعزيه عن فقدانها. بحث وطال بحثه عن العزاء له في مصابه، فلم يجده إلا في العب من مناهل العلم، فأكب على دراسة (بواتسيو) و (تشيتشرون)، مما اجج فيه حب المعرفة، ودفعه ذلك الى ان يقود خطاه نحو مدارس رجال الدين وتتبع جدال اهل العلم والفلسفة.

في عام ١٢٩٥ تزوج دانتي وهو في سن الثلاثين من عمره. وقد اولد زوجته ولدين ذكرين: بطرس ويعقوب، وبنتاً: انطونيا، ترهبت فيما بعد واتخذت لها اسم بياتريتشة. ولم تكن زوجته بارة به، فشقي بها طيلة حياته. وفي ١٠ آذار سنة ١٣٠٢ صدر الحكم عليه بالاعدام حرقاً وهو حي اذا وقع في ايدي سلطات المقاطعة التي ينتمي اليها. وهكذا بعد هذا الحكم لم تكتمل عيناه برؤية ارض الوطن العزيز وكذلك لم ير اسرته إلا قبيل وفاته، أي في سن الشيخوخة التي داهمته مبكرة فالتحق به اولاده وعملوا على تعزيته بما يستطيعون اليه سبيلا.

اذاً لقد جرد من كل شيء: الاسرة والاصدقاء والمال والوطن، أو مسقط الرأس اذا اعتبرنا وطنه الاكبر ايطاليا، ومن كل عزيز على قلبه. وفي منفاه أنّى رحل وحيثما حل، لحق به حنق اعدائه الذين تجردوا من المشاعر الانسانية الطيبة.

ولم تعرف المرأة في حياة دانتي إلا من ذكرناهم؟

● ● ●

دانتي كان عاشقاً اكثر من كونه مغرماً، كان بتولياً اكثر مما كان واقعياً. ولكون بياتريتشة اول وآخر حب مر في حياته فان وقعها عليه كان كبيراً، ولنتذكر انه بعد وفاتها ببضع سنوات تزوج زيجة عادية لم تكن موفقة وهو في الثلاثين من العمر، وبعدها بدأت متاعبه السياسية التي قادته الى صدور الحكم عليه بالاعدام والنفي مما لم يسمح له بمكان لحب آخر يعوضه عن عشقه لبياتريتشة، فكانت صورتها هي التي استحوذت على كل خياله ومشاعره.

لقـد كان تأثيرهـا عليه اقوى من السحر، وكانت تتراءى له في حلم اليقـظة والنـوم. انه يراها كما ظهرت له اول مرة ملائكية هوائية الاطراف فيحس بتبكيت الضمير شديداً ويعود الى البكاء والى الاشتهاء فتبسط افكاره بحماس صوفي النزعة. يأمل قربها في ذاك العالم الروحي ويريد ان يتأملها طويلاً وهي في مجد السماء. ولما تراءت له للمرة الاخيرة في تلك العوالم السماوية جعل ذلك ختام قصته لها في صباه، وذلك بعد ان ركز خياله في قالب من المدح لا يفوقه مدح على هذه البسيطة، ورفعه انشودة خالدة الى محبوبته. وهكذا بدأت الكوميديا وقد دعيت فيما بعد (الكوميديا الالهية).

إن الحكم بالطعن الذي كان هدفاً له دانتي في شبابه، شباب التصوف والهيام اشبه بنور الفجر الذي غمر له عالمه الشعري، ذاك العالم الذي ليس لاتساع حدوده حد.

ودانتي يحمل في اعماقه افكاراً ذات حدود واضحة عن كل مشكلة، فهو اشبه بكتلة من التأكيدات الايجابية، وحيث لا يسعفه العقل فانه يستدعي الدين لغوثه.

وللتعرف اكثر على نفسيته يكفي ان نقول انه بكى مراراً عندما التقى ببعض المعذبين، ورثى لحالهم، ولم يجد غضاضة من الاعتراف بذلك، وهذه اشارة طيبة على ان بين جنبيه نفساً رقيقة وحساسة جداً.

وليس البكاء عاراً اذا صدر عن الرجل ولو كان عظيماً جداً. ان من ينظر الى تقـاسيم وجه دانتي القاسية، كأنها البركان الخامد، لن يتبين فيه هذه الحسـاسية. بينما من الامر الضروري ان نتبين فيه ذلك كي نتفهم جملة اخلاقه وبعض المناحي من عبقريته الشعرية. وقد رأى بعضهم فيه: الدوحة العاتية التي تهزأ بالرياح، ونحن نقول لماذا لا يكون كالصفصافة المتدلية الاغصان أو كالثكلى الحزينة تبكي ابداً.

ليس من شك ان تأثير هيامـه ببياتـريتشـة وموتها المبكر قد اثر على نفسيته، لهذا بتنا نراه يردد كلمات: الخوف والرعب والهلع والفزع والجزع

وغيرها. وقد كثرت مثل هذه التعابير في الجحيم والاعتراف مما يجعلنا نستنتج من ذلك بان دانتي نفسه كان يرزح تحت كابوس الرهبة والهلع، هذا مع عدم اغفال تأثير حكم الاعدام عليه. ومن ناحية اخرى، فان دواعي الفن، وهو يرى ما يرى في الجحيم من الشقاء والعذاب الشديد، تثير فيه حاسة الذعر القوي. وحسب المرء ان يفكر بمثل هذه الاشياء حتى يداخل نفسه ما يداخلها من شعور الوجل والتهيب.

علينا ان لا نغفل ان دانتي كان يصور في شعره ما لم يكن يستطيع ان يعمله في حياته، ولهذا فان بياتريتشة كانت العمود الذي اوقف عليه عذابه وضناه.

يوهان غوته

غوته اديب المانيا الاول طبع بشخصيته واعماله ثلاثة ارباع القرن من الحياة الالمانية.

كان في حياته يشكل ظاهرة اجتماعية، فصدور كل من مؤلفاته كان حدثاً يثير كل الناس، ويجعلهم يتحدثون عنه. ويحللون انفسهم من خلال المرآة الرومانسية أو المسرحية التي يقدمها لهم.

– وعند صدور احد مؤلفاته، كما يقول احد الشهود، كان الناس يقفون صفوفاً طويلة امام المكتبات تماماً كما يقفون امام الافران في زمن القحط.

لنأخذ اذاً غوته، ليس كمؤلف واكبر مفكري عصره، بل كوحدة وزن وقياس، كسلك موصل يسمح بالمغامرة في متاهة التاريخ الاجتماعي والثقافي لعصره، سعياً وراء اللواتي كان يقول عنهن: (النساء الموثوق بهن، ينبغي ألا يحبهن أي رجل، فنحن لسنا جديرين بهن).

إن حياة غوته تعانق حقبات متناقضة، ولحظات قاسية في التاريخ.

شكل غوته خلال ثلاثة ارباع القرن، من عام ١٧٤٩ تاريخ ولادته في فرنكفورت، وحتى العام ١٨٣٢ تاريخ موته في ويمار، استمرارية بيوغرافية استثنائية، وقد اكتملت هذه الحياة، التي بدأت بحرب السبع سنوات، وتميزت بالحروب الثورية فالنابوليونية، واضطربت بالاحتلالات العدوة المختلفة وانتفاضة العام ١٨١٣ الوطنية، بالنيران الاخيرة لثورة اخرى الهبت اوربا في العام ١٨٣٠. وبحكم طول حياته، فان غوته يعتبر، حقاً، صدى

التاريخ الالماني، حتى ولو اشاح ببصره، بدافع اللاهتمام، أو التعب، أو عدم الفهم، عن هذا التاريخ الاحتلالي لينخرط في الابداع الرومانسي.

بعد ان نزح غوته عن فرانكفورت واستقر في مدينة ستراسبورغ، استرعى انظار اهل المدينة الجديدة، واصبحت تصرفاته العجيبة موضع احاديثهم واسمارهم في معظم لياليهم.

فلقد كان دائم التنقل والتطواف في انحاء المدينة وضواحيها، لا يمل البحث والتنقيب في كنيستها الاثرية ومتاحفها ومكتباتها. وكان قد حصل على الدكتوراه في القانون، وحصل قبل ذلك على قلب الفتاة فريدريك ابنة قسيس المدينة. فحسب ابوه ـ المستشار غوته، كما حسب اصدقاؤه وعارفوه، انه لن يلبث ان يشق طريقه العملي في الحياة، عاملاً في المحاماة، متزوجاً من تلك الفتاة. ولكن غوته الشاب كان مشغولاً بما هو اهم في اعتقاده من هذا وذاك.

كان يفكر في المؤلفات الكثيرة العظيمة التي اعتزم اخراجها للناس. وهو يريد اول كل شيء ان يؤلف كتاباً عن (فاوست) ذلك العالم الساحر الذي باع نفسه للشيطان بثمن بخس من متاع الدنيا الزائل القليل، وان يضع لمعاصريه في قالب جديد اساطير قومه الجرمانيين الاولين، ثم قصة البطل (بروميتي) و(حياة قيصر الفاتح العظيم).. وهناك غير هذه مشروعات لمؤلفات عديدة رائعة اخرى، طالما راودت ذهن الدكتور الشاب، واستغرقت تفكيره واحلامه وامانيه. وكان اهم ما يشغله من امر هذه المشروعات كلها هو: هل تراه يعيش ويمتد به العمر حتى يحقق احلامه، ويخرج للناس كل تلك المؤلفات؟

ولم يكن عجباً بعد ذلك ان ينصرف غوته الشاب عن المحاماة، وأن يهجر خطيبته التي بادلها الحب واملها بالزواج، ثم يهجر فرانكفورت كلها حيث اهله وعشيرته ويستقل جواده راحلاً.

● ● ●

مضى غوته ملتحقاً ببلاط (ويمار) وهي امارة صغيرة الرقعة، ولكن لها في تاريخ المانيا اكبر الاثر. وقد كان اميرها دون غوته سنا، جم النشاط، متيقظ الحس لا يكل عن السعي والحركة، لا يغفل عن انتهاز الفرص سواء في اهتمامه بشؤون الملك، أو تفننه في اللهو وانتهـاز اللذة، وكان متحمساً للفنـون والآداب يستقـدم اصحـابهـا، ويوليهـم المنـاصب ويجـزل عليهم الرواتب، ويكن لهم الاجلال والاكرام، حتى اجتمع منهم في ويمار ما لم تفز بمثيله سائر المانيا. ومما يؤثر عن الامير الفتي انه امر فجمعت له مكتبة عن الحب تكلف في جمع شواردها العناء والنفقة. وهو يقرن الى ذكاء الفؤاد وشوق المعرفة، عرام العواطف الحسية الجامحة وكراهة المراسم والخشونة في الطبـاع والكلام وجفاء المجون والرغبة في اللهو العنيف.

وبالجملة فان له شيمة الحندي تستهوي لبه المخاطر، ولقد اتفقت سليقة الامير وصديقه الشاعر في عبادتهما للطبيعة وتذوقهما للحياة والارض. فاذا ويمـار تضـج في معـظم الاحيان بالاعياد ومـواكب المساخر وحلقات الـرقص، في ضوء المشـاعل فوق الثلوج، والطرد والاجلاب الجموح على صهوات الجياد، وركوب المزالج على الجليد. واذا مجالس الشراب ولعب الورق والنرد، واذا الجولات المتنكرة والصبوات المتنقلة ومغامرات الليل في القصـور والقـرى المجـاورة. والامير والشاعر متلازمان كلاهما عارم الفتوة صلب العـود، موثق البنية يروعـك مرآه في زي الـركـوب وحـذائه الطويل الغليظ، وقبعـة السمـور وهو يربت على كلاب الصيد أو يمسح على لبان الفرس. فلا جرم يصدق ما يقال من انهما ليطويان بياض النهار في الطرد والقنص - قفزاً فوق السياج والاخاديد، وتسنماً لليفاع وانصباباً على الخدور - ثم يعقبان بسوار الليل يزجيانه سكراً ورقصاً ولهواً.

ولقد يجر امير ويمار المقحام صديقه الى حد الاستهتار وخلع العذار، في مغامرت شائنة مع الاماء والقـرويات، ويجوب معه معربداً في الاسواق

والاعياد العامة. ويميل به الى احدى الحانات المنقطعة ينادمان لعوباً من النساء قروراً.

كما ان ويمار لها مسرحها، وللمسرح فرقته، وفي الفرقة حسان مؤاتيات اتصل الشاعر المشرف على التمثيل باحداهن، ويقال انه كان وصاحب ويمار شريكين في وصلها!!

على ان هذا انما كان يرضي من شاعرنا شياطين حسه، ولم يكن ينفذ في قلبه الى شغاف ولا صميم. والشاعر لا غنى له عن الحب، ولا يحيا حفل حياته إلا به. ولقد ذاق غوته هذا الحب المرة بعد الاخرى طيلة ايامه، ولولاه ما ارتفع على انانيته، ولا سبر غور الالم وعرف التضحية ولا تخرج في الشعر والادب حكيماً ومنشداً. والنساء اللاتي احبهن في مراحل عمره، يطول بنا احصاؤهن، فيكفينا هنا للدلالة على مبلغ دينه لهن، ومدى استلهامه منهن، الاستشهاد بقوله: الانوثة الابدية تجذبنا الى السماء.

● ● ●

كانت اوربا في الشطر الثاني من القرن الثامن عشر، يسودها الرخاء والهدوء. ملوكها يعيشون في سلام ووئام في سكينة خاملة لا تكاد تحركها مشاحنات الصدارة بين هذه الدول، ولا حتى انتفاضات الاجيال الجديدة التي تجعل من الادب سلاحاً من نوع جديد. فحركة (ستورم انددرانغ) لم تكن حركة ادبية فحسب قامت في السنوات ١٧٧٠ - ١٧٧٥ على اكتاف بعض الشباب البرجوازي الغاضب، بل كانت ثورة فعلية في اساليب الحياة. فاللباس على طريقة وررز مع استرسال الشعر المستعار، والاحذية ذات البطلات، والزي الصاخب.. الهندسة المدنية فيها عودة الى الماضي مع تشويه لمحاولات التحديث، حياة الطلاب على قسط كبير من الصخب. وباختصار كان الشباب، كما وصفه غوته في سيرته المتأخرة (شعر وحقيقة) انساناً يرفض - مؤقتاً - ان يصبح رجلاً منظماً، أو محامياً كما كان يريده الاب. والمسؤول عن الدخل العائلي.

اما الفتيات اللواتي في السن نفسها، فبقين قابعات في منازلهن حتى الزواج الذي لم يكن يغير، في الغالب، شيئاً من اوضاعهن الراهنة. لم يكن لهن من مخارج سوى بعض التربية التي كانت تمنح لهن، وسيعرفن كيف يستفدن من هذه المعرفة، وبالاخص، من المطالعة التي بقيت متاحة لهن.

في تلك الفترة التي ذكرناها، اندفع الاديب الشاب غوته في تيار ذلك المجتمع العجيب، وما لبث ان احرز فيه مكانة سامية ملحوظة، بما عهد فيه من براعة وذكاء وسعة اطلاع.

ونشأت صداقة متينة بين غوته وشابين من المعجبين بشعره ونثره، احدهما موظف في مفوضية برونسويك يدعى جروزاليم، والآخر من موظفي مفوضية هانوفرو اسمه كستنر.

وكان الاصدقاء الثلاثة الشبان يطلقون لشبابهم عنان الآمال، ويشاركون في الحفلات الساهرة والراقصة التي يشهدها علية القوم من الجنسين في وتزلار. وفي احدى تلك الحفلات، عرف غوته (شرلوت بوف) خطيبة صديقه كستنر. وكان هذا طالما حدثه عنها دون ان يذكر له اسمها. ثم قابلها غوته بعد ذلك مرات، احس خلالها ان شيئاً خفياً يجذبه نحوها، وراح يسائل نفسه: (اتراني احبها؟ ولكنها خطيبة صديقي! ثم ان فريدريك مازالت تنتظرني هناك في فرانكفورت!).

بيد انه ما لبث ان القى عن كاهله عبء ذلك التساؤل الثقيل، واستطاع ان يقنع نفسه بألا شيء في تركها وما تشاء، فليس الوفاء في الحب سوى وهم وخيال، ثم ماذا يهمه هو من الامر إلا ان تتجمع لديه العناصر الكافية لوضع الرواية التي يفكر فيها، وسواء عليه بعد ذلك: اكان هو بطل الحادثة الغرامية التي يعالجها في روايته، ام كان غيره ذلك البطل؟

وهكذا اصبح الدكتور غوته يكثر من التردد الى منزل شرلوت، واصبحت تستقبله مرحبة به، مستغرقة في الحديث معه، كلما زارها مع خطيبها أو زارها وحده، في اية ساعة! وكثيراً ما كان كستنر يذهب لزيارتها بعد

انتهاء عمله، فيجدها وصديقه مستغرقين في الحديث عن الحب والجمال واثرهما في الحقيقة والخيال! ولكن كستنر كان شديد الثقة بخطيبته. وكان قبل ذلك اشد ثقة بنفسه وبأن مركزه الثابت في المفوضية لا يدع لشرلوت مجالاً للتفكير في سواه! وعلى هذا، لم يكن يرى غضاضة في ان يكون غوته اكثر منه لقاء لشرلوت، ولا في ان يجدهما وحدهما بمنزلها مستغرقين في احاديث الحب والزواج.

اخذت علاقة غوته بشرلوت تزداد عمقاً الى حد انه لم يستطع كبح جماح اعجابه بجمالها الاخاذ، فطبع على جبينها قبلة من نار! ولم تحاول شرلوت ان تخفي عن خطيبها امر هذه القبلة المحرقة، فروت له ما حدث. وكان جوابه ان مال على جبينها فطبع عليه قبلة اخرى، مؤكداً لها انه يثق باخلاصها ثقة عمياء، ويترك للباقتها وحكمتها معالجة ما بدا من صديقهما، ورده الى صوابه!

ولم يحاول غوته ايضاً ان يخفي على كستنر انه اصبح يشاركه حب شرلوت، ولكنه كان يضيف الى ذلك قوله: انني احبها حباً عذرياً، خالياً من اي غرض، ولا استطيع ان انسى ابداً انك فتاها الاول، وانها لك وحدك! وايا ما كانت حقيقة شعور غوته نحو شرلوت حتى ذلك الحين، فانه ما لبث ان ادرك انه من الخير له ولها ولخطيبها ان يخلي لهما الجو، فيرحل عن وتزلار!

فلما اجتمع الثلاثة ليلة الرحيل، قضوا السهرة في الحديث عن الحياة الآخرة وكيف يلتقي فيها الاحباب! وكان من رأى غوته ان هذا اللقاء لا بد منه، ووافقه على ذلك كستنر وشرلوت، ثم تعاهد الثلاثة على ان يحرص من يموت منهم اولاً على ان يلقى زميله بالروح! وبعد ان ودعهما غوته عائداً الى حجرته ليتهيأ للرحيل في الصباح، كتب الى كستنر يقول: (انا ذاهب يا صديقي، وها انذا ابكي جزعاً من الفراق الذي لن اطيقه. ولكن لم يكن بد من ذهابي بعد ان نفدت آخر ذرة من مقاومتي ذلك الشعور المسيطر الجبار!). وقالت شرلوت حين اطلعها خطيبها على رسالة غوته: لقد صدق،

فلم يكن هناك ما يحل المشكلة سوى الافتراق.

بعد ذلك، رحل غوته الى كوبلنز ومنها سافر الى ايمس حيث نزل ضيفاً على المستشار لاروش وزوجته. ومنذ اللحظة الاولى، استرعى انتباهه جمال مكسيمليان ابنة مضيفه. وكانت في السادسة عشرة من عمرها. وقدر له ان يخرج معها في رحلات طويلة الى الغابات المجاورة، فسرعان ما شعر بانها ملكت قلبه واحتلت منه موضع شرلوت. كما سبق ان احتلت هذه موضع فريدريك وكتب في مذكراته عقب عودتهما من احدى هذه الرحلات يقول: (ما اروع ان ينظر الانسان الى الشمس وهي تغيب امامه وراء الافق، فاذا هو التفت خلفه رأى القمر يصعد ايضاً، فنسى في روعة المنظر الجديد روعة المنظر القديم!).

على ان اقامته في ايمس لم تطل، اذ غادرها بعد قليل عائداً الى اهله في فرانكفورت. وهناك في بيت ابيه، راح يعيد النظر في المذكرات التي كتبها خلال تلك الرحلة مسجلاً مشاهداته، وخواطره ونتائج اختياراته. وقد صح عزمه على ان يستخلص منها اول قصة يخرجها للناس.

وامضى غوته الايام التالية معتكفاً في حجرته الخاصة لا يغادرها إلا في النادر القليل. وفي كل يوم من هذه الايام كان يحرص على ان يكتب الى صديقه كستنر ذاكراً بكل جميل تلك الايام التي امضاها معه ومع خطيبته شرلوت في وتزلار.

ولم تقف به ذكرى شرلوت عند هذا الحد، فقد وضع صورتها فوق سريره، ولم يكن يمل التأمل فيها. على ان هذا كله لم يكن يعني ان حبها عاوده. وكل ما هناك انه كان يستحضر ذكريات ذلك الحب، لعلها توحي بفكرة أو عبارة أو اشارة، تأخذ مكانها في القصة التي اعتزم كتابتها!

● ● ●

يمكن القول ان غوته انتهى في رسم الخطوط الاولى لموضوع قصته الذي استمده من قصة حبه الحقيقي لشرلوت:

شاب ينـزح الى مدينة، فيصـادف بهـا فتاة يحبها وتحبه، ولكنه لا يستطيع المضي في هذا الحب، لان الفتاة مرتبطة بآخر. وامام هذه العقبة، لا يسعه إلا ان يتراجع مضحياً بسعادته فيغادر المدينة تاركاً الفتاة لذلك الذي ارتبطت به.

على ان غوته، يعود فيرى ان هذا الموضوع ليس من القوة التي ينشدها لقصته الاولى، القصة التي يرجو ان تولد خالدة وان تجعل مؤلفهـا من الخالدين!!

وتمضي الايام، ثم اذا به يتلقى من صديقه كستنر رسالة يخبره فيها بانتحار صديقهما جروزاليم. . ذلك الشاب الشاعر الوديع، الذي كان يقضي اكثر اوقاته صامتاً، أو يقرض الشعر في ضوء القمر بين الاشجار والرياحين. ويحـزن غوتـه لهـذه النهـاية الاليمة التي انتهت بها حياة صديقهما العزيز الوديع، ولكنه في غمرة هذا الحزن يذكر كيف كان الفقيد مثلاً اعلى للعاشق المخلص الامين، وكيف ذهبت عبثاً جميع المحاولات لمعرفة اسم تلك التي احبها واتخذها ملهمة توحي اليه بأناشيد الحب والوفاء.

وفيمـا كان يفكر، تقفز الى ذهن غوته المضطرب فكرة استكمال ما ينقص موضوع قصته، فيجعل بطلها الشاعر ينتحر في نهايتها. وتعجبه الفكرة ويراهـا رائعـة مؤثرة، فيكتب الى كستنر ان يروي له بالتفصيل كيف انتحر جروزاليم، ويجيبه هذا الى طلبه، ولكنه لا يقنع إلا بان يسافر الى وتزلار ليرى بعينه الحجرة التي انتحر فيها جيروزاليم.

وفي وتزلار رأى غوته كستنر وشرلوت يستعدان لعقد زواجهما، فثارت في قلبـه ذكـريات غرامـه بشرلوت. وفكر في ان يقتفي خطوات جروزاليم فينتحر هو ايضاً! ولكنه سرعان ما سخر من هذه الفكرة، ورأى الحياة اعز واثمن من ان يضحي بها من اجل حب قديم!

اخيراً، تزوج كستنر وشرلوت، وقدم لهما غوته هدية ثمينة. ثم سافر العروسان الى هانوفر، وعاد غوته الى فرانكفورت حيث اخذ في الاستعداد

لكتابة قصته، غير ناس ان يكتب الى صديقيه العروسين بين حين وحين!

وبعد فترة، جاءته الانباء بان مكسيمليان دى لاروش قد تزوجت هي الاخرى، وان الزوج الذي اختارته، وانتقلت الى بيته، ليس بعيداً منه، فهو بقال ثري في فرانكفورت نفسها، اسمه برنتابو! واتقدت نيران الغيرة في صدر غوته، وعاوده غرامه بمكسيمليان اشد مما كان! وما هي إلا ايام حتى اخذ سبيله اليها في بيتها الجديد، محاولاً وصل ما انقطع من غرامهما المتبادل القديم. ورغم انها كانت مازالت تحب غوته، وترى زوجها البقال غير كفء لها، لم يسعها إلا ان ترده في رفق، متوسلة اليه ان يكف عن زيارتها، خشية الفضيحة والعار! ولم يعبأ غوته كثيراً بهذا الفشل المتلاحق في غرامه، فقد انساه اياه نجاحه في الحصول على كل العناصر التي كان ينشدها لقصته.

وبعدها اعتكف في منزله، واخذ في كتابة القصة حتى اتمها، وسماها (آلام الشاب فرتر) مستعيراً لنفسه هذا الاسم الذي اختاره لبطلها، كما استعار لصديقه كستنر اسم البير، اما شرلوت فقد ابى إلا ان يذكرها باسمها نفسه. ولم تنسه فرحته بانجاز طبع القصة، ان يرسل اول نسخة طبعت الى شرلوت، ومعها رسالة اهداء رقيقة، يذكر فيها انه طبع على هذه النسخة مائة قبلة!

ولقيت القصة فوق ما تمناه غوته من الرواج وحسن تقدير النقاد. ولكن صديقه كستنر ما كاد يقرأها حتى كتب اليه متهماً اياه بانه ارتكب جرماً دنيئاً، بما اساء الى سمعته وسمعة زوجته، وبما شوه من سيرتهما بما رواه في قصته من وقائع واحوال خلط فيها الحقيقة بالخيال! وساءت العلاقات بين غوته وصديقيه، وشغلهم بعد ذلك مشاغل الحياة.

ولم يلتق غوته وشرلوت إلا بعد ان مات كستنر وترك لها ولدين اتما مرحلة التعليم. وكانت هي قد اشرفت على الستين، فذهبت لتقابله بوصفه وزيراً للدولة، آملة ان يعاونها على ايجاد عمل لولديها. وكان هو بدوره قد شاخ وشاب واحنت ظهره الايام، فتبادلا نظرات وكلمات تنم عن الدهشة والاضطراب. وخرجت شرلوت من مكتب الوزير الشيخ. وكل منهما يحاول

ان يجد في الآخر صورة الماضي، ولكن هيهات ان يعود الماضي.

● ● ●

كان غوته في السبعين من عمره قد مل من التردد في كل عام على حمامات كارلسباد باقليم بوهيميا للترويح والاستجمام، فعدل عام ١٨٢١ عن كارلسباد الى مارينباد في الاقليم نفسه، وهي وقتئذ المستراد الجديد للاستشفاء بحمامات عيونها الحارة التي كانت تروى عنها الخوارق والمعجزات. والمأثور عن غوته انه يؤثر اعتزال الناس، والعكوف عن مطالعاته وموضوعات درسه، والانفراد والخلوة - ما استطاع - بنفسه. وهذا صحيح، صحيح كل الصحة إلا انه لا يصدق عليه طوال العام، فهو على النقيض من ذلك في فترة الاستجمام، يسعى للاجتماع ومداخلة الناس، ويطلب الصحبة ودواعي الايناس. وقد بلغ ذلك منه ان اثر عنه قوله لبعضهم: (لا يحق التردد على مدن الحمامات لمن لا يصطنع كل حيلة، ويتخذ كل وسيلة للوقوع في شرك الغانيات من روادها).

ومع ذلك فقد تعرض غوته للغرام، فوقعت في قلبه منه سهام، وكادت جراحها ترديه، وتفجع من حوله فيه قبل الاوان.

كان بين النازلين في مارينباد صبية حسناء في السابعة عشرة من عمرها، تعيش مع اختيها وامها وجدتها، واسمها (اولريكه فون لوتسو). وكانت الاسرة من اهل كارلسباد، فابتاعت منذ عهد قريب - بمعونة من بعض الاصدقاء - داراً لطيفة للاستثمار في مدينة الاستشفاء الجديدة. ولاجل التعجيل باستثمار هذا الموقع البديع جعلت منها الاسرة نزلاً اثناء الموسم للوافدين من ابناء العلية المتوسطة على مارينباد. ومن ثم كانت حفاوة الاسرة بنزول غوته عندها، وهو المستشار الخاص ووزير صاحب السمو الملكي الدوق الاعظم لامارة ويمار، حفاوة بالغة فائقة. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهو بسكناه في النزل يخلع عليه من جاهه ونباهة قدره ويزيده في اعين الناس رفعة وبهاء. ألا نفرح فيما اذا نزل العظماء في بيوتنا.

لقي غوته عند آل لوستو كل الترحاب ولم يكن شيء يعادل عنده ابتسامة أولريكه. وكانت اولريكه اقل اخواتها اصطناعاً للدلال والمشاكسة، واوفرهن رقة طباع وحلاوة شمائل. وكان في جمالها استحياء وخفر كالزهرة افترت اكمامها ولم تبلغ غاية تفتحها. وكانت عيونها الزرق البنفسجية تختلس النظر اليه من تحت غدائرها الداكنة الحريرية. ولقد كان يعوزها المراح والشخصية، وتنقصها المفاتن الجاذبة القوية، إلا انها كانت مع ذلك تستلفت النظر بطلعتها اللطيفة المسنونة، وجيدها الدقيق الاتلع، وجسمها الصبياني الذي لم يستوف تكوينه وظهور تقاطيعه في ثوبها الهفهاف، المكشوف الجيب عن نحرها في قصد واحتشام. وكانت تميس في مشيتها من لين الاعطاف وميعة الصبا في غير تعمد.

من عادة غوته تناول الغداء مع صاحبات النزل، ثم العودة في المساء لتناول الشاي على مائدتهن. وكان في اكثر الاوقات يطيل الجلوس معهن على شرفة الدار. فاذا كان يوم الاحد، دعاهن للنزهة في مركبة، فكانت الجدة تستعفيه من قبول الدعوة معتذرة ـ ولعلها كانت مضطرة للبقاء لاعداد العشاء ـ اما مدام لوتسو وبناتها فكن يقبلن الدعوة متهللات مبتهجات، وسرعان ما يلقين على اكتافهن منديلاً من الوشي المخرم، ويهرعن مع غوته الى المركبة التي في انتظارهن، ويحرك الحوذي سوطه فتنطلق رويداً بهم. وثمة ترى لثياب النسوة الهفهافة تضغطهاالزحمة في المركبة ثنايا وتجاعيد شتى من مسترسلات ومقببات، وترى الشرائط من المخمل تخفق على القبعات العريضة من الخوص، فقد كان المنظر رومانسياً.

وتمضي المركبة يخب بها الجوادان من الجياد الكمت الى جوسق (كشك) من الجواسق الريفية القائمة وسط اشجار الرايتنج. وفي الطريق الى مقربة من العين الفوارة الجديدة حيث يخطر جيئة وذهاباً اهل الاناقة في السترة القصيرة والسراويل البيض الطوال المشدودة الى اسفل النعال، لا تتمالك صاحباتنا انفسهن من مداخلة الزهو والخيلاء وهن يعبرونهم في مركبة

غوته العظيم. وغوته في السترة الطويلة (الردنجوت) مزرورة مزمومة عليه، وقد نصب صدره، وجعل يرد - في احتفال وكلف ظاهر بالمراسم - على تحيات المصطافين. فاذا انتهت النزهة وعادت بهم المركبة، رأيت غوته يتقدم في فراهة وتوسل فائق، ماداً يده الصغيرة الى صاحباته ليساعدهن على النزول، وقد حنى رأسه الأبيض كالثلج حفاوة وتبجيلاً.

استمر غوته دائبا على الذهاب كل يوم الى طريق العين في طلب لقاء أولريكه. وكان اذا منعته رطوبة المساء من الهبوط واياها الى الحديقة، جلس في البهو يتحدث اليها حديث الاب العطوف. واتفق ذات مساء ان وقع لها الجزء الاول من كتابه (سياحة وليم مايستر)، وكان اول ظهوره وقتئذ، فسألته في شغف وحرص (سيدي المستشار، لست احسن فهم هذه القصة، ولا بد ان شيئاً تقدمها) فأجاب الشيخ: (اجل يا بنيتي، ولكنها اشياء لا يستطاع قراءتها في مثل سنك. تعالي، تعالي اجلسي الى جانبي فأقص عليك ذلك الجزء). وأوجز لها (سنوات التلمذة) في كلمات شائعة طلية استعذبتها.

ولاكثر من سنتين كان من نزلاء (آل لوتسو). وقد اصيب في عام ١٨٢٣ بأزمة حادة في القلب كادت تكون القاضية، فعاد الى اقليم الاستشفاء ومعه في هذه المرة اميرويمار، وكانت عودته بعثاً له من جديد. فقد كان الشيخ منطوياً على حب مخامر لعله لم يكن اول الامر يتمثله في ظاهر وعيه، فاذا بهذا الحب يتفتح، فتنتعش قوى الشيخ وتجدد حياته. انه الهوى عين الشباب، وهذا هو يعكف عليها شرباً ويعب فيها عباً. ولماذا ينسلخ عن الدنيا وينقطع عن الناس؟ انه يتنسم هنا ريح المغامرة وعطر الغرام فتطيب له النشوة ويستعذب السكرة، ومن حوله الاميرودوق لوشتنبرغ ونبلاء العاصمة النمسوية، وكلهم منشرح الصدر، باسم الثغر، تحف بهم الغواني الغيد. انه لم يكن قط خير منه اليوم حالاً واسعد بالاً. انه طروب يغلب عليه المرح، فهو يشهد المراقص، ويرى في قاعات الاستقبال وسترته مرصعة بالاوسمة ورباط رقبته العريض مشبوك بحجر ثمين من (الكامية). واذا كان وجهه لا

يخلو في هذه السن من بعض الاحمرار والتشقق فضلاً عن شعره الاشيب، فانه كان يبدو وافر الشباب في مشيته المختالة الجليلة، ونظرته الواثقة النبيلة، بين الامراء ورجال السلك الدبلوماسي والسياسي من مختلف الاقطار، وهم يبالغون في توقيره. . ألم يكن شاعر المانيا الاول.

في عيد ميلاده الرابع والسبعون، دعته الاوانس، فقبل الدعوة وشارك في الرقص، يا لها من قوة عجيبة على التجدد!

ولقد كان السر في هذا الشباب المجدد حرارة الغرام ووقدته. وكان هو واولريكه لا يدعان فرصة تمر دون اظهار التودد ومبادلة الهدايا والالطاف. ولقد اهدت اليه قدحاً من الخزف الصيني، فلم تنس ان تلفه بأكليل من اللبلاب رمزاً للارتباط والتعلق - كذلك حين اراد ان يوضح لها درس معادن الارض بنماذج من الحجارة الجبلية يرسلها اليها، لم ينس ان يدس بينها قطعاً متبلورة من الحلوى ومربعات عطرة من الشيكولاته.

مثل هذه التصرفات تجعل المرء يتساءل ان ما يعطفه نحو هذه الفتاة ليس بالعاطفة الابوية الخالصة، وانما يخالطها ميل اقرب الى الهوى والصبابة؟

اجل، لا ريب، ولكن عقله امسى ضعيف النكير والمعارضة. وأي بأس بالله في ذلك؟ ان المرء سنه طوع امره، ان شاء عاش على رغم الكهولة عيش الشباب.

ولماذا لا يتزوج اولريكه؟

قد لا يكون من حقه ان يشكو الوحدة، فهو يعيش في ويمار مع اولاده وزوجة ابنه، واحفاده. ولكن، اين تلك البيئة العاصفة الصاخبة المضطربة بالمشاحنات بين الزوجين الشابين، من هذه الطمأنينة والسكينة في قرب اولريكه هنا في مارينبار! ان الناس لا ريب سوف يلغطون، ويهتفون بالتناقض الغريب والفضيحة الصارخة. . عند هذا الخاطر يثور في قرارة نفس الشاعر

شيطانه القديم، ويرفع صوته في حنايا جوانحه محتجاً له مفنداً دعوى المعارضين.

ان العبقرية من حقها الاجتراء وتحدي الناس.

وخير البر عاجله، ومن حسن التأني الذي افاده من تجارب السن والوظيفة رأى ان يضع مشروعه تحت رعاية سامية، وهي رعاية امير ويمار نفسه، وقد تفضل الامير فأبلغ مدام لوتسو في آب عام **١٨٢٣** رغبة مستشاره في خطبة ابنتها.

إن في هذا الطلب غواية واغراء لشابة صغيرة خاملة، أوليست تصبح بزواجها من غوته المستشار صاحبة رتبة وحاملة لقب (المستشارة) ويكون لها في بلاط ويمار شرف الاستقبال؟

لقد وعد الامير ان يهب الاسرة في الحال داراً محترمة في ويمار، وان يجعل للفتاة رزقاً راتباً من رواتب القصر مدى الحياة بعد وفاة غوته.

وحين ابلغوا الفتاة اولريكه، اجابت في لطف انها لا تعتزم الزواج، وانها تحب الشاعر الكبير حبها للوالد الشفيق، وانه لو كان وحيداً لا اسرة له لما ترددت لحظة في وقف نفسها على رعايته والعناية بشيخوخته، ولكنه ذو اسرة وولد.

بيد ان مدام دى لوتسو آثرت المصانعة والتلطف في تغطية هذا الرفض، فطلبت لفتاتها مهلة للتفكير والتروية.

بقيت الامور عند هذا الجواب المراوغ، وحانت ساعة التوديع، ولكن غوته لم يجد في مقدوره الانفصال عن الفتاة اولريكه. فلم يلبث ان لحق بها في كارلسبار، وقضى اياماً ثمانية الى قربها.

واخيراً لم يمر مندوحة من التسليم للقضاء وقطع الرجاء، فعاد الى ويمار.

وفي الطريق الى ويمار ـ وكان ذلك في آخر ايلول ـ تحركت عبقريته في المركبة التي اقلته، فكان من فيض قلبه الجريح تلك القصيدة التي

اسماها (مرثية مارينبار). وهي مزيج من الحب والحسرة.

وقد روى الشاعر نفسه خبر نظمها، قال: (في الصباح الباكر في اول موقف للمركبة كتبت مطلع القصيدة، ثم مضيت انظم في المركبة، واكتب ما نظمت في موقف كل مرحلة من مراحل السفر. فما اتى المساء حتى كانت القصيدة تامة).

والى القارىء مطلع القصيدة:

تحت شمس نظرتها الساطعة
وامام ربيع انفاسها العطرة
تذوب ـ بعد طول جمودها في مغاور الشتاء ـ ثلوج الكهولة الموحشة المتوحدة

حين بلغ غوته داره اعاد كتابة القصيدة بيده مع التأنق في الخط وتجويده على صفحة من الكاغد الابيض المصقول، ثم اودعها بين دفتي اضبارة من الجلد الفاخر.

قد تكون هذه الصفحة هي الخاتمة في كتاب غرامه الكثير الصفحات، ولم تنقض بعدها عشرة سنوات، حتى انطوى كتاب حياته بعد عمر مديد سعيد بالآثار الخالدات من شعر وادب وحكمة وعلم.

قبل ان ننهي ذكر غراميات غوته، جدير بنا ان ننوه الى انه كان على علاقة غرامية مع والدة الفيلسوف شوبنهور. فهذه الام بلغت في الواقع اوج الشهرة في عالم القصص والروايات، وغدت احدى مشاهير كتاب القصة في ذلك الوقت. لكن لم تكن سعيدة في حياتها مع زوجها الذي لم تساعده ثقافته على الامتزاج معها. وعندما توفي زوجها انطلقت كالطائر الذي كان في قفصه سجيناً تبحث عن الحب المتحرر بعد ان تحررت من قيود هذه الحياة الزوجية. وارتحلت الى مدينة اخرى حتى تنسجم مع هذه الحياة المنطلقة التي كانت تتوق لها. وقد ثارت ثورة شوبنهور على هذا (التحرر) من امه، واثر النزاع بينهما على نفسيته واثار مقته الشديد للنساء، الذي رافقه طيلة حياته.

وقد عاشت امه بعد ذلك اربعة وعشرين عاماً لم يرها مطلقاً.

● ● ●

يمكننا القول ان غراميات غوته كانت معيناً خصباً في رسم شخصيات ابطال قصصه التي كتبها في مرحلة ساد الهدوء بها اوربا بعد حروب نابليون، وبعد ان اصبحت البطولة بلا عمل.

ففي فرنسا عاد الملكيون الفرنسيون من المنفى حاملين معهم اسرافهم في التدين واسرافهم في الحرص على التقاليد، بحيث استفاق الشباب الاوربي فألفى نفسه يحيا في شبه حمى، وفي شبه استنكار وتبرم واشمئزاز من كل شيء. فقد كانت ريح البطولة المنبعثة من نابليون تطوح بالشباب، فاختفت البطولة واستولى على نفوس الشباب ضرب من الاضطراب الغامض المبهم.

وقد اصطنع الشباب اليأس وبالغوا فيه فأصبح جزءاً من طبيعتهم. كما فقدوا الايمان بفضيلة العمل، وفقدوا الايمان بالعالم الآخر، أو خيل لهم انهم فقدوه، فلم يعد لهم من عزاء في غير الشعر والحب.. وهكذا نشأ الحب الرومانسي الذي عاش به غوته.

وهو الحب المفتعل المقرون بالعبارات الادبية المستظهرة من الكتب..

الحب الفصيح الثائر المريض الذي يتبرم بالحاضر فيفر الى الماضي..

الحب الذي لا بد له من اطار وهمي ليعيش.. لا بد له من ضوء القمر وجمال البحيرات واصوات البلابل وهبوب العواصف ورنين اجراس المساء.

الحب الذي لا يجد في نفسه كفايته، بل يتطلع الى المظاهر الخارجية ليبحث عن عاطفة قوية غريبة عنه.

ساد هذا الحب الموهوم، وظهر عشاق خلدوه.. عشاق كانت لا تطيب لهم الحياة، ولا يطيب لهم الحب إلا في اجواء خاصة.

شغفوا بهذا الحب، وشغفوا بهذه المظاهر ليميزوه عن الحب الهادىء العاقل الذي كان شائعاً بين الطبقات الوسطى والذي كان مجرداً من كل ذوق فني.

إن كل مظهر سلوكي سواء اكان سوياً أو شاذاً يعبر عن الشخصية بأكملها سواء اكانت هذه الشخصية متكاملة أو غير متكاملة؟

وفي حالة غوته يكون من التعسف ومن التعميم الاعمى ان يقال ان جميع الامراض النفسية لا بد ان تكون جنسية المنشأ ومتصلة دائماً بحادث جنسي كبتت ذكراه وان هذا الحادث الجنسي يرجع الى سني الطفولة أو المراهقة.

لا شك في ان العامل الجنسي يؤدي دوراً هاماً في تكييف السلوك وتوجيهه، ولكنه ليس العامل الوحيد. فللمرء ميول اخرى غير الميل الجنسي. وقد تتركز الاعراض النفسية في مختلف اعضاء الجسم كالقلب أو المعدة، كما انها قد تتركز في اعضاء التناسل، وتنحصر المشكلة في وجود الميل الجنسي على غيره من الميول. ولكن يمكننا ان نقرر انه ليست هناك ضرورة مطلقة، وكل ما في الامر هو طبيعة التوجيه الاول في التربية وتأثير الظروف الخارجية وفلسفة الحياة التي يتلقاها الانسان في مختلف اطوار حياته منذ الطفولة حتى سن الشيخوخة. وهذه المشكلة جديرة بالفحص الدقيق اذ على حلها تتوقف طريقة العلاج النفساني، لانه اذا لم يكن اساس الشخصية ومحورها الغريزة الجنسية، فانه سيصبح من الخطر حصر اهتمام المعالج والمريض في دائرة واحدة لانه قد ينشأ عن هذا الحصر تفاقم الاعراض بل خلق اعراض جديدة بدلاً من تخفيفها أو ازالتها. فالشخصية سواء اكانت سوية أو مريضة كل لا يتجزأ أو يمكن اصلاحها من نواح متعددة لا من ناحية واحدة.

ومن اهم النقاط في حالة غوته الغرامية هي ما يقال عن حالته النفسية من انها تتبع الاشتراط التقليدي!

فطالما ان ابداعاته الادبية هي نتيجة وصاله مع المرأة فهو قد سلك بذلك منحى هذا الاشتراط:

الاشتــراط التقليدي هو العملية التي يتعلم فيهـا الكـائن الحي ان يستجيب بطريقة معينة لمثير لم يكن قادر على انتاج الاستجابة فيما قبل. ويصبح هذا المثير الذي كان (محايداً) منتجاً للاستجابة بسبب اقترانه (أو ارتباطه) مع مثير آخر من شأنه ان ينتج هذه الاستجابة.

وقد سمي الاشتراط التقليدي ايضاً بالاشتراط المستجيب، ويشير هذا المصطلح الى ان الاستجابة المتعلقة تستخرج لا ارادياً من الفرد اكثر من انها تنتج من الفرد بطريقة ارادية.

لقد كان غوته دائماً يشعر ان في نفسه بذور جميع الجرائم، وكل ما يُخجل منه. وتطوره العظيم، ليس إلا جهداً كبيراً للقضاء على هذه البذور المهددة. فساكن الالمب يهدف الى الانسجام، ورغبته الاولى هي تحطيم التناقض فيلجم شهواته التي تثور في جسده وينتزع جميع الجذور الخطرة التي من شأنها ان تحط من قيمة فنه، احتراماً للعادات الاجتماعية الفاضلة فيهدم هذا الحرمان قسماً كبيراً من قوته.

فالهـوة التي تفصـل بين القسم الاول والقسم الثـاني من مسـرحيته (فاوست) تفصل ايضاً النمط السيكولوجي للخلق الفني عن النمط الرؤوي. في هذا المقام يقلب كل شيء رأساً على عقب: فالمادة أو المعاناة التي تعيد الى مضمون الصياغة الفنية تعد امراً مجهولاً، وأما جوهرها فغريب من نوعه ويتسم بطبيعة غامضة اسرارها، متحدر من اعماق مراحل زمنية سحيقة في القـدم أو هابط من عوالـم النـور والظلمة من طبيعة علوية، وقد تؤلف مادة الموضوع هذا معاناة أولى اصيلة تقف الطبيعة البشرية امامها عاجزة جاهلة. ان قيمة العمل الفني وقوته تكمنان في هول المعاناة، التي تنبثق غريبة تقشعر لها الابدان أو قيّمة رائعة من مجاهل اعماق غير مرتبطة بالزمن. فمن جهة تتجلى مادة المعاناة، كأسطورة معقدة تثير الرعب عن السديم الخالد، ويعبر

عنها بشكل وصفي غريب شيطاني، يفجر اطر القيم الانسانية والاشكال الجمالية.

ومأساة الحب في الجزء الاول من (فاوست) تفسر نفسها بنفسها، بينما يتطلب الجزء الثاني جهداً تفسيرياً. وليس ما يضيفه عالم النفس الى الجزء الاول، ما يعبر عنه الشاعر افضل تعبير، اما القسم الثاني، المسربل بفينومينولوجية هائلة، عملت على استهلاك القوة المبدعة أو حتى تخطتها، بحيث انه لم يعد من شيء يكشف عن لغزه بذاته، انما يتطلب التفسير والشرح كلما غاص القارىء منتقلاً من بيت الى بيت.

إن غوته في حياته وعبر ترجمة ذلك في كتاباته، كان يرى (ارادة القوة) هي المحرك الاساسي لحياة الانسان النفسية وان ما يحفز الانسان الى القيام بالتعويض هو عقدة الشعور بالنقص، مع ان ارادة القوة ليست سوى مظهر من مظاهر الحياة النفسية.

فيكتور هيغو

من اشيع الاسماء الادبية في فرنسا فيكتور هيغو الذي ولد عام ١٨٠٢، وكان سقيماً الى حد جعل ابويه يتوقعان له موتاً باكراً. وكان ابوه الجنرال ليبولولد هيغو وامه صوفي تريبوشي. وكان له اخوان اكبر منه سناً، غير انه لم يلبث ان استعاد عافيته وتمكن في ما بعد من تعويض ما الم به في صغره.

ففي الرابعة عشرة بات هيغو شاعراً غزير الانتاج، اذ كتب مسرحية شعرية وقصائد تكفي لملء ١١ دفتراً. وقد جمع هذا الشاعر بين القدرة على العمل وحدة الذكاء، وكان على علم بالمدى الذي يمكن ان يبلغه فكتب وهو في الخامسة عشرة (اريد ان اكون شاتوبريان أو لا شيء) وكان شاتوبريان ابرز كتاب ذلك العصر واوسمهم شهرة.

لايزال هيغو في نظرنا عظيماً كما كان في نظر معاصريه، وهو الشاعر والمؤلف القصصي والمسرحي والناقد ورجل السياسة.

ولا شك في ان نطاق انتاجه الادبي يبقى مذهلاً، اذ هو يشتمل على ٤٨ مجلداً ترجمت الى ٤٤ لغة وبيع منها عشرات ملايين النسخ في كافة اصقاع الدنيا.

ومهما يكن من امر، فان شهرة هيغو الادبية ازدادت بعد وفاته. وقد قال الشاعر الفيلسوف بول فاليري: (ان الشمول الذي يتسم به ادب هيغو ليس له نظير) ورأى جان بول سارتر ان هذا الكاتب كان (سيد عصره غير المنازع)، ويؤكد الشاعر فيليب سوبو اليوم ان دفاع هيغو عن المضطهدين (اتاح لعذابهم

ان يكون له صدى). وهكذا نرى ان هيغو كان سيد الساحة الادبية.

ـ اسس هيغو واخواه ابيل واوجين صحيفة دعوها (لوكونسرفاتور ليتيرير) في الوقت الذي كان به شاتوبريان يصدر صحيفة تدعى (لوكونسرفاتور). وفي غضون ستة اشهر نشر هيغو الشاب ١١٢ مقالة و٢٢ قصيدة بأسماء مستعارة بلغ عددها ١١ اسماً، حتى انه كاد يكون الكاتب الوحيد في الصحيفة. واللافت ان نضجه وسعة اطلاعه المذهلين كانا يطبعان الموضوعات المختلفة التي يعالجها ومن بينها السياسة والادب الاجنبي والنقد المسرحي.

وقد كتب الشاعر الفريد دو فيني بعدما قرأ رواية (هان الايسلندي) لهيغو (وهو لم يزل في الحادية والعشرين) يقول (هذا عمل جميل وعظيم وخالد) وتعاقبت روائع هيغو فكتب رواية (بوغ - جارغال) وهو في الرابعة والعشرين، ثم كتب بعد سنة مسرحيته الشعرية (كرومويل)، واتبع هذه المسرحية بقصائده (الشرقيات) ومسرحيته الشعرية (ماريون ديلورم) وروايته (اليوم الاخير لمحكوم بالاعدام)، وقد كتبها جميعاً عندما كان في السابعة والعشرين. وفي الثامنة والعشرين كتب هيغو قصة (احدب نوتردام) في فترة لا تتجاوز الستة اشهر بعدما صرف ثلاث سنوات في دراسة وضع مدينة باريس خلال القرون الوسطى. وقد خبأ هيغو في تلك الفترة ثيابه جميعاً ولم يحتفظ إلا بعباءة تصل الى كاحليه، كي يرغم نفسه على اكمال ملحمته هذه. وكتب الشاعر الفونس لامارتين بعدما قرأ مغامرات اسميرالدا الحسناء وكازيمودو الاحدب: (هذا هو شكسبير في قالب قصصي، وهذه هي ملحمة القرون الوسطى). وبعد ثلاثين عاماً بذل هيغو جهداً مماثلاً في كتابة رواية (البؤساء) التي ثار فيها على الظلم من خلال تصوير مصائب جان فالجان وفانتين وابنتها كوزيت. وفي هذه الاثناء انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية ومنحه الملك لويس فيليب لقب فيكونت ولقب نبيل فرنسا وانتخب نائباً في الجمعية الوطنية.

وبلغت شهرته حداً جعلت زائري فرنسا من رؤساء الدول يطلبون لقاءه

ويعتذرون لاعاقته عن العمل، وراجت كتبه رواجاً كبيراً حتى ان كثيراً من طبعاتها كان ينفد في ساعات قليلة، مما يدل على محبة القراء له وشغفهم لمطالعة ادبه.

لو استعرضنا حياة هيغو بالكامل لرأينا انه كان طوال حياته مخلصاً جداً، يتحلى بالعفوية ويملك احساساً بالعدل، فلم يتمكن من الخوض في السياسة. وعندما دخل الجمعية الوطنية عام ١٨٤٨ كان في عداد المحافظين. وحين شهدت باريس حوادث دامية في العام نفسه اعلن هيغو موقفه قائلاً: (اني اناصر الضعيف لا القوي واؤيد النظام لا الفوضى). فأخاف موقفه هذا المحافظين واليسار في آن. وحين اخمد الجنرال باتيست كافينيال الثورة بوحشية، دافع هيغو عن المعتقلين السياسيين وناهض انتهاك حرية الصحافة. وفي الاشهر التالية قدم احتجاجاً شديداً في حال الفقر التي شاهد مظاهرها شخصياً في بعض احياء باريس وليل. وعندما كانت الحكومة تستعد لوضع قيود على حقوق الاقتراع دعا هيغو الى تعميم هذه الحقوق، كما دعا الى الغاء القانون الخاص بترحيل الاجانب والغاء عقوبة الاعدام.

الملاحظة الجديرة بالانتباه هي ان هيغو بات من ابرز الداعين الى النظام الجمهوري بعدما كان من غلاة المتحمسين للنظام الملكي. وبعد انقلاب لويس نابليون في كانون الاول ١٨٥١ هرب هيغو من باريس خوفاً من اعتقاله وربما اعدامه رمياً بالرصاص. وكان هذا بداية لتسع عشرة سنة قضاها في المنفى ثمناً لقناعاته. غير ان حياة المنفى في بلجيكا اولاً ثم في جزيرة جرزي واخيراً في غيرنسي لم تفلح في حمله على الصمت، فتابع ثورته على كل مظاهر كبح الحرية وانتهاك حقوق الانسان.

والواقع ان كتاباته في هذا الشأن اعطته مكانة وطنية وسياسية عالية وبات تدريجاً ضمير جميع دعاة التقدم.

عاد هيغو الى وطنه في يوم ٥ ايلول ١٨٧٠، أي في اليوم الذي تلا اعلان الجمهورية الثالثة، وقد بلغ من المجد مبلغاً عظيماً. فبعدما كان غادر

فرنسا خشية القبض عليه بات يعرف ان الوفاً من الرجال والنساء كانوا ينتظرون عودته.

لم تبتعد الاحزان عن حياة هيغو. فقد مات ابنه الاول وهو طفل، وغرقت ابنته وهي في التاسعة عشرة. وتوفيت زوجته آديل عام ١٨٦٨ ثم تبعها حفيده جورج. وما لبث ان فجع بابنيه شارل وفرنسوا فيكتور اللذين توفيا في فترة لا تزيد على بضعة اشهر. اما ابنته آديل التي بقيت وحدها حية بين اولاده الخمسة فكانت شبه مجنونة.

وكتب هيغو بعد موت شارل (لو لم اكن اؤمن بالروح لما عشت دقيقة واحدة بعد الآن). وباتت جوليت وحفيداه جان وجورج الآخر عزاءه في شيخوخته. وكان هذان الحفيدان بجانبه في عيد ميلاده التاسع والسبعين عندما غُيّر اسم جادة ايلو وغدت جادة فيكتور هيغو. وفي هذه المناسبة عزفت فرقة موسيقية نشيد المارسييز تحت نافذة الشاعر. وجاء لتهنئته رئيس الوزراء جول فيرى ووفود من مدن فرنسا الرئيسة ومشى امام منزله موكب ضم اكثر من نصف مليون نسمة.

اني ارى نوراً اسود.. آخر كلمات نطق بها فيكتور هيغو قبل ان يموت في ٢١ ايار ١٨٨٥ بين حفيديه.

● ● ●

اشتهر هيغو بعلاقته مع النساء منذ كان صغيراً. فحين كان فتى في المدرسة، كان اصغر الطلاب على الاطلاق، وكانت تتولى العناية به ابنة مدير المدرسة. واقدم ذكريات هيغو عن ذلك العهد انه ادخل ذات صباح الى غرفة نومها ووُضع على سريرها حيث كان في ميسوره ان يراها تلبس جواربها وملابسها. وليس في امكان المرء ان يحزر أي اثر عميق تركته امثال هذه الحادثات في نفس هيغو السريعة التأثر.

اما مغازلته العفيفة لاديل فوشيه، الشابة البهية الطلعة في ما بين ١٨١٩ وعام ١٨٢٢ وفي السنوات الاولى من زواجه، فلم تكن غير دلائل بما سيكون

عليه سلوكه فيما بعد. ولكن هذه المغازلة اثارت امه، وكان يحبها حباً اقرب الى العبادة، كما اوغرت عليه صدر والد آديل. وتصرمت الايام فاذا بغرائزه الطبيعية تلتمس الاشباع، واذا به يثور على (عزوبيته). وفي تلك السنة نفسها كتب الى آديل رسائل مضطرمة عبر فيها عن مبلغ فروغ صبر الخاطب الشاب وشوقه الى الزواج من الفتاة التي اختارها عروساً لاحلامه. ويعد هذا الكلام من اجمل ما كتبه رجل لامرأة جاء فيه:

انت التي امسكت بيدي عندما مشيت في الظل
وكانت عيناك تحملان الي اشعة الفردوس

كانت آديل اميل الى الطول، مهزولة، ذات رأس مستدير وشعر داكن جداً، وجبين جميل قمري الشكل وعينين سوداوين جميلتين. كان انفها اقنى ناعماً، كانت شفتاها حمراوين نضرتين دافئتين، وكانت بشرتها زيتونية داكنة. ولم يستطع هيغو الزواج من هذه الفتاة الفاتنة إلا بعد ان ماتت عدوتها الاولى، والدة الشاعر، وهكذا زفت اليه في ١٢ تشرين الاول عام ١٨٢٢.

وطوال ثماني سنوات عاش هيغو عيشاً سعيداً، منجباً اطفالاً، ومنصرفاً الى تدعيم مكانته ككاتب.

وما لبثت متاعب الحياة ان تطفلت على جنة هيغو. لقد تعاظم انهماكه شيئاً بعد شيء في العمل للمسرح. وفي تموز عام ١٨٣٠ ولدت ابنة فيكتور هيغو الثانية. وتبع ذلك اشهر طويلة اصيبت زوجته خلالها بالاجهاد وبشبه عجز مقعد فاضطر الى الانفصال عنها انفصالاً جسدياً واصبحا يقيمان في غرفتين مستقلتين.

كان هيغو قد بدأ يدرك عدم التكافؤ الفكري القائم بينه وبين زوجته. وكانت تلك السنة سنة نصر ادبي.

لقد قدرت آديل نجاحاته المادية ولكنها لم تفهم انتاجه إلا قليلاً.

وزاد الطين بلة، حين انصرف هيغو عن زوجته عاطفياً وجسدياً، ان كثرت الاقاويل عن غرامياته.

وهذا ـ ربما ـ جعل زوجته آديل تقدم على خيانة هيغو مع اعز صديق له هو الكاتب شارل سانت بوف.

حتى انه عرف ذلك من سانت بوف ذاته، الذي هو من البشاعة بمكان.

وقد جرح كبرياء هيغو ان تميل زوجته الى سانت بوف دونه.

لقد وضع ليون دوديه، وهو كاتب معروف وحفيد لفيكتور هيغو، كتاباً عن هذه المرحلة والمراحل التالية من حياة فيكتور هيغو، وقد بني هذا الكتاب على مجموعة من رسائل هيغو وسانت بوف، وعلى الرسائل الغرامية التي بعثت بها زوجة فيكتور هيغو الى سانت بوف.

والكتاب يكشف عن التناقضات في طبيعة هيغو الذي كان ـ برغم ملله من زوجته وعشقه لغيرها ـ يحاول التودد الى زوجته لابعادها عن سانت بوف.

وقد استطاع هيغو بعد نزاع صارخ نشأ بينه وبين سانت بوف ان يقنع زوجته بقطع علاقتها مع صديقه الخائن.

● ● ●

صحيح ان هيغو في حاجة الى زوجته وكان يحب اولاده حباً جماً، وان آديل فوشيه، زوجته، كانت المعلم الرئيسي في حياته، بيد ان مغامرته الرومانسية الاخرى هي حين التقى بجولييت دروويه، المعلم الرئيسي الثاني.

كان لقائهما في مكتب من مكاتب المسرح، بينما كان ينتظر ليشارك في الاختيار الاخير لممثلي احدى رواياته، وقد تذكر فيما بعد انه كان قد التقاها قبل ذلك في احد المراقص. وبعد ستة اسابيع اصبحت معشوقته.

ويصف هيغو جولييت بانها (شاحبة ذات عينين سوداوين وهي طويلة القامة رائعة معجبة بنفسها) وقد نظم لها قصائد لا تقل جمالاً عن تلك التي نظمها لزوجته من قبل، وبقيت جولييت خليلته طوال حياته.

ـ لقد دامت هذه الصلة صافية لا يكاد يعكرها شيء، طوال خمسين

سنة، ولم تنقطع في الواقع إلا بوفاة جولييت عام ١٨٨٣. وكانت الرسائل التي تبادلاها مضطرمة تعبر عن عميق ابتهاجهما بالعلاقة القائمة بينهما. والحق ان جولييت اقسمت ان تقيم على الوفاء له، ولقد وفت بعهدها هذا طوال حياتها.

ولكن ما الذي حل بآديل؟

انها تمثل في هذه الفترة رمز الزوجة الصابرة.

ولقد حدثها فيكتور نفسه عن علاقته بجولييت، فغفرت له!

كما جاء في بعض المصادر انهما كانا يسفحان الدمع معاً!

كانت آديل قد قررت انه يتحتم عليه، بحكم عبقريته، ان تظل له حرية الاعجاب بالنساء الاخريات.

وظلت آديل (ملكة بيت) هيغو، تتصدر المائدة، وتعني بالاولاد، وظلت جولييت (ملكة حبه).

ولا تحسبن ان مغامرات فيكتور هيغو الرومانسية قد انتهت بعد ان علقت حباله بحبال جولييت دروويه.. لا!!

صحيح ان جولييت كانت هي الشمس في نظام حياته العاطفية الشمسي، ولكن هيغو كانت له الى جانب ذلك كواكبه الصغرى السابحة في سمائه.. ذلك ان جمال جولييت اخذ يذوي، فراح هيغو يلتمس الحب عند غيرها، واخذتها الغيرة وحاولت ان تقصيه عن فاتناته الجدد.

● ● ●

إن مغامرات فيكتور هيغو الثانوية كانت مع نساء مختلفات.

ففي حين كانت علاقته الغرامية مع جولييت حديثة ولم يمض عليها سوى بضعة اشهر حتى ضبط بالجرم المشهود مع صحافية شابة هي السيدة ليوني بيار، زوجة احد رسامي الوجوه الفرنسيين. فقد كان الكاتب الشهير عرضة للاعجاب بكل من يجتمع بهن من نساء. وفي تلك الفترة كان شديد القلق بسبب وفاة ابنته الثانية، وكان يحبها حباً عظيماً.

وقـد صدرت الصحف ذات يوم من تمـوز عام ١٨٤٥ تحمـل نبـأ الفضيحـة، فقـالت احدى الصحف، وهي صحيفة ناسيونال ما يلي: (ان شخصية شهيرة اجتمع لها غار البارناس ومجد العضوية في مجلس الشيوخ قد قبض عليها وهي على اتصال مريب بزوجة احد الفنانين).

ويقول جوزيفون: (وتذهب الاسطورة الى ان احدى الارائك قد لعبت دوراً هاماً في المسألة، اذ كان احد ضباط البوليس منكمشاً تحتها بدعوة من الزوج الثائر).

ويروي دوديه كيف استولى الدهش على ضابط البوليس عندما سمع هيغـو يقول في تشامخ: (انا الفيكونت هيغو، احد اعضاء مجلس الاعيان الفـرنسي. وهكـذا فان لي حصـانـة تجعلني غير مسؤول إلا امـام ذلـك المجلس). كانت السيدة شبه عارية، وكان هيغو في غلالة النوم.

وتلقت آديل المسألة كلها في هدوء، بل لقد تلقتها في حبور لانها رأت الى الغيرة التي عصفت بجولييت بسبب هذه الفضيحة.

ويحدثنا حفيد فيكتور هيغو - دوديه - عن عدة مغامرات ثانوية قام بها جده مع نساء مختلفات، وكيف كانت نزواته الجنسية النهمة تقوده الى قضاء نهاية الأسبوع في إحدى المدن الصغيرة حيث كان في ميسوره أن يرى النسوة الشابات يفركن أرضية البيوت.

وفي احدى المرات وقع في حب امرأة تدعى ماري كانت زوجة لاحد الجـزارين، وقـد انجذبت اليه كلياً. وحدث ذلك فيما كان يتم كتابة قسم صعب من (البؤساء) وهي الرواية الرائعة التي تصف الظلم الاجتماعي في فرنسا آنذاك.

وذات مرة، رأى هيغو، في احدى الامسيات، فتاة يضربها رجل وقد انفجرت بالبكاء لان الشرطي كاد ان يصدق دعوى الرجل القائلة بان الفتاة كانت تحـاول اغوائه، فما كان من هيغو إلا ان تقدم وانقذها من ورطتها. ودعته الفتاة، واسمها فاني فانتين الى بيتها حيث قضى السهرة، ولكنه اقسم

انه لن يعود لزيارتها حتى لا يقع في حبها!

لم يكن لتقدم هيغو في السن أي اثر في اخماد حماسته للمغامرات العاطفية، ففي سني حياته الاخيرة استمر يدون اخبار (ايامه السعيدة) على دفتر مستقل مستخدماً اللغة الاسبانية كي لا يروع جولييت اذا اتفق ان عثرت يوماً على دفتر ذكرياته.

● ● ●

هذه اهم ملامح غراميات فيكتور هيغو، نرى فيها تعدد الوجوه، وتناقض العلاقة؟

فاذا كانت عبقرية هيغو الادبية امراً مسلماً به، والعالم كله يعرفه كأديب فرنسي كبير، وكمؤلف لرواية (البؤساء) و (احدب نوتردام) وغيرهما من الروائع الكلاسيكية الكثيرة، وعبقريته تبرز في شخصيته وفي كتاباته، بيد ان الرجل نفسه كان مليئاً بالتناقضات، حتى كتب هنري غيمان الاستاذ السابق للادب في جامعة بوردو: (فيكتور هيغو؟ أي واحد نعني؟).

كذلك فهو يبدو في بعض اللوحات رجلاً انيقاً جداً وفي بعضها الآخر رجلاً مهمل الزي مشعث الشعر.

كما تظهر مواقف هيغو المتناقضة ازاء المال التعقيد المسيطر على شخصيته القلقة. فهو بات غنياً منذ بلوغه الثلاثين، لكنه كان يلح على آديل كي تسجل جميع النفقات المنزلية ويعمد يومياً الى النظر في حساباتها.

ومرة طلب من جولييت التي كانت تقضي وقتها في نسخ مخطوطاته، ان تقدم اليه مسوغاً لشرائها علبة تحوي مسحوقاً للاسنان، واستبد به الغضب عندما رآها يوماً ترتدي ميزراً جديداً لم يكن في الاصل سوف شال عتيق.

ومع ذلك، اشتهر هيغو ايضاً بكونه من اكرم بني عصره. فهو كان يقدم الى جيرانه المعوزين كسوة لاطفالهم وفحماً ولحماً. وكان يدعو كل اسبوع نحو اربعين طفلاً فقيراً الى تناول العشاء في منزله.

لذلك من الانصاف ان نقول في بخل هيغو ما كتبه هو نفسه في الملك لويس فيليب: (لقد قيل انه بخيل ولكن لا بيّنة على ذلك). إن الخصال والاوصاف والنعوت التي ذكرناها، ربما تكون معروفة جيداً لدى عشاق ومريدي هذا الكاتب العظيم.

ولكن كثيرين لا يعرفون ان هيغو كان منذ زمن بعيد موضوع اهتمام علماء النفس على اختلافهم.

فمن ناحية، كان هيغو من اعظم الشعراء الذين مجدوا المثل العليا للحب الروحي، فيما كان من الجانب الآخر رجلاً يعصف به نهم جنسي صارخ، فهو يخون زوجته، خيانة صريحة، مع الممثلات والعاملات في المحال التجارية والخادمات، ومع كل امرأة تأخذ بمجامع فؤاده.

إن هيغو لهو من ذلك الضرب من الناس الذين يؤمنون خطيباتهم، في صدر الشباب، لانهن يرفعن تنانيرهن الى اعلى مما ينبغي خشية ان يوسخها السير في الشارع. فقد كتب الى خطيبته ذات مرة رسالة قال فيها: (يبدو لي ان الحياء شيء اثمن من الملابس).

وكان كذلك من ذلك الضرب من الناس الذين يقومون بمغامرات عاطفية مع زوجات الآخرين.

وفي احدى رسائله الاولى الى خطيبته قارن هيغو ما بين الحب (الطاهر) الذي يستشعره وبين ما يعتقده معظم الرجال من ان الحب (ليس إلا شهوة جسدية لا يتغلب عليها المرء إلا باشباعها).

ويصف هافلوك آليس فيكتور هيغو الطفل بقوله انه كان سوداوي المزاج، وانه كثيراً ما كان ينتحب في بعض الزوايا لغير سبب مخصوص.

● ● ●

التناقضات التي جمعها هيغو في نفسه، ليست هي بالتناقض اكثر مما هي ملح الحياة لفنان يعيش النفس البشرية، بكافة ألوانها، حتى تكون ريشته مبدعة في رسم لوحتها.

واذا كان اصحاب السيكولوجية المرضية يدعون ان قوانين الحالات المرضية هي بعينها قوانين الحالات الصحيحة منذ ان قال بهذا المبدأ بروسيه (١٨٢٨) ويقيمون ذلك المبدأ على ان الاضطرابات المرضية، حتى في اكثر اشكالها تطرفاً ليست سوى اسراف أو نقص أو انحراف للوظائف السوية للنفس مع ان ذلك المبدأ الذي تقول به السيكولوجية المرضية ـ وليس من شك ان لها فضلاً كبيراً على تقدم علوم النفس ـ إلا انه لا يمكن التسليم به دون نقاش.

ذلك لانه من العجيب ان تؤخذ قوانين المرض قوانين للصحة. فاذا ثبت صحة قوانين المرض عن طريق الملاحظة والتجريب كان لا بد من قبل ان نكون قد كونا فكرة عن معنى الصحة والاستواء حتى نفرق بينها وبين حالات المرض والشذوذ، غير ان الامر لم يعتمد في الواقع إلا على المعرفة التي قامت على الفهم العام وعلى متعارف الاوضاع المألوفة، مع انه ينبغي ان ندرس الانسان السوي قبل ان نحكم على غيره بالشذوذ. بل لقد قال بلوندل ـ غير ذلك ـ ان هناك فرقاً اساسياً بين النفس السوية والنفس الشاذة، ولم ير في ذلك نفياً لمبدأ التواصل بين السوي والشاذ.

وإذا ما سلمنا بحجة اصحاب السيكولوجية المرضية، لم نجد في ادلر أو اتباعه في دراستهم لحالات الشذوذ، ما ينبغي ان يتبعه العلم من تفسير للكيف على ضوء الكم، ومن اقامة الرأي على الاستقصاء والاحصاء، بل نلقى انهم انفسهم قد اعترفوا ان الاحصاء حتى من الناحية العلاجية قد استعصى عليهم، فلم يستطيعوا ان يؤيدوا رأيهم، بتعداد للحالات التي انطبق عليها ونجح علاجهم فيها، ذلك لان مرضاهم كانوا يولون الفرار قبل ان يتم شفاؤهم تماماً ـ فكأن ليس هناك ما يؤيد مذهبهم تأييداً يعتمد على ما يقول به اصول المنهج العلمي. وكأن ليس لهم ما يستطيعون ان يردوا به على ما اخذوه هم انفسهم على المدرسة التحليلية، من قبل، ومن وقوعها في الخطأ تبعاً للتعميم السريع، اذا واجهناهم نحن بارتكاب عين الخطأ.

بل انا لو سمعنا بنجاح مذهب ادلر في العلاج وبان ذلك النجاح دليل على صحة ما قال به، لم نجد نقداً يوجه الى هذه الحجة خيراً من نفي بلوندل للقول بصحة التحليل النفسي لانه ادى الى شفاء المرضى الذين عولجوا به، قال: (انني أومن مطلقاً بهذا البرهان، فقد وفقت كما وفق زملائي جميعاً الى القيام ببعض المعجزات التي تؤيد رأيي. فقد اعدت النطق الى الاكمه، والسمع الى الاصم، والبصر الى الضرير، والحركة الى الاشل. غير انني اذا كنت قد استطعت ان اعالج الاعراض، فانني موقن انني لم اغير بذلك البتة في الحالة العقلية الكامنة لكل منهم. لانني انكر امكان تحويل الخصائص الخلقية انكاري لتحويل المعادن بعضها الى بعض) ذلك لان من خصائص الامراض النفسية ان تختفي اعراضها بينما يبقى اساس المرض ثابتاً مخبوءاً في النفس.

ولقد اقيمت سيكولوجية شاملة تقرر ان الناس جميعاً لا سوي فيهم، اذ كل منا، كما يكرر شاذ الى حد ما وليس من جدوى سيكولوجيتهم ـ كما يقال ـ إلا ان تخفف قليلاً أو كثيراً من هذا الشذوذ، ذلك لان احداً لا يستطيع ان يصل الى المثل الذي ينبغي ان يكون عليه الانسان.

ولكي اتجنب اساءة فهم فيكتور هيغو فيما اعنيه، يجب ان ابين حماقة الفكرة القائلة بانه من الممكن لاي واحد، مهما تكن تجاربه الشخصية في الغرام قليلة، ان يقدم مقترحات مفيدة لتفاصيل الغرام. اذ لا يمكن الاستغناء مطلقاً عن الخبرة الدقيقة الكاملة. كما ان كلمة (الغرام أو الغراميات) تعني هنا معنى موسعاً يضم مدى كبيراً من مخلتف النشاطات. وأية نظرية مفيدة، يمكن تطبيقها على حالات معينة، يجب ان تستند الى معرفة مباشرة بردود الفعل الخاصة بتلك الحالات، والتي يبديها الرجال والنساء.

فرانز كافكا

فرانز كافكا (١٨٨١ - ١٩٢٤) روائي وكاتب قصص قصيرة، نمساوي. ولد في براغ لعائلة يهودية غنية، حصل على الدرجة في القانون عام ١٩٠٦، وفي حياته لم تنشر له إلا بعض القصص القصيرة، وبفضل صديقه ماكس برود نشرت اعماله الادبية بعد وفاته.

من اعماله (المسخ) و (القضية) و (القلعة) و (سور الصين) وفيها يلمس القارىء مدى الاجواء الكابوسية الكئيبة التي رسمها المؤلف لابطال قصصه مما يلقي اضواء حقيقية على شخصية كافكا، الغريب الاطوار والمتقلب المزاج، الذي صنف حيناً برجوازياً صغيراً مترديا في تشاؤمية ناخرة كالسوس وصنف احياناً اخرى رجل الثورة والرفض ان لم يكن رجل الاشتراكية العتيد.

وفي السبعينات ازيح الستار عن الرسائل التي كتبها الى فتاة كان قد خطبها اسمها فيليس بوير وتوفيت عام ١٩٦٠ وتقول هذه الرسائل بمعنى ما ان رجل التشاؤم والتوتر هذا، الباحث عن الخلاص لم يكن إلا خبيثاً صغيراً ومنافقاً من الدرجة الاولى وكذاباً حتى في مذكراته الخاصة. هذا الذي كان يقول: (السعادة هي في محبة الكائنات البشرية) و(لا اجد مخرجاً من هذه الحياة الرهيبة سوى الجنون) تسلى طوال خمس سنوات بكتابة رسائل منمقة ومدروسة يمكن ادراجها تحت عنوان (كيف تتعلم فن التعذيب واستعباد الكائن الانساني بصورة منهجية، بقلم فرانز كافكا).

وتبدأ القصة يوم الجمعة ٢٩ تموز عام ١٩١٢ حين التقى فرانز كافكا وهو في طريقه الى (فيحار) برفقة صديقه ماكس برود، بناشر شاب اسمه ارنست روهولت. كان كافكا في التاسعة والعشرين من عمره وكان قد بدأ الكتابة منذ ثلاث أو أربع سنوات دون ان ينشر حرفاً واحداً. وقد طلب منه روهولت بالحاح ان يرسل له حوالي ٥٠ صفحة من كتاباته للاطلاع عليها والاتفاق من ثم على نشرها. وعلى عكس ما يعتقد بعض النقاد المعاصرين فان كافكا كان حريصاً جداً على نشر نتاجه وعلى انتقاء ما سينشره بعناية، وقد صادفته صعوبة كبيرة في اختيار الصفحات التي ستكون اول كتبه المنشودة، وظل يؤجل هذا الامر يوماً بعد آخر الى ان قرر الاستعانة بصديقه ماكس برود كي ينتقيا معاً النصوص المناسبة، ومساء آب ـ كما تقول المذكرات ـ ذهب كافكا لزيارة (برود الذي كان يسكن مع اهله في ضواحي براغ). ووصل متأخراً حوالي الساعة عن الموعد الذي حدده لصديقه. كان الجميع قد جلسوا الى المائدة لتناول العشاء، ووقع نظر كافكا فوراً على فيليس فاعتقد انها خادمة جديدة في منزل آل برود الذي كان يزوره بمعدل ٣ الى ٤ مرات يومياً، وقد صافحها وجلس الى المائدة. وكعادته دائماً في منزل صديقه برود كان كافكا يتصرف بمرح وحيوية ولم يكن وجود هذه المرأة يعني شيئاً بالنسبة اليه، ولم يشعر تجاهها بأي فضول. وقد وصفها في مذكراته التي كتبها بعد ذلك باسبوع (وجه بارز العظام وغير معبر، وخلوه من التعبير واضح جداً وصريح. انف شبه مكسور. شعر اشقر يشع قليلاً ولا سحر فيه. فك قوي وعريض).

لم تكن تلك المرأة ذات الوجه الخالي من التعبير سوى فيليس بوير، وكانت تقوم بزيارة آل برود الذين تمت اليهم بصلة القربى. كان عمرها ٢٥ عاماً وكانت عزباء تعمل في برلين وهي امرأة صلبة وذات ذكاء عملي.

اما فرانز كافكا فقد كان رجلاً صلباً ايضاً وكل اعتباراته الظاهرية تحتاج الى اعادة تمحيص، وعلى الرغم من الفكرة الخاطئة لدى معظم الناس بان

كافكا كان انساناً متوحداً وحزيناً وسوداوياً، فان الرجل كان في الحقيقة مرحاً وشديد الحيوية، وكانت له نظرة نافذة وضحكة خبيثة. وتدل رسائله الى فيليس انه كان سريع البديهة، ماهر في فن الحذلقة وايجاد المبررات والاسباب، صريحاً وخبيثاً في وقت واحد. كان طويل القامة، اسود العينين، ذا وجه معبر جداً ونظرات حادة. واذناه البارزتان الى امام كانتا توحيان بانه اصغر سناً مما هو عليه. وبالاجمال كان فتى وسيماً وكان هو يعلم بهذا الامر.

جاء في هذه الرسائل الفاجعة التي كتبها كافكا الكثير من الامور التي كان يعانيها هذا الكاتب. فمن رسالة له تاريخ ١٣ آب يقول:

(إن اوضاعي لا تحتمل لانها تتناقض مع رغباتي وميولي الوحيدة، واعني بذلك الادب: الادب هو كياني واوضاعي ستدمرني وتقضي علي تماماً وهذا ما سيحدث لي عن قريب).

كما كتب ايضاً:

(اني اعاني من شعور رهيب. فكل شيء مهيأ في اعماق نفسي لابداع عمل ادبي عظيم. وبالنسبة لي سيكون مثل هذا النوع من العمل بمثابة خلاص فعلي وانطلاقة جديدة).

لم يكن كافكا بعيداً عما يحتاجه، خصوصاً من اجل ان يكتب. وكان وجه فيليس ماثلاً امامه في تلك الليلة ليتأمله كما يشاء، كانت فيليس مهزومة سلفاً ويبدو انها رضيت بان تكون موضوعاً لقصة جديدة يكتبها رجل يتأمل وجهها اللامبالي، العادي، العديم التعبير. ويقول في نفسه (عظيم. ها هنا انسان لن يفهم ابداً ما اكتبه، والاغلب انه لن يقرأه ابداً. وبالتأكيد فانها لن تفهم ابداً اهمية ان اكتب بالنسبة لحياتي).

ويا لها من راحة نفسية!

امرأة تجعلك لا تشعر بوجودها حتى لو كانت في احضانك؟

ومما استرعى انتباه كافكا انما هو اظافر فيليس الطويلة التي كان يسميها (مخالب) واسنانها خصوصاً. فقد كانت اسنانها كبيرة جداً وناتئة الى

مام، وكانت كلها معطوبة. وعندما كانت فيليس تبتسم أو تتكلم كانت حشوة الاسنان النحاسية فضلاً عن القشرة الذهبية التي غطت معظم اسنانها تظهر واضحة. وكان لون بنفسجي خفيف يكسو الصف الامامي من تلك الاسنان الملتوية. وقد انبهر كافكا بهذه الاسنان. فان امرأة لها كل هذه (القواضم) المعطوبة لا بد ان تكون قد عانت الكثير من الاضراس واوجاعها. ولا بد ان تكون فيليس ايضاً قد اهملت تنظيف اسنانها منذ زمن بعيد وانها تلتهم السكاكر والحلويات التهاماً. كما لا شك في كونها مغرمة بأكل اللحوم لانها، من بين كل الاطعمة، تعلق بين الاسنان وتفسدها.

والمعروف عن كافكا انه كان مهووساً بالنظافة الى درجة امتنع معها عن تناول اللحوم كي لا تفسد اسنانه. فقرر خوض مغامرة مع (فيليس) من اجل هذا التناقض بالذات. ويبدو انه نظر الى فيليس وقال في نفسه: (طالما ان اسنانك كبيرة بهذا الشكل فاني سألتهمك).

من هنا بدأ كافكا مناوراته التي انتهت بعد ٤٧ شهراً بالنوم مع صاحبة الاسنان البارزة.

ولم يكن سلاح كافكا في الهجوم سوى الكتابة، فهو ماهر فيها. وطوال ٢٤ اسبوعاً كان يكتب الى فيليس بمعدل ٣ رسائل يومياً. ولا يمكن تفسير هذه الطراوة في (الحرب) إلا بسببين:

السبب الاول، ان فيليس كانت تعيش وتعمل في برلين بينما كان كافكا يقطن في براغ مما افسح له مجال تسلية اطول وامتع، وترك مسافة نفسية بينه وبينها. فهو يريد ان يكون بعيداً عنها تماماً وقلمه وحده هو الذي يناورها.

والسبب الثاني، هو ان فيليس كانت بشعة باجماع الآراء بحيث انه كان يستطيع ان يتخذ دور العاشق دون ان يبدو متورطاً، بل مجرد انسان يمارس اللهو. اضف الى ذلك ان فيليس (بوجهها الخالي من التعبير وشخصيتها الفارغة) كانت تجعله يشعر بانه يستطيع ان يكون معها وان يظل

وحيداً في الوقت نفسه، أو بتعبير بودلير: كان يستطيع ان يدخل فيها دون ان يخرج من ذاته.

لم يختر فرانز كافكا السلاح فقط بل حدد مواعيد استخدامه. فدرس بعناية فائقة مواعيد ترحيل البريد من مدينة براغ ومواعيد توزيعه في برلين. ووضع جدولاً زمنياً حدد فيه الاوقات التي تكون فيليس خلالها في منزلها، كذلك الاوقات التي تكون فيها في مكتبها حيث تعمل. وهكذا استطاع ان يكون على علم مسبق بظروف تسلمها البريد والاشخاص الذين يسلمونها اياه: الخادمة أو السكرتيرة أو والدتها.. الخ.

كما نظم كافكا جدولاً بمواعيد تسليم البرقيات والوقت الذي يستغرقه وصولها الى برلين، لان البرقيات كانت تسمح له بان يكون غامضاً وان يدخل في النص كلاماً غير محدد المعنى بالاضافة الى مظهر البرقيات المتلهف والطارىء. وبذلك كانت خطوطه مفتوحة من براغ الى برلين دون ان يتكبد عناء السفر بالقطار لمدة ثلاث ساعات ورؤية خطيبته فيليس ليس بعيداً عنها.

إن رسائل كافكا واسلوبه في الكتابة والطرق التي اتبعها في تعذيب (المسكينة فيليس) - كما كان يناديها - تعتبر تدميراً منهجياً مدروساً. فهذا الرجل الذي لم يكن يدخن ولا يشرب الشاي أو القهوة ولا يتعاطى أية علاجات أو حبوب منومة ولا يستخدم المخدرات والذي كان يأكل كطفل ولا ينام تقريباً.. كان يحتاج الى علاقة مثل هذه لتدريب مخيلته واشباع وساوسه وخلق مهيجات تساعده على الكتابة.

وفيما يخص (المسكينة فيليس)، فان ما نعرفه عن دوافعها، لتحمل مثل هذه العلاقة قليل جداً. ولا بد انها كانت تحب كافكا وتتعلق به. لكن ذلك لم يمنعها من الزواج بعد تركه لها بسنة وثلاثة اشهر.

ففي آذار عام ١٩١٩ تزوجت من رجل ثري وهادىء لا يكتب قصصاً وليست عنده وساوس ولا افكار غريبة. وقد انجبت من هذا الاخير طفلاً ثم فعلت جهدها لتنجب طفلاً آخر وما لبث الجميع ان رحلوا الى الولايات

المتحدة في العام ١٩٣٦. وقبل وفاتها بخمس سنين باعت رسائل كافكا الى ناشر الماني بسعر باهظ وبرهنت على حسها العملي الذي كان كافكا اول من لاحظه عندها. ولا ندري الى أي مدى تعلمت من عشيقها السابق ان تكون خبيثة وصريحة في آن واحد أو الى أي مدى كانت تدرك ان نشر هذه الرسائل سيؤدي لا الى توضيح علاقة كافكا بها فحسب، بل الى اعادة النظر بكل ما كتبه كافكا تحت مجهر جديد اسمه الصدق في الكتابة. فهذا الذي كان يقول ان الابداع الفني نقيض الغربة، امضى حوالي خمس سنوات وهو يكتب رسائل لا تخلو من الابداع الفني ولكن هدفها الوحيد كان (التهام امرأة ذات اسنان كبيرة ووجه خال من التعبير). وهذا الذي كان يتحدث عن الجنون والانتحار وضع جداولاً بمواعيد ترحيل البريد وتسليمه. والذي كتب في يومياته الخاصة ان (الحب الجسدي يطمس الحب الروحي ولكنه لا يستطيع ذلك إلا لانه يحمل الحب الروحي في طياته وبلا وعي منه) اقام علاقة مع امرأة (لن تفهم ابداً ما يكتبه ولن يشعر بوجودها حتى لو كانت في احضانه). وكافكا الذي كتب في يومياته اثر انفصاله عن فيليس: (كنت احب فتاة وكانت تحبني ومع ذلك كان لا بد وان اهجرها مذكراً ايانا بتراجيديات راسين: (بالرغم منه وبالرغم منها)، لم يكن يكلف نفسه عناء السفر بالقطار لمدة ثلاث ساعات لرؤية حبيبته (المسكينة).

ومما يثير النقاش في رسائل كافكا الى فيليس ويتطلب اعادة النظر في التحليلات التي دارت حول شخصيته وادبه هو ما تكشفه هذه الرسائل من عقم التحليلات المبنية على اساس نظري.

وقبل نشر هذه الرسائل بين كافكا وفيليس كتب روجيه جارودي كتابه (واقعية بلا ضفاف) وفيه يصف كافكا عكس ما كشفت عنه هذه الرسائل من نفسيته. فجارودي مثلاً، يحلل بكل الجدية اللازمة انفصال كافكا عن فيليس استناداً الى يوميات كافكا فيقول: (والواقع ان وطأة العالم وارتباط الانسان بسلطته وبواجباته وبكل ما يؤهله في الحياة الاجتماعية وفي قيمها المقدسة

هو الذي ادى الى انفصال (تيتوس) عن (برينس) - شخصيتان من مسرحية راسين - اما ما يفصل بين كافكا وخطيبته فيليس فهو احساسه بانه يطفو في فراغ، بلا جذور وفي مواجهة العدم). ويضيف جارودي: (وقد عمق التناقض الفاجع بين العزلة والحب الهوة السحيقة المحفورة في حياة كافكا نتيجة وضعه الاجتماعي ونتيجة خلافاته مع والده) وهذا يخالف ما جاء في رسائل كافكا.

كذلك نقرأ في كتاب جارودي رسالة من كافكا الى ميلينا، وهي حبيبته الثانية، يقول فيها: (آلام الرئة ليست سوى طفح آلامي المعنوية) وهو يستخدم نفس الكلمات تقريباً في احدى رسائله الى فيليس: (اصابة الرئة ليست سوى رمز لذلك الجرح الذي يسمى التهابه فيليس). وفي رسالة اخرى الى ميلينا يقول: (انا لا احبك انت، بل احب ما هو اكثر من ذلك: احب وجودي الذي يتحقق من خلالك). وفي احدى رسائله الى فيليس نقرأ: (انا لا احبك انت بل احب وجودي الذي يتحقق من خلالك). ويكتب في يومياته عن حبيبته الثالثة (دورا) نفس الكلمات ونفس الالفاظ.

ويتبين من رسائله الى فيليس الكثير من اساليب الحذلقة والكثير من التبريرات والحجج المتشائمة التي كان يستخدمها لتغطية لعبة الورق والحبر، وطرحت من جديد قيمة الكتابة من موقع المجانية، وهي ايضاً اضافت وجهاً متناقضاً آخر الى وجوه كافكا المتعددة وادهشت نقاده وزادت في بلبلتهم، خاصة ان هذه الرسائل استوعبها مجلدين كبيرين في تسعمائة صفحة.

● ● ●

وصف روجيه جارودي كافكا بالانسان الممزق الذي يعاني من الازدواج من قسوة عالم خانق، مجرد من الانسانية. وهذا التباين لا يمكن ابداً نسبته إلا الى اختلاف المزاج، الذي يناقض بين نموذجين من الذهنية البشرية: احدهما يستخلص الفعالية الكبرى من الشخص، بينما الآخر على العكس يستخلص من الغرض النتائج الحاسمة. وعلى غرار فرويد يذهب

سارتر الى ان (الانسان كلية، لا مجموعة: وبأنه، نتيجة لذلك، يعبّر عن نفسه بكاملها، بأتفه سيرة من سيره وبأكثرها سطحية ـ وبتعبير آخر، ما من ذوق أو رنة فعل انسانيين لا يكون ينم عن شيء)، وان الهدف هو (فك رموز السلوك العملي).

في حالة فرانز كافكا وما كشفته هذه الرسائل من اسرار لنفسيته تجعل من دراسته (دراسة لشخصية بكاملها في مواجهة بما يُفردها ويُفَردُنها)، وعسر الهضم يتباين حين يخلط بين السيكولوجية الفردية وسيكولوجية التباين، انما تقابلان طريقتين متمايزتين لمعالجة التغيّر. ففي الاولى، يجد بعض علماء النفس فيها صفة خاصة بفرد واحد ويحددونها كيفياً. اما في الثانية، فيواجهونها بحد ذاتها، كنقطة متحولة، أي كمقياس يظهر بدرجات مختلفة لدى الافراد. فسيكولوجية التباين تكتفي، من اجل تحديد التحوّل، بحد ادنى من التحديدات الكيفية، ولكي تكتشفها في الواقع، تكتفي بمعايير أو بعلامات غليظة على العموم، لكن مدرّجة بحيث تمكن من تحديدات كمية. فسيكولوجية التباين تتطوّر اذن بصورة رياضية، أو على الاقل، بالاستعانة بوسائل رياضية بوساطة قياس ابعاد متحوّلة، أو وضع علامات التحول، وحساب التطابقات والتحولات المتبادلة. وهذه الابحاث في الحدود التي اعطت نتائج، نسب اليها، بحق، انها تبالغ كثيراً في ان تترك طبيعة الصفات التي تخضعها للحساب دون أي معايير.

ونحن نستطيع ان نُدخل في نطاق سيكولوجية التباين مسألة منشأ التحول. ان السلالة التي يعود اليها المرء، والبيئات التي ينتمي اليها والتأثيرات التي يتلقى منها تساهم في (فردنة) المرء. فسيكولوجية التباين هي بذلك خاضعة للسيكولوجيا الاجتماعية والسيكولوجيا التكوينية، وعلى الاخص للابحاث المتعلقة بالوراثة ـ وهي كذلك خاضعة للفيزيولوجيا بمقدار ما تعنى هذه بالمزاج والبنية الفيزيقية والتحولات الفيزيولوجية وبعلاقاتها بالتحولات الذهنية، وهي نفسها (سيكولوجيا ـ فيزيولوجيا تباينية).

وكما يقول شتيرن فان السيكولوجية الفردية تضيف الى مدى حجم التحولية، مدى الفردانية الجديد. فهي تعالج التحولات التي تحدث في الظاهرات السيكو- فيزيولوجية من جراء ان هذه الظاهرات متواجدة في شخصية معطاة وتدخل فيها بعلاقات مع بعضها البعض. وغالباً ما يوافق بعضهم على ان السيكولوجيا الفردية، التي هي بجوهرها وصفية، لا تصبح تفسيرية إلا اذا طبقت بصورة استنتاجية القوانين أو المبادىء التي تزودها بها السيكولوجيا العامة والفيزيولوجيا التباينية. فهي لا تكون علماً نظرياً، بل فناً، بالمعنى المزدوج الذي لهذه الكلمة التي تعني في آن واحد علماً مطبقاً ودراسة انشائية: أي سيكولوجيا تقنية وسيكولوجيا لاهوتية من جهة، وسيكولوجيا ادبية من جهة اخرى. لكن لم يبرهنوا استحالة علم للفرداني الذي يربط، باستنتاج سببي، افعالاً مفردة بعوامل داخلية، كالميول أو الغرائز التي هي كذلك مفردة.

علاقة كافكا بفيليس علاقة اصطناعية وضع اسسها المؤلف حتى يرى رد فعل بطلته فيما يخص عواطفها مستغلاً ذلك حتى يتسنى له الاطلاع على خفايا النفس البشرية من خلال معاناة حقيقية تهدف لاغراضه في البناء النفسي لابطاله.

فهل معنى ذلك ان كافكا لم يحب؟ أو ان حبه كان تمثيلاً و (ضحكاً على الذقون) كما يقال. ان واقع الامر هو ان كافكا كان محباً لعالمه الادبي اكثر مما كان محباً لانسان فان، وقد يكون هذا الواقع هو الذي جعله غريب الاطوار متقلب المزاج، فالعواطف بالنسبة له تأتي بعد ان تكون مهمة الخلق الفني قد انجلت ونهضت. فوصف الحوادث المثيرة في الاعمال الادبية الذي يبدو انه يتخلى كل التخلي عن المقاصد السيكولوجية، يلقى اهمية كبرى في نظر عالم النفس حين تكون القصص بكاملها قائمة امام خلفية نفسية غامضة. بالمقابل نجد في الرواية السيكولوجية ان المؤلف ذاته يحاول رفع المادة النفسية الاولية لعمله الفني من ارضية الحوادث المجردة الى مجال

النقاش والايضاح السيكولوجي ، بحيث ان الخلفية النفسية في روايته تسربل بالكلمة في اغلب الاحيان حتى الابهام وانعدام الرؤية . ويستقي العلماني من مثل هذا النوع من الروايات معلومات عن (علم النفس)، بينما في الروايات حيث ينعدم القصد السيكولوجي ، فعلم النفس وحده هو الذي يسبغ على مثل هذه الروايات معناه الشامل .

ليس بجديد القول ان ما هو شخصي في نفسية كافكا اثر في نقاط عديدة في اختيار مادة عمله وصياغتها .

فولتير

فرانسوا ماري ارويه (فولتير) ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ احد اهم اعمدة الادب في فرنسا . وقد كان ادبه صريحاً الى حد الوقاحة ، وكان عنيفاً الى آخر حدود العنف ، وكـان ساخـراً الى آخر حدود السخرية . ولو كانت السعادة نتيجة طبيعية للمـواهب وما تؤمنه من نفوذ لاصحابها ، لوجب ان يكون فولتير من اسعد الناس طراً ، اذ ليس من كاتب كبير كان له في اثناء حياته اثر اعمق من اثره ، أو استطاع ان يتيقن ـ مثله ـ من اتساع عبقريته . وعلى الرغم من هذا ، فان فولتير ، حين يتأمل في الحياة ، يعبر عن مرارة مستغربة . فهو يكتب في العام ١٧٧٠ الى الماركيز دى فلوريان : (ان نهاية الحياة كئيبة ، ومنتصفها لا يساوي شيئاً وبدايتها مضحكة) .

واذا ما رجعنا الى قسم من مراسلاته لا مع عظماء عصره الذين يعنى بهم حين لا يكون يتملقهم ، بل مع افضل اصدقائه ، نجد ان الافكار هي هي . ففولتير لا يفتر عن الشكوى ، فيشتكي من صحته ، ويدعي بانه مشرف على المـوت ويتـوجـع من مغصـه ، ويشتكي من الجور اللاحق به ، ومن المـزيفين الذين ينشرون باسمه التآليف الهجائية التي تعرضه للخطر ، من النـاشـرين الـذين يحـرفون كتاباته ، ومن المقلدين الذين يحورونها بحجة تجميلها ، ويشتكي من الدسائس التي تحاك ضد مسرحياته في حين انه لا يؤلفها إلا ليتسلى بكتابتها وبتمثيلها مع اصدقائه ، ويشتكي من النقد الفاحش الـذي يضـطر الى تحمله من قبل كاتب اسمه الخوري ديفونتين وهو ناكر

للجميل استخلصه من السجن فاذا به يكتب ضده اشياء قذرة، ومن قِبَل جان بانيست روسو الذي يتكلف ازاء فولتير تديناً هو ابعد الناس عنه، ومن قِبَل لوفران دى بومبنيان الذي (يظن انه شيء يذكر) ويستفيد حتى من اجتماعات الاكاديمية للافتراء عليه، ومن قبل موبرتوي وهو صديق قديم إلا انه حسود، ومؤلف لسخافات لا يصدقها العقل، ويشتكي من عَمَهِ البشر وحماقتهم المستسلمين للخرافات الصبيانية، كما يحتد لمتطلبات دوائر الجباية الى آخره.

في عام ١٧١٣ تخرج فولتير من الجامعة، وقد عرض عليه والده الدخول الى سلك المحاماة، ولكنه لم يستلطف هذه المهنة، وكان يتحرق شوقاً الى الكتابة ونظم الشعر، والسير في السبل المجيدة التي سار عليها كورناي وراسين وبوالو، فيخلق لنفسه اسماً كبيراً. وقام عرابه الاب دى شاتودان بادخاله الى المجتمع الادبي الذي كان يجتمع فيه حول البرنس دى فاندوم ذوو الظرف والمجون. وهناك كان فولتير يحس بالرضا والراحة، ويلتذ في ذلك الجو وينال اعجاب من فيه. وقلقت عائلته وحاولت اخراجه من هذا الوسط الخطر فاوفدته الى هولندا، فقابل فيها مدام دي نوايه وهي امرأة صاحبة مكائد، وعندها بنت. فوقع فولتير بالطبع، في غرام البنت مما ادى الى مشكلة مزعجة، حملت والده على استدعائه باسرع ما يمكن.

في عام ١٧١٧ بدأت متاعبه مع افكاره حين وضع في السجن لمدة احد عشر شهراً وفي عام ١٧٢٤ اصيب بالجدري وفي عام ١٧٢٦ استدرج الى كمين اعده الشفالييه دي روهان حيث ضرب بالعصي ضرباً مبرحاً. وفي ذلك العام اجبر ان يترك فرنسا فهاجر الى انكلترا، وعاد سراً الى بلاده عام ١٧٢٩ حيث نشر (الرسائل الفلسفية) واحيل الكتاب الى برلمان باريس وحكم عليه بالحرق.

● ● ●

في عام ١٧٣٤ اختبأ فولتير لدى عائلة دى شاتليه، وهي عائلة تملك

قصراً في (سيري) على تخوم مقاطعة اللورين.

وقد جمعته الظروف بربة العائلة الماركيزة دى شاتليه، وهي امرأة كانت قد تثقفت منذ الصغر وتعلمت اللغة اللاتينية، فاتخذها خليلة ومعجبة في آن واحد. وكتب فولتير عنها: (من النادر ان يكون قد اجتمع لدى انسان ما اجتمع لديها من حصافة رأي وذوق وهمة للتعلم، وكانت الى جانب ذلك، تحب المجتمع وكل ما يسلي النساء اللواتي في سنها، إلا انها انصرفت عن ذلك كله كي تذهب وتدفن نفسها في قصر مهدم). ولكن هذا القصر امتدت اليه يد التجميل فضم حدائق غناء، ومكتبة واسعة، ومختبراً للطبيعيات، وردهة للوحات، وغرفاً للاصدقاء والعلماء الذين يمرون به، مثل كوينغ وموبرتوي وجان برنوللي، واكتمل القصر بفضل الثروة التي جمعها فولتير والتي وجدت ثمة مجالاً للاستعمال.

وفي ذلك استكمل فولتير - في كنف خليلته - التطور نحو الاستقرار الذي بدأ في انكلترا، وهو يحيا في امان أو ما يشبه الامان، لم يزعجه إلا ما صدر عام ١٧٣٩ من هجمات وفساد عن بعض اصدقائه القدماء مثل الاب ديفونتين.

كان فولتير يهتم بما يهم مدام دى شاتليه، فأخذ يخصص قسطاً كبيراً من وقته للاعمال العلمية. فحيث تولعت مدام دى شاتليه بنيوتن، كتب فولتير (مبادىء فلسفة نيوتن)، الموجه الى القراء ذوي الثقافة المتوسطة. واهتمت مدام دى شاتليه بقياس القوى فألف فولتير بحثاً يخالف فيه آراء لايبنتز التي تعتنقها هي. وحاولت مدام دى شاتليه ان تجيب على سؤال طرحته اكاديمية العلوم عن طبيعة النار وطريقة انتشارها فأجرى فولتير اختبارات عن الموضوع ذاته وحرر - مثلها - مقالة خاصة. وكتب - خصيصاً لها - بحثاً عن ما وراء الطبيعة يكشف عن آرائه الفلسفية، وكانت دى شاتليه تتصنع احتقار التاريخ - وهو في رأيه لا يحتقر إلا اذا تاه في الحوادث التافهة - فاذا فولتير يخطط (المقالة عن العادات)، وهي تاريخ عام للحضارة من عهد شارلمان حتى

عصر لويس الرابع عشر البالغ الاهمية.

وقد اقام فولتير في قصر (سيري) ستة اعوام، دون انقطاع تقريباً. ولقد قام في تلك الفترة ببعض اسفار، كسفرته الى (ليد) في هولندا عام ١٧٣٩، إلا انه يعود بانتظام الى القصر الذي يحب جوه وساكنيه. ولكن مسيو ومدام شاتليه استدعيا الى بروكسل عام ١٧٤٠ لقضايا هامة امام المحاكم، فسافر معهما فولتير. وحين انتهت مشاكلهم هناك لم يعد آل شاتليه وفولتير الى (سيري) بل الى باريس حيث وجد فولتير عالم الادب يموج بادباء يحسد بعضهم بعضاً.

وبعد تنقل هنا وهناك يعود فولتير الى سيري، وينتقل من ثمة الى (لونيفيل) حيث بلاط الملك ستانسلاس، والى (كومرسي) حيث تمثل مدام دى شاتليه المسرحيات الهزلية. وفي آخر ١٧٤٨ يستقر في (لونيفيل) حيث تنتظره فاجعة جديدة. فقد كانت مدام دى شاتليه غير بعيدة عن التأثر بالغرام، وكانت قد قابلت (سان لامبير)، وكان عندئذ شاعراً، واعقب المقابلة حمل جاء في غير وقته. وولدت مدام دى شاتليه في (لونيفيل) في عام ١٧٤٩، وماتت على اثر ذلك، واغتم لموتها فولتير وسان لامبير وزوجها.

اسودت الدنيا من جديد في عيني فولتير، فترك سيري وعاد الى باريس حيث سكن مع ابنة اخيه (مدام دني) في البيت الذي عاش فيه مع مدام (شاتليه) ووجد العالم الذي يحيط به معادياً له، ولم يكن ليشعر بالاطمئنان فاضطر الى السفر الى المانيا ملتحقاً بالملك فريدريك الثاني.

● ● ●

مكث فولتير بعض الوقت في المانيا ولكنه تركها وذهب الى جنيف فسكن بعض الوقت وعاد بعدها الى فرنسا وعاش مع مدام دني، على الرغم من بعض المشاحنات العابرة. كما انه كان يأوي (مدموازيل كورناي) مدة من الزمن، ومعها الضابط (دبوي) الذي تزوجها، واحتفظ بعلاقات طيبة مع مدام (دى فوريان). وكان في خدمته اباً يسوعياً يعمل كاتماً لاسراره في الفترة التي

خيل فيها ان مدام دني ستتركه. وبيت فولتير مفتوح للزائرين على انواعهم من الممثل (له كان) الى السفراء العابرين والشخصيات الشهيرة. وعلى مر الزمن، اتخذت تقاطيع فولتير شكلها الساخر المتهكم الذي خلده (هودون) في تمثاله. واصبح فولتير المثال الحي للفكر الحر الذكي، واحتفظ، الى جانب ذلك، بحب المجون والسعي وراء اللذائذ.

في عام ١٧٧٨ قرر مسرح الكوميدي فرانسيز ان يمثل آخر مأساة لفولتير (ايرين). واصر الجميع على ان يحضر فولتير الى باريس ويشهد التمثيلية بنفسه فقبل الدعوة ونزل ضيفاً على (المركيز دى فيليت). واستقبلته باريس بحماس لا يوصف، وحلت الجماهير خيول عربته وجرت العربة حتى المسرح حيث وقفت النظارة تهتف وتصفق بشكل جعله يقول: (اتريدونني ان اموت من الفرح؟) وكان استقبال الاكاديمية له يليق به وبشعبيته.. إلا ان فولتير اصيب ببرد اثناء زيارته الى باريس، ومات في ليلة ٢٠ ـ ٢١ آذار ١٧٧٨ ورفض الاكليروس الباريسي دفنه حسب الطقوس المسيحية، وحمل الاب (دى سيلبير) جثمانه ودفنه في ديره، حيث عثرت عليه الجمعية التشريعية وحملت رفاته الى (البانتيون) عام ١٧٩١ حيث وسدتها الى جانب رفات جان جاك روسو صديقه القديم الذي اصبح فيما بعد من اشد اعدائه.

● ● ●

كانت غراميات فولتير من نوع خاص، فليس هناك محطات واضحة في علاقاته الغرامية سوى مدام دى شاتليه. صحيح عرف نساء كثيرات وكان يحب ان يكون بينهن، ولكن مدام شاتليه كانت الخليلة الذكية التي فجرت افكاره الفلسفية. وربما لو لم تكن متزوجة لتزوجها.

يقول الكاتب غريم عن فولتير (اني لا ارى هذا الرجل العظيم ينحط الى اقل من مستواه إلا حين يعميه الهوى. فهو اذ يستسلم الى هواه الاهوج دون رادع أو هاد، يصيح، ويهتاج، ويوقع بنفسه اضراراً عظيمة من حيث يظن انه يوقعها باعدائه، ويتكشف عن خبث طفل يستثير ضعفه الشفقة).

ويشدد (له كان) على ان فولتير يملك روحاً (حنوناً وحساساً) ولكنه لا (يعرف الشفقة على الاشخاص الذين اساءوا اليه).

لقد رأى فولتير ان الفضيلة في حد ذاتها لا تتطلب التقشف، ومن الحكمة ان يتذوق الانسان كل اللذات التي لا تتعارض مع العدالة والطيبة، ومن الحكمة كذلك ان يتحاشى الانسان الملل وما يجره من ازعاج (فالانسان خلق ليتسلى) شريطة ان لا يؤذي احداً.

فضل فولتير منذ بداياته العملية ان يكون كاتباً على ان يكون محامياً، أو في أي مهنة تتيحها له طبقته البرجوازية الاصل، وقد اجاد في صنعته كثيراً، وكان حبه الحقيقي لهذه الصفة، وهو نوع من التصعيد لعواطفه، فصبها على فنه الادبي، بحيث حلق عالياً. وتبقى الاشارة الواضحة في حياته ـ كما نوهنا في بدء التحليل ـ مدام دى شاتليه.

لقد اعطته الكثير من الافكار واخذت منه غير قليل من افكاره، كانت له الخليلة التي لا تفارقه ـ كونه مقيماً في بيتها ـ فهي الزوجة الشفافة والملهمة سواء بسواء.

وربما كانت علاقتها المتأخرة مع سان لامبير وموتها عقب ولادتها منه، مما اثر على نفسيته، فجعله لا يحفل كثيراً بالنساء، كما كان الحال له مع مدام دى شاتليه.

إن أدب فولتير وصفته الفنية كانت فوق كل الاعتبارات الاخرى!!

جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار

ولد سارتر في عام ١٩٠٥ وقد كان ابوه ضابطاً في البحرية الفرنسية، اما امه آن ماري شفيتزر فقد كان عمها الدكتور البير شفيتزر الطبيب والمؤلف المعروف الذي حصل على جائزة نوبل. وقد فقد سارتر اباه وهو في الثانية من عمره، فأخذته امه من بيت الزوجية، وذهبت الى منزل اسرتها ليعيش في كنف جده.

يقول سارتر في كتابه (الكلمات) : بعد زفاف امي الى الضابط البحري جان باتيست عام ١٩٠٤ انجبت ولداً هو انا، ولكنه كان مريضاً، وكانت امي تعنى به بتفان، ولكن دون ان تصل بها الجرأة الى حد الحب. فقد كانت في العشرين من عمرها. ولما كانت امي بلا مال ولا صفة، عادت الى بيت والديها. كان موت والدي اكبر حدث في حياتي اذ اعاد امي الى اغلالها ومنحني الحرية، اذ ان الموت الوقح الذي نزل بأبي غم اسرة شفيتزر، انه يشبه الطلاق، ولان امي لم تعرف كيف تتوقعه، ولا كيف تمنعه، فانها اعتبرت مذنبة. فجدي الذي كان قد طلب احالته الى المعاش، لتقدمه في السن، ولظروف صحية، استأنف العمل دون كلمة عتاب.

وقد بدأ سارتر حياته الادبية في حجرة مكتب جده لامه. وفي سنواته الاولى دخل مدارس كثيرة، ولكنه كان يرسب في امتحان القبول، فكان جده يحضر له المدرسين في البيت على طريقة البرجوازيين الفرنسيين. وبدأ يدخل الحلقة الثانية من عمره، واستمر في القراءة وفي الدراسة، ودخل

السربون واصبح استاذاً بها. وفي اثناء ذلك بدأ يكتب المقالات والبحوث وبـدأ صيته يذاع وينتشر، وبدأت معاركه ومتاعبه تظهران بوضوح. وبدأت فلسفته تتضح ، ومسرحياته تعرض، وقصصه وبحوثه تباع بأعداد كبيرة. ومنذ عام ١٩٣٦ عرف العـالم سارتـر، وصارت تخرج من حجرة مكتبه حوليات وروائـع وبحـوث وقصص ومسرحيات وتهافتت دور النشر عليه، وتسقطت الصحف والمجـلات اخبـاره، وصار على المثقف لكي يفهم روح العصر ـ كما تقول ايريس مردوخ ـ ان يتعرف على سارتر.

حين كان يقـدم شهادة الفلسفة العليا تعرف بولو البشع على ليلاه وصار اسمه جان بول، واسمها سيمون دى بوفوار. ومن يومها لم يفترق الخليلان الى ان جاء مفـرق الجمـاعـات وهادم اللذات. كان اكثر الطلاب اهمالاً ووسخاً، كما تذكر ذلك سيمون، ولكنه كان اكثرهم شقاء وسخاء.

وقد كان سارتر يعترف بان سيمون هي التي صنعت حياته وهي التي كتبت عنه اجمل ما كتبه في (قوة الاشياء) واعترفت بان معرفتها لسارتر كانت نصراً كبيراً وانها لم تفترق عنه ليلة واحدة. ومع ذلك فان هذا الالتصاق لم يطفىء من وهج الحوار بينهما. . (وقد لاحظت احدى صديقاتنا ان كلاً منا يصغي للآخر ويعطيه عقله وقلبه، علماً بأننا كنا نتناقد افكارنا ونتعاون على تعـزيزها وصياغتها لانها كانت في النهاية افكاراً مشتركة). لقد كانت لهما كنـوز من الـذكـريات والمعـارف المشتركة، وكانا يلتقطان العالم بمفاتيح واحدة، كثيراً ما ينتهي الواحد منهما بكلمة تتردد احرفها الاولى على لسان الاول، وكثيراً ما تسمع منهما اجوبة واحدة على سؤال تطرحه على احدهما أو كليهما.

وفي وصفها لهذه المياه التي تجري بينهما تقول سيمون: (انطلاقاً من كلمة من احساس. . من ظل، كنا نعبر طريقاً داخلية لنصل الى نتيجة أو ذكرى أو تقارب غير متوقع، ولم يكن يدهشنا ان نتلاقى عبر كتاباتنا نفسها. لقد قرأت لسارتر خاطرات كتبها عام ١٩٥٢ وكنت اجهلها فاذا بي اجد نفسي

وقد كتبت مثلها بعد سنوات عشر. ان ما بيننا الكثير، لكن اعمالنا الادبية لا تتشابه ولا تتناسخ). . (ان المسألة الوحيدة التي سيكون لها وقع الكارثة هي ان أرى سارتـر ميتاً، أو ان اموت قبله. وانها الفاجعة ان لا يكون بجانبي يواسيني مما اصابني برحيله. ان يتركني ويسكت. . هذا امر لا يطاق).

وبـالرغم من حبه لسيمون وكراهيته المرة لامه، فانه ظل براً بها، لا يقول لها عن ذلك الجحيم المستعرة في صدره، بل عاش معها حتى عام **١٩٦٢** في بيت واحد بشارع بونابرت القريب من السان جرمان. وكان بره بوالـدته كما يقول (تضحية كبيرة، فقد كنت اعيش في فندق، واعمل في مقهى، وآكل في مطعم، وكنت سعيداً لانني لا املك شيئاً على الاطلاق. هذه هي سبيلي الى الخلاص).

كان سارتـــر عبثياً لا يســأل عن شيء، فهـو الـذي ادان الاخـلاق المسيحية. . كان مسيحياً حتى عظمه. لم يسأل عن شبابه اين ضيعه، ولا عن ماله اين انفقه. قيل له ذات مرة: انك افنيت عافيتك وانت تكتب (نقد العقل الجدلي) فأجاب من الافضل لي ان اكتب (نقد العقل الجدلي) واكون مريضاً من ان اكون صحيحاً معافى بدون العقل الجدلي.

وترك الحساب لزوج امه وراح ينفق ثروته التي تدرها عليه اعماله بلا حسـاب. لم يعرف كيف يتصرف بالثروة فينفق ويبذر انفاق من لا يخشى الفقـر، وبينمـا كان ينفق على اصـدقـائه العطايا كان يمضي سحابة سنته ببنطلون وقميص لا يكاد يغيرهما، اما ترانشكوته البني فقد اصبح اشهر من كتبه.

اما دار نشر (غاليمار) فقد قالوا عنه انه لم يكن يحسن التصرف. كان كل شيء يحـرق اصـابعـه مما اضطرنا الى ان نقتطع من حسابه الكبير ما يتوجب عليه من ضريبة خوفاً من ان يلاحقه العشارون ورجال الشرطة. واذا كانت شهـادة الدار التي استأثرت بنشر معظم اعماله غير كافية فان شهادة عمال فندق نازيوناليه تضع الاصبع على الجرح. هنا في هذا الفندق المطل

على امبـراطـورية العدم . . كان سارتر يستأجر جناحاً كبيراً ويغدق العطايا والهبات على موظفي الفندق. وبرغم ذلك فانه كان يعيش في باريس بدون خدم أو حشم أو سيارة أو سائق. كان ينفق ثلاثة آلاف فرنك فرنسي على نفسه شهرياً، بينما ينفق اثني عشر الفاً على من يستحق ولا يستحق. كان، كما يقـول في احـد اهم اسس كتابه (الوجود والعدم) و(وقف التنفيذ): وجوداً للغير، الغير الذي كان موضوعاً بالنسبة له، ثم اصبح العلو الذي يتعالى عليه.

في احـد كتبـه (وقف التنفيذ) يتخيل سارتـر نفسه وقد اصبح بخيلاً ويقول: (ان الغير يرى بخلي كما أرى شعيراته القليلة على رأسه. انه يرى القليل من الشفقة تلمع تحت البخل كلمعان الجمجمة تحت الشعيرات. انني اعرف ذلك، وسوف اقلب الصفحات المثنية من كتاب الصلاة واتنهد قائلاً: يا الهي انني بخيل. . ثم تسقط علي نظرة ميدوزا فتحجرني). والغير هنا ليس سيمون دى بوفوار، بل فتاة يهودية من المغرب، كانت تدرس على يديه الفلسفة، وتبناها سارتر عام ١٩٦٥ بعد ان رعته السنوات الاخيرة من حياتـه كمـا كانت جين اير ترعى حبيبها الاعمى. . انها ارليت القيم ابنته المتبناة، وهو الذي جنى ابوه وامه عليه، ولم يجن على احد.

يمكن القول ان سارتر كان معري الهوى رهين محابس ابي العلاء، ولو قدر لاعمى المعرة ان يبعث في باريس في القرن العشرين لاختار لنفسه اسم جان بول سارتـر، ولجعل من (الفتيان) لزوم ما لا يلزم. بل حتى لغة الفتيان لم تعد تعنيه، لا زمن العقل، ولا الذباب، ولا الحائط، ولا الداعرة المبجلة، اعمال تعنيه. انه يريد ان يخرج منها، وان يرمدها ويترمد بها.

إن كتبه ايضاً (موتى بلا قبور) بحيث لم يجعل لجسده قبراً وشاهدة. . انه مثل ابيه وكتبه. لقد اوصى باحراق جثته ليكون حالة جديدة من ابيه الذي عذبه شبحه طوال حياته، وليؤكد على ان العدم يسكن قلب الوجود فعلاً، وان

(الانسان حماسة بدون جدوى) وان هاملت قد يكون عطيلاً وقد يكون شكسبير نفسه.

كتب سارتر ذات مرة يقول: (ان امثالي لا يموتون، ومثلما ان مليارات الموتى الذين اجهلهم حاضرون فيّ فانني سأسكن مليارات الاحياء بعدي). لهذا رفض مراسم الدفن، ولم يقبل بتعزية رجل يمثل الدولة كبيراً أو صغيراً، لكن الدولة التي يكبرها جان بول سارتر لا تأخذها العزة بالاثم بل تأتي الى سرير موته في ثياب رجل عادي نسي انه فاليري جيسكار ديستان رئيس الجمهورية الفرنسية.

احدى الصحف الفرنسية (الاورور) كتبت عنه حين مات عام ١٩٨٠ متذكرة الثارات القديمة (مات هادم الروح، هذا الاعمى البصر كان ايضاً اعمى البصيرة).

● ● ●

جمع الحب بين جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وهما على مقاعد الدراسة، وكان فارق العمر لصالح سارتر بعامين وعاشا معاً طوال حياتهما بدون زواج. وفي حديث لسارتر يقول فيه: (منذ ثلاثين عاماً لم ننم ذات ليلة، ونحن مختلفان، صحيح اننا اختلفنا ذات مساء، ولكن الخلاف كان غبياً وسخيفاً. فقد تغاضبنا وكانت القضية فلسفية، أو على الاصح بسبب قضايا لم ننجح في طريقة عرضها وأثارتها. وغالباً ما نجيب عن نفس الاسئلة باجابات متقاربة، أو بنفس الاجوبة، وهذا امر غريب حقاً، لان لنا ذكريات مشتركة عديدة، حتى اننا نتصرف بنفس الطريقة في نفس الموقف، بل اقول بنفس الكلمات التي تثمرها نفس التجربة. والحياة المشتركة تتكون بتجارب متعددة، وتنتهي في النهاية بتكوين ذاكرة مشتركة).

ورداً على رأيه بسيمون كامرأة يقول: (اجدها جميلة، كما كنت اجدها من قبل، وحين كانت تضع قبعة صغيرة سخيفة على رأسها كنت الفت نظرها. وقد وددت تماماً ان اتعرف عليها لانها كانت جميلة، وكان لها هذا

الوجه الذي يفتنني. ان الرائع في سيمون دى بوفوار ان لها ذكاء رجل وحساسية امرأة، وقد تجدني في كلامي هذا عبودياً بعض الشيء. ولعلني وجدت في سيمون دى بوفوار كل ما استطيع تمنيه، ولذلك لم نختلف إلا على بعض تفاهات. ففي عام ١٩٣٩، اختلفنا في نابولي لاننا كنا نتناقش حول هذا السؤال: هل من الضروري الزام السكان بالبقاء في البيوت التي تبنى لهم، ام تترك لهم الحرية دون الزام؟ وانتهت المناقشة بان صحت في وجهها (انت فاشستية) وردت علي: (وانت لن تصل في حياتك الى شيء.. لا شيء.. لا شيء).

ولقد بقي السؤال قائماً فيما اذا لم تكن سيمون دى بوفوار شريكته في الحياة فكيف كان سارتر سيكتب، الى ان وجه اليه هذا السؤال فرد عليه بافاضة قائلاً:

من الصعب العثور على ما يجب قوله في مثل هذا السؤال.. ولكنني مدين لها بكل شيء. ويمكن ان اقول انني كنت سأكتب ايضاً، حتى ولو لم توجد سيمون دى بوفوار لانني اريد الكتابة. ولكن الثقة الكاملة التي اعطتها لي شملتني بالامان، كان يمكن ان يتحول ذلك، كما يتحول عند بعض الكتاب، الى غطرسة مجنونة، ولكنني لست متغطرساً (على الاقل في هذا الميدان). فحين اعرض عليها ما اكتب كما افعل دائماً وحين تنقد كتابتي اغضب والعن، ولكنني انتهي بالموافقة، على كل ما تقول، ليس من باب المسايرة ولكن لانني الاحظ ان ملاحظاتها محكمة وموضوعية بالقدر الذي لا اصل اليه. وهي تعطيني الحق حين اريد كتابة شيء ما، وما ان ابدأ الكتابة حتى تصبح كأنها تشاركني في الكتابة. وهي قاسية شديدة القسوة مثلي تماماً. وحين كتبت النسخة الاولى من (المومس الفاضلة) قرأتها وصاحت:

- هذا مقرف! لقد رأيت كل حيلك، ولا اجد فيها شيئاً ذا بال.

وصححت النسخة في اربع وعشرين ساعة، فقالت لي في النهاية ان المسرحية جيدة جداً.

وحين تستسلم، اعطيها ثقتي كاملة، ولا يوجد نقد آخر غير نقدها بغير رأيي. ويمكن القول ـ الى حد ما ـ انني اكتب لها، أو بمعنى اصح هي التي تصفي لي ما اكتب، وبعدئذ اقول لنفسي ان كتابتي تصلح للجمهور.

وبعد.. لقد كانت سيمون تسمي سارتر بـ (الضريح الابيض) لانها تحب الحياة اكثر منه (وبالفعل توفي سارتر قبل بضع سنوات من وفاة سيمون). لقد كان سارتر يتبع خطواتها واحياناً يلهث قليلاً، ولا شك انها كانت تحس بأشياء كثيرة من اجله. الشيء الوحيد الذي كانت سيمون لا تحفل بأن تتفق عليه مع سارتر هو السياسة. فهي لم تكن تعبأ كثيراً بها.. لا تهملها تماماً ولكنها لا تحب ان تدخل مطبخ السياسة.

● ● ●

ما جمع حياة سارتر مع دى بوفوار هو تطابق افكارهما فعاشا العمر كله سوية دون ان ينغص حياتهما أي طارىء، واذا كانت هناك امور غير متطابقة بينهما، فانها كانت تكمل اهتمامتهما المشتركة.

ومن الامثلة على ذلك ان ما اكتسبته سيمون هو (الصلة المباشرة) مع الجمهور وهذا فارق بينها وبين سارتر. فهو لا يتصل بالجمهور وجدانياً، بل يتصل بأناس يفكرون ويتأملون، احرار تجاهه: يقبلون ما يكتب أو يرفضونه. فيما سيمون (تتصل) بالناس وجدانياً على الفور. والناس يلتزمون بما تقول دائماً. انها تستطيع ان تعرض الآخرين للتساؤل، ولكن بطريقة ودية، ولذلك فهي لا تتعالى على قرائها، وهي حين تتحدث عن نفسها فكأنها تتحدث عن الآخرين. فهي تستطيع ان ترضي نفسها وان تنقد نفسها في نفس الوقت مما يجعل كل انسان يتعرف على نفسه داخلها. فهي ليست بالقاسية جداً، وليست كذلك بالمتساهلة. فيما سارتر لا يملك مثل هذا التوازن حيث يتكلم بقسوة شديدة أو بتسامح جم.

كما ان لسيمون علاقات رصينة مع نفسها، وهذا يرجع الى المسافة التي تنأى بها عن نفسها، ولا تتوقف المسألة على الادب بل انها تنطبق ايضاً

على الحياة. وهذه المسافة (المضبوطة) التي تقفها سيمون دى بوفوار من الادب ترجع الى انها تقف ايضاً على مسافة (مضبوطة) من الحياة. انها انسان. انسان لا يفكر في نفسه، وهي لا تفكر تلقائياً، بل تفكر فيما تواجهه، فاذا كان هذا الذي تواجهه هو الصحراء، أحست بالصحراء. واذا كان انساناً، أحست بمشاكل هذا الانسان. ولذلك توجه تلقائيتها نحو الآخرين، لانها هي نفسها حرة. وحين تواجه سيمون دى بوفوار اسئلة حول نفسها فهي لا تواجهها من قبيل النرجسية، بل من قبيل الحساسية التي تندهش بان لها (الانا) وحينئذ فهي تتساءل (الحق انني ذاتية، وانني اوجد ايضاً، فما معنى ذلك؟).

لم يكن سارتر يأبه كثيراً ان تكون له مهنة، وان يكون له زملاء ورؤساء وقواميس يطبعها أو يفرضها على الآخرين، ولذلك لم يكن لسارتر ان يصبح رب عائلة، ولا حتى زوجاً. فقد كان، وهو في الثالثة والعشرين، وبكل رومانتيكية العصر، يأمل ان يسافر اسفاراً بعيدة الى القسطنطينية، فيؤاخي عمال المرافىء، ويسكر حتى الثمالة في قاع المدن، ويتجول حول العالم، حتى لا يبقى المنبوذون في الهند، أو كهنة جبل آتوس، أو صيادو الارض الجديدة غرباء عليه.

فسارتر لا يمد جذوره في أي مكان، ولا تتملكه أي شهوة، فتسد عليه كل المسالك: ليس لمجرد أن يصبح طليقاً بل على الاصح ليستطيع ان يحكم على الاشياء بسلامة تقدير. ولذلك كان يخضع كل تجاربه لكي يستفيد منها في كتاباته، وهو يستبعد ما قد لا يفيد هذه الكتابة.

وتجاه هذه المواقف كانت تبدو خلافات سارتر مع سيمون بشكل مناقشة حادة، حيث كانت تحب سيمون على الاقل من الناحية النظرية الرجال الضائعين، والاضطرابات العظيمة، والمتطرفين في السكر، أو الحذر، أو الوجد. وكان سارتر يتمسك برأيه بان أي شيء يفيد في القول، لا بد ان يقال، وان حذف أي شيء يعتبر من قبيل الجريمة.

لم تكن علاقة سيمون مع سارتر مما كان يرتاح له البعض، حتى انهم ارادوا ان يفهموا انها لم تكن راضية وانها اهدرت حياتها، وإن عليها ان تعترف بانه قد غرر بها في السياسة، أو ان امرأة مثلها كان يجب ان تنجب اطفالاً . . الخ، ولكنهم لو انعموا النظر فيما كتبت لكان رأيهم عكس ذلك: ذلك انها لا تحسد احداً، وهي راضية كل الرضا عن حياتها. ولو خيرت في ان تبدأ حياتها من جديد لاختارت ما حدث لها فعلاً، فهي لم تحس بالاسف يوماً لانها لم تنجب اطفالاً بمعنى ان ما ارادت فعله قد فعلته في حياتها، وهو ان تكتب فحسب، وقد فعلت ذلك الى حين وفاتها.

إن تحليل نفسية سيمون يتطابق مع ما كانت تعتقده(فمشكلة الحياة عند من يتسلح بنظرة وجودية الى العالم، كما اتسلح انا بها، هي ان الانسان يبحث عن «ان يكون»، ولكنه ينتهي بان يوجد فقط. وهذا هو الانفصال بين الوجود والكينونة، وذلك حين يقامر المرء، أو حين يصطنع لنفسه المشاريع، حتى وإن كان يعلم انه لن يحقق وجوده، فاذا ما راجع نفسه، فسيلحظ انه قد اكتفى بمجرد الوجود، ويمعنى آخر ان الحياة التي يتركها المرء وراءه ليست شيئاً جامداً «أي مستحيلاً» بل انها حياة انسانية. وحينئذ يمكن للمرء ان يقول هذه الجملة التي احبها، والتي قالها «الآن»: «ان احداً لم يعدنا بشيء ما» وهذا القول صحيح وخاطىء في نفس الوقت، لانهم حين يثقفون فتاة برجوازية، أو فتى برجوازياً، فان هذه الثقافة تعطيه بعض الامل والوعود، واظن، لو ان واحداً، عاش حياة قاسية، شديدة القسوة منذ البداية لما قال كما قلت «لقد غبنت» وانا، اقصد حين قلت «لقد غبنت» هذه الفتاة التي تبلغ السابعة عشرة، والتي اغرقوها بالاحلام. فاذا كنت قد الفت كتباً، وتعلمت اشياء كثيرة، فانني ايضاً غبنت، لان ما حدث لي، لم يكن ما كنت اتوقعه في تلك السن المبكرة).

هل حققت سيمون ما كانت تريده، أو كانت تريد تحقيق شيئاً آخر؟

لقد كتبت لها احدى عالمات النفس في ذكاء وبراعة تقول ان الرغبات اكثر مما هو مرغوب به.

وفعلاً فقد حققت سيمون كل ما كانت ترغب فيه؟

ولكن الرغبة اذا ما تحققت فلا يخمد كل شيء في القلب.. ذلك انها تصورت الحياة والآمال حين كانت صبية على النحو الذي تخيله كل المتفائلين والمثقفين من البرجوازيين، وهذا ما عابه عليها قرائها من انها لم تشجع فيهم ذلك!!

الحب لسيمون كما هو الشأن لسارتر كان صادقاً، وهو نادر حقاً، لهذا اثمر هذه الثروة الفكرية التي اغنت الفكر البشري.

مدام ريكامييه

بين ايام الملك لويس السادس عشر واندلاع الثورة الفرنسية وظهور نابليون ووصوله الى سدة الرئاسة الامبراطورية، عاشت فرنسا، لبعض الوقت، في اعظم ايامها، وفي نفس الوقت في احلكها بالنسبة للبعض الآخر.

ضمن هذه الفترة الزمنية ظهرت مدام ريكامييه، ذات الجمال الفتان والمحاسن الخلابة، ورشاقة الجسم ولدانة العود، وتناسب الملامح، وتناسب التقاطيع.

فقد كانت القيثارة التي يغني عليها الحب انشودته الابدية، كانت البلبل الصداح الذي يغرد لحن القلوب الكسيرة والافئدة المنسحقة، كانت المنهل العذب الذي يغترف منه الفنانون الوحي، والالهة التي يستنزل منه الشعراء الالهام.

وقد تهافت عليها اشهر رجال العصر واذيعهم صيتاً، ليخلد الفنانون منهم، مثل دافيد وجيرار وكانوفا جمالها الخلاب على لوحة التصوير ورخام التماثيل، ويستوحي رجال الادب، مثل فيكتور هيغو، ولامرتين، وشاتوبريان، وسانت بيف خفايا العواطف ويستوعبوا دقائق وحسن التكوين.

اما رجال السياسة ورجال السيف فلم يكونوا اقل من هؤلاء شغفاً بمحاسنها، فنابليون كان يحج الى بيتها كما يحج اليها سائر الملوك والاشراف، لكنهم يرتدون امام صونها وعفافها كما يرتد الفراش المتهافت

على المصباح، وقد هيض جناحه وباء بخيبة الامل وفشل الاماني وتحطم المرامي.

● ● ●

اما من هي مدام ريكامييه فان اسمها العائلي كان جولييت برنار، ولدت في مدينة ليون، وكانت امها فتنة للناظرين وقد استكملت جميع المحاسن، فورثت عنهـا آيات الجمال، ولم تتم الخامس عشر ربيعاً حتى كانت فتانة المحاسن، جذابة للقلوب، أخاذة بالالباب، وكانت نفسها فياضة بالشعور، يتدفق منها العطف والحنان، فلما أتت الى باريس سنة ١٧٩٣ كانت الثورة الفرنسية في ابان اشتعالها، ترسل كل يوم الى المقصلة مئات الخونة والبلاد في حالة يرثى لها من الفوضى.

وفي ربيع كهذا تتفتح القلوب للحب وتستعر شعلته المقدسة في الفؤاد الغض، ومن هنا تطلعت جولييت فيما حولها علها تجد بعواطفها مجيباً تأنس اليه وتمتزج به، لكنها لم تألف الى احد، لان النغمات التي اثارتها اوتار قلوب المحيطين بها لم تجد شواطىء في قلوبها ولا وقعاً في مسمعها ولا هفهفة في جوانحها.

وكـان ممن يتردد على بيت ابويها صديق العائلة ريكامييه، صاحب المصرف الشهير، فخطبها الى امها، لرضاها عنه. والحت على ابنتها بان تتزوجه، فرضيت جولييت ان تقرن ربيع حياتها بخريف ايامه.. قبلت ان تتـزوج وهي في الخـامسة عشرة من عمرها برجل لم تجد له في قلبها غير اجلال واحترام لان سنيه تجاوزت الاربعين بسنوات.

كانت جولييت كالحمامة لراميها، ولم يكن ريكاميه انانياً محياً لذاته، يريد تضحية هناء فتاة في سبيل استمتاعه وملاذه، ولكن هناك سراً انطوت عليه جوانحه منذ امد بعيد، وهو انه شغف بمدام برنار أم جولييت واستولدها هذه الابنة، وهنا كان السر في حياة مدام ريكامييه.

اما مُثله السياسية، فهو من مبغضي الثورة ومن مناوئيها، وكانت حياته

على وشك الانصرام لايقانه بان الثوار لا يعفون ولا يرحمون.

تزوج من ابنته ليترك لها بعد ايام قليلة اسمه وثروته التي تعد بالملايين، فيكفل لها هناء العيش وراحة الحياة، دون ان يثير ظنون السوء والشبهات فيما اذا تصرف تصرفاً آخر وترك لها ثروته.

وقد اقتصر زواج ريكامييه بجولييت على المظاهر الخارجية دون تآنس ولا تواصل، ولذا عجبت جولييت من تصرف زوجها ولم يتسن لها تأويله لانها كانت تجهل صلة زوجها بأمها. ولما كانت شديدة الحياء، ذات طهر وعفاف وعواطف ترفعها عن مستوى الميول الحسية، رغبت فيما رغب به ريكامييه، وسمت بنفسها الطاهرة عن كل عاطفة جسدية فانية.

كان موقف ريكامييه متأزماً، فهو لم يقبض عليه دعاة الثورة، ولم يعدم ليترك ابنته حرة طليقة ذات ثروة طائلة، بل قيدته بها تقييداً تاماً فلا هو بمحجم عما أقدم عليه، ولا ابنته التي رام اسعادها دون اثارة ظنون ابيها، بقادرة من فك عقالها والتمتع بزوج يماثلها سناً ويشاكلها عواطف ويجانسها الاهواء.

في هذه الاثناء، كانت العواصف الهوجاء تمر وقتئذ بفرنسا فتكتسح كل شيء حتى اخلاق اهلها. فقد تولدت فيهم بعد زوال رزايا الحروب عواطف مادية غاية في الخطورة وظمأ شديد الى العبث واللهو، فكانت الحفلات تلي الحفلات، والاعياد تتلو الاعياد، والناس يلهون ويطربون، وقد تراخت اخلاقهم وسفلت ميولهم.

ولكن مدام ريكامييه الفتاة ذات الجمال الذي يسبي العقول كانت تمر بكل هذه النقائص دون ان يعلق بها منه شيء، فكانت والحالة هذه اشبه بالذهب الابريز الذي لا تزيده النار إلا بهاء ورواء، فكانت أين حلت تثير الاعجاب حتى ان حسنها وملاحتها كسفا حسن ربات الجمال في ذلك العصر، فشعرت مدام هاملان ومدام تاليان اللتان كانتا آلهتي الحسن والجمال في ذلك الزمن بعوامل الغيرة والحسد تدب في قلبيهما عندما وقعت أعينهما على ذلك المحيا الفتان.

وريكاميه في كل ذلك كان يتيه فخراً بما تثيره ابنته وزوجته في آن واحد من اعجاب الناس طراً بدلالها وجمالها ورشاقتها، فسارت في طريق الحياة وقد التف حولها المعجبون بها من نخبة الاشراف والموسرين، وكل يبغي منها عطفاً ويلتمس التفاتة رضا، وهي لا تعبأ بتزلقهم ولا تفكر في تملقهم، لان قلبها لم يتفتح بعد للحب والغرام رغماً عن بلوغها التاسعة عشرة.

حتى كان ذات يوم، وقد دعت الى قصرها في (كليشي) علية القوم وزهرة الارستقراطية الفرنسية، وبينما المدعون يلعبون المحاورة في مماشي حديقة القصر وبين خمائله، ركض شاب جميل هو ابن اخت ريكاميه وراءها وهي تنفر منه نفور الظبي الشارد وتضحك من عجزه عن اللحاق بها، حتى اذا امسك بها طرق مسمعها همس اهتزت له عواطفها وتحركت له مشاعرها، وأحست بقبلة حارة طبعت على عنقها وتخبطت بين يديه حتى اذا افلتت منه تطلعت بذعر وخجل الى ذلك الفتى الجريء الوقح.

● ● ●

امـا هذه الحادثة البريئة فقد هيجت فيها كوامن الشعور بحيث تكاد تكـون اشبه بانذار طبيعي، فأحست بانها امرأة وانها جميلة، وان الواجب الطبيعي يقتضي عليها باثارة اعجاب الناس بها، فأظهرت من الدلال والرشاقة ما خلب لب رجـالات العصـر البـارزين، مثل جيو والجنرال ماسينا ومورو وغيرهـم، ناهيك بسائر الفتيان الذين كانوا من اشراف الامة واثريائها، لكنها كانت في ذلك كاللاعب بالنار، فقد لفت حسنها انظار لوسيان بونابرت اخي نابليون، وكان شاباً جميل الطلعة رشيق القوام لم يعتد أن يصادف صداً من ربات الجمال مهما علا قدرهن وسمت مكانتهن، فلازمها وحاصرها مضيقاً عليها الخناق، لكنها افلتت منه بمهارة دون ان تستثير غضبه، لانها كانت تعرف كيف تزرع الحب وتحصد الصداقة وتنمي العواطف.

في وسط هذه الاجـواء كانت مدام ريكـاميه تسير بين اعاصير هذه الحياة الملأى بالشرور والآثام وهي طائرة الجسم عفيفة العرض نقية القلب

من ادران الهوى، يتبعها جموع المعجبين بها المتدلهين بغرامها المأسورين بدلالها وبهائها حتى اصبحت نجمة باريس المتلألئة ومعبودة اهلها التي لا يجدون مفراً من حرق بخور قلوبهم على مذبح حبها وغرامها.

بيد انها اخذت تشعر بان اموراً في حياتها لا تتمشى مع النواميس الطبيعية، فكانت فتاة في ريعان العمر وربيع الحياة تشعر بكل عواطف الشباب تذخر في فؤادها وتضطرب فيه، وتحس بخفقان قلبها وموجيبه، لكنها لا تجد له مجيباً لانها كانت الزوجة العذراء التي شاءت الاقدار ان تحبوها بكل ما اوتت ابنة حواء من جمال ودلال ومال، لكنها حرمت عليها ان تتمتع به اقل واحدة من بنات جنسها. وهو الحب.

وفيما هي في تنازع العواطف وتضارب الاميال ساق لها القدر الكاتبة الشهيرة مدام دى ستايل التي اصبحت لها صديقة وفية حفظت عهدها حتى آخر ايامها.

ورغماً عما كان بين هاتين الفتاتين من تباين العواطف وتنافر الطباع فقد الفت الصداقة ما بين قلبيهما حتى ظهر اثرها جلياً في حياتهما.

وكانت مدام دى ستايل على نقيض صديقتها حرة الارادة طليعة الميول لا تأسرها اذا جاشت ولا تقيدها اذا انطلقت، فكانت تسير في حياتها التي كلها تمتع ولذاذة يتبعها المتيمون بها، الذين ينافون اخلاق المعجبين بجمال مدام ريكامييه وسمو اخلاقها وقديم مبادئها. ولما كانت مدام دى ستايل وثابة العواطف تناولت الحدة ايضاً نفثات يراعها، فطبقت تحمل في كتاباتها على نابليون الذي لم يزل بعد قنصلاً، فحقد عليها واضمر لها الشر متحيناً الفرص ليثأر منها ويجعلها عبرة لسواها.

علينا التوقف هنا بعض الشيء لافساح المجال لذكر المرحلة التاريخية التي ارتقى بها نابليون الى سدة الامبراطورية، وهي المرحلة التي عاشتها مدام ريكامييه، وكانت في اوجها وتأثير مجريات الامور على حياتها.

● ● ●

في ٢٧ تشـرين الاول عام ١٧٩٥ اقيمت حكومة جديدة بعد اعدام الملك لويس السادس عشر تعرف بحكومة الديركتوار، ودامت هذه الحكومة الى ١١ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩، وحدثت في ايامها حروب هائلة حازت بهـا فرنسـا مجـداً كبيراً وشرفاً عالياً، حيث حاربت المانيا والنمسا اولاً ثم حاربت ايطاليا وحكـومـاتهـا المختلفـة تحت قيادة نابليون بونـابرت بطلها الشهير، فانتصـر انتصـاراً عظيماً وفتح ايطاليا وفرض عليها الضرائب واقام فيـها الانظمة والقوانين الجمهورية.

وعلى ذكر هذا الرجل ينبغي ان نذكر شيئاً عن اصل نشأته الى ان رقي الى رتبة قائد، فنقول ان عائلة بونابرت هي عائلة ايطالية كانت تقطن قديماً في مدينة سانميناتو من بلاد توسكانا من اعمال ايطاليا ولها في التاريخ شأن يذكر. ولسبب وقوع امور لا محل لذكرها هنا خرجت من ايطاليا واقامت في جزيرة كورسيكا، وكانت وقتئذ تابعة لحكومة جنوا، ثم حدثت حروب بين اهلهـا وحكـومتهم الجنـوبية، فأرسلت فرنسا جنودها وفتحت تلك الجزيرة وضمتها الى بلادها، وكان اسم رئيس عائلة بونابرت شارل بونابرت، واسم امـرأتـه لينينـزارا مولينو وله منها ثمانية اولاد، فيهم الذكور يوسف ونابليون ولوسيان وجيروم والاناث ليزا وبولينا وكارولينا.

ولقد ولد نابليون في مدينة اجاشيو عاصمة الجزيرة في ١٥ آب سنة ١٧٦٩ بعـد ان استولت فرنسا على تلك الجزيرة بشهرين وتوفي والده وهو صغير فنشأ في حجر امه تحت ملاحظة اخيه لوسيان، وكان رئيس شمامسة الى ان بلغ سن العشـر سنوات، فوضعه اهله في مدرسة حربية في مدينة بريين، فأقام بها اربع سنين اقتبس فيها شيئاً من العلوم، وكان شديد الميل الى العلوم الـرياضية دون غيرهـا، وكـان منصباً على مطالعـة التـاريخ، وبالاخص تواريخ من نالوا الشهرة وحازوا قصب السبق في القرون السالفة.

وكان له ولع شديد في صغره بالاعمال الحربية والاجراءات العسكرية حتى ان العابه كانت قاصرة عليها وله في ذلك حكايات مشهورة.

ثم انتقل من بريين الى مدرسة باريس وهو في سن الاربع عشرة سنة فظهرت فيها قوة عقله، وكان الاول بين طلبة العلوم الرياضية.

ومما قاله عنه معلمه في التاريخ ان هذا الكورسيكي سيتقدم كثيراً اذ ساعدته المقادير، وقال معلمه في البيان ان عبارته في الانشاء شديدة التأثير.

وفي اول ايلول سنة ١٧٨٥ حاز شهادة المدرسة ورتبة وكيل قائمقام في العسكرية، وانتظم في فرقة دولافير ثم انتقل الى الفرقة التي كانت مقيمة في مدينة فانس ورقي الى رتبة قائمقام. ولما وقع العصيان في جزيرة كورسيكا على حكومة فرنسا عين قائداً في الفرقة المحافظة على الامن، فزحف على العصاة وحاربهم، وكانت هذه هي المعركة الاولى التي حضرها نابليون.

وفي سنة ١٧٩٣ تقلد قيادة الجيوش التي ارسلت لفتح الجزائر الصغيرة الواقعة بين كورسيكا وسردينيا.

ثم ارسلته حكومة فرنسا الجمهورية الى طولون لاستنقاذها من ايدي الانكليز، وكان قد عين رئيساً على المدفعيين، فذهب اليها في ١٢ ايلول وبحسن ادارته ومهارته استولى الفرنسيون عليها وطردوا منها الانكليز والاسبانيين فكافأته الحكومة الفرنسية على ذلك بان رقته الى رتبة فريق.

هذا ولنعد الى سياق الكلام فيما نحن بصدده فنقول ان نابليون بعد ان انتصر في معارك كثيرة وقعت بينه وبين جيوش النمسا في ايطاليا وعقد المعاهدات مع ممالك ايطاليا ودوقياتها تقدم لمحاربة النمسا في ارضها، ففاز عليها فوزاً باهراً وفتح منها مدناً كثيرة، ولهذا طلبت دولة النمسا الصلح فأبرم بونابرت معها صلحاً عاد على فرنسا بالفوائد المادية والادبية، ثم عاد بعد ذلك الى باريس حيث قابله الشعب والحكومة بمزيد الاعتبار وذلك في سنة ١٧٩٧.

وبعد ان اقام مدة في باريس عرض على الحكومة رأياً لكيد حكومة بريطانيا وهو الشروع في فتح الديار المصرية وسورية ليكون في يد فرنسا مفاتيح بلاد الهند، ولما كانت الحكومة راغبة في ابعاده عن فرنسا لتخوفها من

كبر نفوذه، قبلت منه هذا الرأي وجهزت له اربعة وثلاثين الف جندي مع عدد ضخم من السفن الحربية وسفن النقل، واقلع قاصداً الاسكندرية، فاستولى عليها بعد ان قصف ميناءها وسار منها قاصداً القاهرة، فاستولى عليها بعد معركتين فاصلتين التهبت نيرانهما بينه وبين مراد بك قائد جيش المماليك، وكانت الاولى عند الرحمانية والثانية امام اهرام الجيزة. وفي غضون ذلك وردت اليه الاخبار تتنبأ بانتصار المراكب الحربية الانكليزية على مراكبه واحراق الجانب الاعظم منها والاستيلاء على الجانب الآخر، فاضطرب اضطراباً شديداً، ولكنه كان عازم الامل على فتح بلاد الشام، فتقدم بفرقة من جنودها لفتحها، فاستولى على العريش وغزة ويافا، ثم اقام الحصار على عكا، فلم ينل منها مناه وانثنى راجعاً بعد ان تفشت الامراض والاوبئة في جنوده ويأس في فتحها، فترك المدن التي فتحها وعاد الى مصر ومنها سافر الى باريس بعد موقعة ابي قير الهائلة، واوكل قيادة الجيش الى القائد كليبر الذي قتل فيما بعد على يد رجل مصري. وقد قاسى نابليون في اثناء هربه من مصر اخطاراً كبيرة، وكاد ان يقع اسيراً في قبضة الانكليز الى ان وصل الى فرنسا في اواخر سنة ١٧٩٩.

ولما توجه الى باريس وجد حكومة الديركتوار في حالة سيئة لعدم وجود رئيس لها فيه المؤهلات لهذا المنصب الكبير، فأخذ في السعي لقلب الحكومة وتشكيل غيرها، وساعده في المسعى اخوه لوسيان وبعض من يميلون اليه. فنجح في فكرته بعد ان ابطل حكومة الديركتوار واقام حكومة الكونسولات وهي مؤلفة من ثلاثة اشخاص يدعون قناصل، واستلم هو رئاستها فسمي قنصلاً اولاً لمدة عشر سنين وذلك في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ثم سمي قنصلاً مدى حياته في سنة ١٨٠٢، هذا وفي سنة ١٨٠٠ بعد استلامه منصب الرئاسة في الحكومة الجديدة استلم قيادة جيش ايطاليا (ويقصد هنا الجيوش الفرنسية التي اعدت لتحارب ايطاليا) وتقدم لمحاربة ايطاليا والنمسا لنكثهما العهود التي كان قد عقدها معهما قبل سفره الى مصر

فحاربهما وانتصر عليهما، ثم طلبت دولة النمسا الصلح فعقد معهما معاهدة لونفيل في ١٤ كانـون الثـاني سنة ١٨٠٠ ثم التفت بعد ذلك الى اصلاح الامور الداخلية، فوضع الانظمة القديمة واصلح كل ما افسدته الثورة فجذب اليه القلوب واحبتـه الامـة الفـرنسية محبة تفوق الوصف مما جعل مجلس الاعيان في فرنسا ان يقرر بالاجماع اقامته امبراطوراً وان يستلم حكومة فرنسا بصفته الامبراطورية. وفي ١٨ ايار سنة ١٨٠٤ سار اعضاء ذلك المجلس الى سان كلو ليقـدمـوا قرارهم الى نابليون بونابرت، وكان قد استعد للقائهم، وريثما وصلوا اليه وقف امامه كامبسز رئيس المجلس وبعد ان ادى واجبات التعظيم قال ما معناه:

مولاي..

إن المحبة المتينة التي تأصلت لك في قلوب الامة الفرنسية قد ساقتها منذ اربع سنوات الى ان تسلم لجلالتك مهام حكومتها، وقد نص نظامها بان يجعـل في يدك انتخاب خلف لك. وان اللقب الذي يعطى لك الآن هو اعظم من الاول انما هو لاعلاء شأن الامة وللقيام بحق واجب جديد اظهاراً لاحترامها العظيم وحبها الذي هو كل يوم في ازدياد، ويحق للامة الفرنسية ان تفرح فرحاً شديداً وتسر سروراً عظيماً لدى تأملها في السعادة التي نالتها حين ساقتها العناية الالهية الى طرح نفسها بين يديك. ولقد كانت جيوشنا مكسورة ومـاليتنا ضائعة والامن العمومي مفقوداً، وما بقي من عظمتنا القديمة واقعاً تحت منازعات الاحزاب، وكانت القواعد الدينية والادبية في ظلام حالك، فاعـدت الى راياتنـا النصـر ومهـدت سبيل الانتـظام والتـوفير في النفقات واخمدت بحكمتك هيجان الاحزاب وبفرط حذقك وقوة تدبيرك حملت الامة على محبة سلطان اقيم لراحتها وارتفاع شأنها بعد ان كانت في ثورة عارمة لا تعرف آخرتها.

ولما انتهى من القاء نص خطابه تعالت الهتافات في القصر وما حوله تحيي الامبراطور الجديد معربة عن رضاءها بتعينه بهذا المنصب الكبير.

وقد اجاب نابليون على الخطاب بقوله :

انه يقبل هذا اللقب مادام انه ينفع مجد الامة وانه يترك لها وضع نظام الارث ويؤمل ان لا تندم فرنسا على منح عائلته هذا الشرف ويود ان لا يكون موجوداً مع احد من نسله في يوم لا يستحق فيه حب الامة .

وفي شهر ايار كتب الى البابا بيوس السابع يطلب اليه المجيء لتتويجه في باريس وهذه ترجمة ما كتبه اليه :

ايها الاب الاقدس . .

إن محاسن التأثيرات التي ظهرت في شعبي والآداب الجليلة التي بدت منهم بارجاع الدين قد دعتني الى ان ارجو من قداستكم بان تبرهنوا من جديد على ميلكم الى دولتي والى هذه الامة العظيمة في حالة هي من اعظم الاحوال خطراً فأرجوكم ان تحضروا للقيام باجراء صفة دينية لاعظم عمل وهو مسح الامبراطور الاول الفرنسي وتتويجه ولا شك ان قيامكم بهذا الامر يكسب الاحتفال رونقاً جديداً وانتم تعلمون حبي لكم الشديد القديم العهد فيمكنكم ان تدركوا شدة سروري بالتمكن من تأكيده والله سبحانه وتعالى يديمكم لادارة الكنيسة المقدسة بحفظ وامان .

وقد قبل البابا دعوة نابليون له وحضر الى باريس ونزل في شقة من قصر التويلري .

وفي ٢ كانون الاول سنة ١٨٠٤ تم تتويج الامبراطور نابليون الاول والامبراطورة جوزفين في كنيسة نوتردام باحتفال كبير وزينة باهرة فأصبح بونابرت امبراطوراً رسمياً على فرنسا .

● ● ●

في هذه الاثناء كان صيت مدام ريكاميه يتعاظم ويشيع من يوم الى آخر، حتى اصبح ملء الافواه يتحدث به الخاص والعام ويذكره الباريسيون مقروناً بكل تجلة واحترام ، لعفة صاحبته وطهرها مع ما كانت عليه من الجمال الساحر الذي يسبي العقول ويخلب الالباب .

ولم يكـن نابليون رغماً عما اشتهر به من الخلق الحربي الجاف بمعزل عن التأثر بجمال هذه الفاتنة، التي سميت بحق جولييت السماوية والالهية. لانهـا لم تكن تقترب من انسان مهما صلد قلبه وتحجرت مشاعره وصلبت عواطفه إلا ونفثت في فؤاده سحر جمالها وقيدته بين أسرى صبابتها وغرامها.

في احدى الحفلات التي اقيمت في قصر لوسيان بونابرت وقعت عين نابليون على هذه الفـاتنة، وقد كان اخوه وقتئذ وزيراً للداخلية، فاضطرب تحت تأثير نظراتها الساحرة، لكنها مرت به مداعبة لعوباً كما مرت بغيره دون ان يعلق بذهنهـا منه شيء. فامتعض القنصل الاول من عدم اكتراثها به، وصمم على اذلالهـا واخضاعها لارادته مهما كلفه ذلك، وكان الزمان خير معوان له، فاتكل عليه وسلمه مقاليد اموره ليفعل بها ما يشاء، ولكن الحظ الذي يلازم انساناً لا يتخلى عنه دقيقة واحدة، فقد كان ابو جولييت مديراً عاماً للبريد الفرنسي وكان ملكي النزعة، فساعد على ايصال المكاتبات للحزب الملكي المناوىء للحكم القنصلي، فاكتشف أمره وقبض عليه واودع السجن ليحاكم في اليوم التالي بتهمة الخيانة العظمى.

كان وقع هذا الخبر على جولييت الفاتنة كبيراً، فسعت لدى اصدقائها العديدين ملتمسة منهم عضداً لها وسنداً، فتوسط لها الجنرال برنادوت وقادها الى قصر التويلرى لمقابلة القنصل الاول الذي كان وقتئذ الحاكم بأمره في كل فرنسا ـ وهكذا شاءت الاقدار ان تضع مرة اخرى الحمامة الوديعة امام النسر الجارح ـ فتلقاها نابليون بالاكرام والحفاوة وامر بالافراج عن الذي تظنه اباها في الحال وامر بحفظ الدعوى، ولم يطاوعه قلبه المحب ولا عواطفه الولهى على مناوأة آلهة الجمال التي كان ظهورها وحده كافياً لشل كل حركة عدائية نحوها وتحويلها الى رعاية لها واسراع في تلبية رغباتها.

ومـرت الايام سراعـاً مقتـطعـةبيديهـا اجزاء الحياة البشرية اللاهية، واصبح نابليون امبراطوراً عظيم القدر كبير الحول والطول، لا يحول بينه وبين مرامـه حائل، ولا يقف عائق في سبيل ارادته مهما كانت عزيزة المطلب،

فضرب معارضيه بيد من حديد فقتل منهم من رآه يستحق القتل، وشرد منهم من وجده قليل الوزر ضعيف الذنب، وكان من بين الفئة الاخيرة مدام دى ستايل التي سلكت طريق المنفى غير آسفة إلا على فراق صديقتها الوفية مدام ريكامييه.

ورغماً عن السؤدد والمجد اللذين بلغ اليهما نابليون لم تبرح من ذهنه جولييت الفاتنة، فعرض عليها ان تكون وصيفة لزوجته الامبراطورة لتكون دائماً بقربه فأبت، فألح عليها بذلك في مقابلة جرت بينه وبينها مبدياً لها مشيئته الامبراطورية التي لا ترد فرفضت، فضاق صدره من تجنيها ودلالها عليه وعزم على اخضاعها لامره واذلالها لارادته بكل الطرق التي يراها تتوافق معه.

كان من نتيجة هذا الموقف انها اصبحت عرضة للاضطهاد الشنيع، فأشيعت الاراجيف الكاذبة لثلم شرفها واساءة سمعتها، واذاع ذات يوم اعوان السوء في انحاء باريس ان بنك ريكامييه الشهير على وشك الافلاس، وقد قطع بنك فرنسا عنه كل معونة مالية مما ادى الى احراج مركزه، فأسرع الناس اليه تسحب الودائع الموجودة فيه، وتهافتوا عليه من كل صوب حتى اصبح عاجزاً عن تلبية كل طلباتهم وأوشك ان يقدم دفاتره.

وكانت الحالة حرجة ولا ينقذها غير الامبراطور الذي منع المدد عن مصرف ريكامييه بأمر منه، فتوسلت جولييت الى جينو حاكم باريس ان يستدر عطف نابليون، لكن الامبراطور رفض ملتمسه صائحاً بشماتة:

(لم يوضع مال الامة لمساعدة اناس يبذرون الاموال تبذيراً فينفقون في السنة ٦٠٠٠٠٠ ألف فرنك على ملاذهم، ولست انا عشيقاً لمدام ريكامييه لانقذها من هذه الورطة).

فأفلس مصرف ريكامييه وسقطت جولييت من ذروة الثراء الى حضيض الفقر.

ولما كانت المصائب لا تأتي فرادى، فقد تبع ذلك موت امها. وعندما احست

هذه بدنو اجلها ارادت اطلاع ابنتها على سر مولدها والاستسماح منها عما جنته عليها فقالت لها: (أرجو منك عفواً يا جولييت، فاني لم احضك على مثل هذا الزواج إلا لعلمي بأن دقائق ريكاميه كانت معدودة . .) ولم يمهلها الموت لتبوح لابنتها بسرها بل عاجلها قبل ان تتم كلامها، فذهبت حاملة معها ذلك السر الذي كان السبب في تنغيص حياة ابنتها الجميلة. فظنت هذه ان ما قالته والدتها لم يخرج عن حد هذيان الحمى فلم تعلق عليه اهمية تذكر.

● ● ●

حين تكاثرت عليها هذه النوازل، ذهبت الى صديقتها مدام دى ستايل في قصرها الكائن على شاطىء بحيرة ليمان في سويسرا، فقابلت هناك الامير اوغست البروسي فتدله هذا بحبها ودنت به فصارحها بما يتأجج في قلبه من نار هواها، وكانت جولييت وقتئذ في الثلاثين من عمرها وقلبها لم يعرف الحب بعد، لكنه خفق بشدة عندما طرقت اذنيها كلمات الامير وشعرت بعاطفة جديدة لم تعرف كنهها قد اختلجت بين جوانحها.

صارحها بحبه لها وطلب منها الكتابة الى زوجها وحضه على طلاقها لتتزوج بمن اختاره قلبها، ففعلت ذلك وفؤادها يكاد ينفطر حزناً على مفارقة ريكامييه، فورد اليها منه جواب يخبرها فيه بأنها قاسية القلب لا ترق لحاله ولا ترحم، وانه اسبغ عليها خيراته كلها حتى لم يبق لديه منها شيء، فاذا ارادت ان تنبذه الآن وقد اصبح فقيراً تعساً فانه يقبل ذلك حباً بها وابقاء على هنائها وسعادتها.

وبعد الذي قرأته ابت عليها مروءتها التخلي عنه، فذهب الامير اوغست وهو دامي القلب منفطر الفؤاد، فشيعته وهي تقول في نفسها: هذا هو الرجل الوحيد الذي احببته.

ودفنت من ذلك الوقت غرامها في اعماق قلبها، فأخذ يقرض حبل حياتها حتى آذنت نضارتها بالذبول، فقد تولاها أرق شديد فشرعت تتعاطى الافيون بناء على اشارة اطبائها واكثرت منه.

ولما رأت ان الموت يتهرب منها، تناولت كمية كبيرة من الافيون وهي واثقة من انها ستجد فيها الراحة الابدية. لكنها لم تكد تقربها من فمها حتى انتزعها منها زوجها أو بالاحرى ابوها الذي كان ساهراً عليها والقاها بعيداً وهو يصيح: ابنتي.. ابنتي!!

فهل آن لتلك التعسة ان تعرف كنه سر الذي كان ينطوي عليه صدر ذلك الاب الذي تدعوه بزوجها؟

لا! فقد ابت الاقدار إلا حفظه وعدم اطلاعها عليه، اذ حالما شرع ريكامييه يفضي اليها به، دخل (ابوها) برنار، وكأنها كانت وقتئذ بين الشك واليقين من جهة نسبها وصلتها بريكامييه، فأخذت تنقل طرفها من زوجها الى برنـار ابيهـا، حتى استقر على هذا الاخير، ففتحت له ذراعيها وصاحت: ابي.. احبك من صميم فؤادي.

فوضع ريكامييه رأسه بين يديه وتمتم: لقد آن اوان العقوبة.

وتوالت السنون، ولاشت احزان جديدة هذه المحن والرزايا، ولكن حقد نابليون عليها لم يخمد له اوار ولم تطفأ له نار، بل ظل اضطهاده ملازماً لها حتى جردها من البقية الباقية لها من حطام هذه الدنيا، ولم يكتف بذلك بل نفاها خارج فرنسا، فقبلت ذلك بصبر وجلد حفظاً لسلامتها.

ولمـا دالت دولـة هذا الجبـار رجعت الى باريس وقـد اشرفت على الاربعين، فاعتزلت العالم في دير الابيد دي بوا، ولكن مأواها لم يلبث ان اصبح منتجعاً لكل رجال العلم والادب في مقدمتهم الفيكونت دى شاتوبريان.

وحين ناهزت السبعين عاماً وذبلت زهرة جمالها وذوى غصن بهائها، وضعف بصرها حتى اوشكت ان تصبح كفيفة النظر، واختطف الموت كل قريب لها ومعين، عرض عليها شاتوبريان الزواج، فتناولت مرآة وتطلعت فيها بعينين كادت السنون والاحزان تطفىء نورهما، فالفت ذلك الوجه الصبوح الفتان قد تجعد، وذلك النظر الساحر قد خبا ضوءه فتنهدت وقالت له:

ايهـا الصديق. . ان حبك لي هو آخر زهرة تينع في طريق حياتي، ولكن اصوات من سبقوني الى عالم الابدية ترن في اذني طالبة مني ان ألبث كما كنت مدام ريكامييه، ومع ذلك فأية فائدة لنا من ضم قلبينا وجمع جسمينا ونحن على ابواب القبر؟

● ● ●

تلك هي حياة مدام ريكـامييه التي كانت فاتنـة اشبه بنرجسة بيضاء ناصعة، هبت عليها اعاصير هذه الحياة بسمومها ولفحاتها، لكنها لم تنل من نقائها، ولم تغير من اريجها العطر، الذي ظل فياحاً بعطر الطهر والعفاف حتى اتت عليه عوادي الـزمن. وفي مثـل هذه القصص نرى ان الـوقـائـع النفسـانية هي اشكـال، اعني وحـدات عضـوية تنفـرد وتتحدد في الحقل المكـاني والـزمني للرؤية أو للتمثل. فالاشكال مرتبطة، في حالة الرؤية، بمجمـوعـة من العـوامـل الموضوعية، بطائفة من المثيرات، إلا انها قابلة للانتقال، اعني ان بعضاً من خصائصها تبقى في تغيرات تؤثر، بطريقة ما، في جميع هذه العوامل. فالاشكال يمكن ان تظهر بواسطة تشابك داخلي، واجـزاء أو اعضـاء طبيعية تملك ضمن الكل وظائف محددة وتؤلف داخله وحدات أو اشكالاً على صعيد ثان.

إن رؤية مختلف انواع العناصر ومختلف انواع العلاقات تتطابق مع انماط مختلفة لتنظيم الكل ومرتبطة بشرائط موضوعية وذاتية، في آن واحد. ان التطابق الذي يمكن اجراؤه بين الاعضاء الطبيعية لكل متشابك وبعض العنـاصر الموضوعية لا يستقر، عامة، عندما تعود هذه العناصر نفسها الى مجموعة اخرى موضوعية. ان جزءاً في كل هو غير هذا الجزء المعزول أو الذي ضمن كل آخر، بسبب الخصائص التي يستمدها من مكانه ووظيفته في كل منهما. ان التغيير في أي شرط موضوعي يمكن تارة ان ينتج تغييراً موضعياً في الشكل المرئي، وطوراً ان يظهر بتغيير في خصائص الشكل الكلي.

حين يذكر اسم القرن الثامن عشر، يتصور المرء على الفور صالوناً

مملوءاً بالتحف الفنية الشائقة، والاثاثات الجميلة المقدسة الجوانب، والاغطية والاستار الحريرية تتفتح فيها الازهار كما تتفتح في الحدائق.

كان كل شيء في صالون مدام ريكامييه يدعو الى الحب ويوحي بالتمتع. فقد تحررت المرأة من الازياء الثقيلة التي كانت شائعة في البلاط القديم، وارتدت اثواباً في شكل سلاسل تبرز تقاطيع بدنها، وتظهر بياض عنقها وذراعيها، وتزيد في رونقها وبهائها. تعلمت المرأة كيف تستخدم المساحيق، تضاعف بها جمالها وتخفي بوساطتها آثار السنين.

كما كان الرجل يرتدي اثواباً من المخمل، ويرسل شعره خلف رأسه، ويعقده بشريط أسود فيبدو ساحراً وعليه رشاش البودرة. . كان الرجل فاتناً كالمرأة. . وكان كل منهما لا يعيش إلا للتمتع باللذات والتمتع بأحاديث الصالونات.

اما الجنسان ففقدا حب العواطف العظيمة. . وتبدل الزمن واختفت (موضة) المجادلات اللاهوتية، وحلت محلها بين الطبقات الرفيعة (موضة) المناقشة في الموضوعات العلمية. وشاعت مطالعة القصائد الشعرية التافهة والقصص الصغيرة السطحية، واصبح الحب نزوة عارضة.

لقد تحللت الاخلاق وفسدت المشاعر، وجرت العادة ألا يحب الرجل امرأة واحدة ويخلص لها. بل يتنقل من هذه الى تلك، ولا غرض له سوى اللهو والتمتع. هذه هي الصورة الغالبة لما كان عليه القرن الثامن عشر - قبل ظهور الفيلسوف جان جاك روسو - صورة قوم طائشين عابثين يتخذون من الحب ملهاة لحواسهم وعقولهم. وهذه الصورة نراها واضحة المعالم في مسرحيات ماريفو، وفي بعض روايات فولتير، وفي بعض الاقوال المأثورة عن العلامة بوفون.

وليس ثمة شك في ان ادماج العواطف في الحب، كان اذ ذاك شيئاً محتقراً وباعثاً على السخرية. . كان دليلاً على عقل قاصر، وروح صبيانية، ونفس ساذجة، لا تستحق غير الابتسام والشفقة. كان الشعور، بأبدية الحب

يعتبر نقصاً في الذكاء، وكان الايمان بوفاء المرأة أو وفاء الرجل برهاناً على الحماقة والبله. وكانت فكرة استمرار الحب ابعد ما تكون عن النفوس والعقول.

في ذاك الوقت لم تكن الغاية من العلاقات بين الجنسين إلا مرضاة احساس طارىء، وولع وقتي، وجاذبية مصيرها المحتوم الى الزوال السريع. لذا كان الرجال والنساء يحبون بالعقل فقط، ومن المعروف ان العقل وحده لا يكفي للاحتفاظ بامرأة واحدة.

فالتنقل من حبيب الى حبيب كان شائعاً بين النساء والرجال، وسهولة الاتصال كانت شائعة ايضاً كسهولة الانفصال والقطيعة، فترتب على ذلك ان فقد الحب لذته عند طائفة كبيرة من العشاق المستمتعين العابثين، وعافته نفوسهم، واشمأزت منه في مظهره العادي، وتاقت الى تبديله والتفنن فيه واضافة بعض العناصر الجديدة عليه كي لا يظل متشابهاً في صوره والوانه.. اولئك العشاق الذين افسدت الملذات عقولهم لفرط انهماكهم فيها، والذين الفوا الحب المادي ولم تعد تقنعهم بساطته، ارادوا تجديده فادخلوا عليه لذة اخرى وهي لذة التعذيب.. تعذيب الشخص الذي يحبون، تعذيب المرأة بأشعارها بذلها وفضيحتها وعارها.. تعذيب المرأة تعذيباً جثمانياً يسيل منها الدموع والدماء كما كان يفعل المركيز دى ساد. ولا ريب ان هذا هو احط انواع الحب، وابلغها دلالة على التحلل والفساد.

في هذا الجو عاشت مدام ريكامييه، بعد زواجها من والدها ـ بدون ان تدري ـ وهي معذبة النفس، بين ان تجاري وضعها كونها زوجة، وبين عواطفها واحاسيسها المؤجلة، فكان ان صعدت ميولها، وابرزت جمالها وفتحت بيتها صالوناً للادباء والعظماء. أليس مونتسكيو هو القائل بان كل شيء يمكن عمله في فرنسا بواسطة النساء فهن يشكلن (دولة جديدة ضمن الدولة) وكان يشير بهذا الى حياة الصالونات.

إن مدام ريكامييه عانت بين جوها الداخلي والخارجي الشيء

الكثير. . بين اعتبار الانوثة (طفولة مستمرة) تبعد المرأة عن (النموذج المثالي للعرق) ـ كما يشير اوغست كونت ـ بدعوى ان هذه الطفولة البيولوجية تقود الى ضعف فكـري. والدور الوحيد لهذا الكائن العاطفي المنفعل هو دور الزوجة وربة البيت، فلا يمكنها بشكل من الاشكال منافسة الرجل.

أكان يقارب بلزاك في منطقه دور مدام ريكامييه في الحياة حيث يقول في كتابه فسيولوجية الزواج: (ان مصير المرأة ومجدها الوحيد هو في دفع قلوب الرجال على ان تخفق لها). ولكن تبتعد المرامي هنا بين الاثنين؟

إن الانسـان حين لا يستطيع ان يلعب بالكرة فانه يكثر من مشاهدة مبارياتها، ومدام ريكامييه المحرومة من الحب، كانت تريد ان يجتمع لها صفوة الرجال وتثير غيرتهم ولكنها لا تريد وصلاً بهم، فهي ملك واحد منهم.

اما بلزاك فهو الذي يرى ان المرأة بالنسبة اليه متاع منقول يحصل عليه عن طريق العقد، ولا تعتبر سوى ملحق بالرجل. ويحث بلزاك الزوج على ابقاء المرأة في حالة الخضوع التام، وعليه ان يرفض تعليمها وتثقيفها وان يمنع عنها كل ما من شأنه تطوير شخصيتها وان يفرض عليها ثياباً غير مناسبة وان يجبرها على نظام يضعف جسدها.

ولكن بلزاك يعوض على النساء، تجاه هذه الشدة، باحاطتهن بكل التصرفات المهذبة، قائلاً: (المرأة المتزوجة عبدة ينبغي لنا ان نعرف كيف نرفعها على العرش).

مثل هذه الافكار نطقت بها البرجوازية التي اشتد عداؤها للنساء بعد مجون القرن الثامن عشر وضد الافكار التقدمية المهددة لها.

هل نكتفي بما ذكرناه عن محنة مدام ريكامييه النفسية، وهي محنة تقتضي المزيد من التحليل النفسي لمثل هذه المرأة التي عاشت في هذا الجو العاصف.

في رأينا ان مدام ريكامييه لم تعرف أو تتأكد من ان زوجها كان والدها، فهي لو عرفت هذا الامر لكانت تصرفاتها كلها معاكسة لما عاشتها.

إن معرفة المرء ان الناس قد خانوه تجعله يمعن في الخيانة، فهو يريد ان يعوض ما اصابه من نكسة. ويكمن اساس النظرية الانسانية في الدافعية فيما يسمى بهرمية الحاجات التي أشار اليها ابراهام ماسلو، ويمكننا تقديم موجز مبسط لهذه الهرمية فيما يلي:

١ ـ الحاجات الفسيولوجية (دوافع البقاء)

٢ ـ حاجات الامن (دوافع الامن)

٣ ـ حاجات الانتماء (حاجات التقبل والتواد)

٤ ـ حاجات التقدير (دوافع المكانة والانجاز)

٥ ـ حاجات تحقيق الذات (تحقيق لما يكون قادراً على تحقيقه)

ويجب ان يحدث اشباع ولو جزئياً عند أي مستوى قبل ان يصبح المستوى التالي ذات اهمية بالنسبة للفرد. ويرى الاخصائي النفسي الذي يتبع هذه النظرية ان تحقيق الذات هو الهدف النهائي لكل شخص.

لم يكن مستغرباً ان تكون شخصية مدام ريكاميه عنواناً لعشرات اللوحات الفنية وللدراسات الادبية والنفسية، وان يذكر اسمها في كل مراحل الثورة الفرنسية، فهي قد اعطت شيئاً جديداً لدارسي الطباع الانسانية. . اقل ما يمكن قوله هنا تساؤلنا فيما اذا عانت من غرامياتها، وهي من المشاهير، أو انها لم تعرف الغرام!!

الجواب من خلال سياق النص؟

المراجـــع

باللغة العربية

١ ـ اصول الطب النفسي، د. فخري الدباغ، دار الطليعة ـ بيروت، ١٩٨٣.

٢ ـ تاريخ الحب ورسائله الخالدة، ابراهيم المصري، كتاب الهلال ـ القاهرة، ١٩٦٣.

٣ ـ دستويفسكي: حياته المضطربة، حسن محمود، سلسلة اقرأ، دار المعارف بمصر، ١٩٥٦.

٤ ـ دانتي، مصطفى آل عيال، سلسلة اقرأ، دار المعارف بمصر، ١٩٥٦

٥ ـ علم النفس الفردي، اسحق رمزي، دار المعارف بمصر، ١٩٤٦.

٦ ـ نفسيات المشاهير، سمير عبده، دار النصر ـ بيروت، ١٩٨٦.

٧ ـ آفاق الفكر المعاصر، غاتيان بيكون، ترجمة عدد من المترجمين، منشورات عويدات ـ بيروت، ١٩٦٥.

٨ ـ الانسان والحضارة والتحليل النفسي، ويلهلم رايش وآخرون، ترجمة انطون شاهين، وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق، ١٩٧٥.

٩ ـ حكمة الغرب، برتراندرسل، ترجمة د. فؤاد زكريا، الجزء الاول، سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
١٠ ـ دستويفسكي: نقد ودراسة، ستيفن زفايغ، ترجمة فريد انطونيوس، دار ابن المقفع ـ دمشق، ١٩٥٥.
١١ ـ مقدمة في علم النفس، أرنو. ف. ويتيج، ترجمة عدد من المترجمين، دار ماكجروهيل للنشر ـ القاهرة، ١٩٨٣.
١٢ ـ مجلة الحوادث ـ بيروت، اعداد ٢٧/ ٧/ ١٩٧٣ و١١/ ١/ ١٩٧٤ و١٨/ ١/ ١٩٧٤ و١٥/ ٢/ ١٩٧٤ و٢/ ٥/ ١٩٨٠.
١٣ ـ المجلة العسكرية ـ دمشق، سمير عبده، آب ١٩٦٤.
١٤ ـ مجلة المجلة ـ القاهرة، يونيه ١٩٦٠.
١٥ ـ مجلة الهلال ـ القاهرة، شباط ١٩٥٠ وشباط ١٩٦٧.
١٦ ـ مجلة العلوم ـ بيروت أيار ١٩٥٨.
١٧ ـ مجلة حماة الوطن ـ الكويت، سمير عبده، نيسان ١٩٦٤.

المراجــع

باللغة الانكليزية

18 - The Rise and of the third Reich. William. L. Shirer. Pan Books, London 1964.

19 - The Intimate Sex Lifes of Famous People. Irving Wallace, Amy Wallace, David Wallechinsky & Sylvia Wallace. Hogarth Press. London 1980.

20 - The Prime of Life. Simone de Beauvoir. Penguin Books, London 1962.

21 - The Second Sex, Simone de Beavoir. Square Book, London 1963.

22 - Nature of the Second Sex. Simone de Beavoir Square Book, London 1963.

23 - Seven Pillars of Wisdom. T. E. Lawrence. Dell Pubishing Co. New York 1962.

24 - Psychology of Sex, Havelock Ellis. Pan Book, London 1965.

25 - New Standard Encyclopedia - Chicago.

26 - Readers Digest Jume 1985.

الفهرس

المقدمة	٥
غراميات المشاهير في التحليل النفسي	٧
أدولف هتلر	١٤
نابليون بونابرت	٣٢
لويس الرابع عشر	٥١
ت. لورانس	٧١
فيدور دستويفسكي	٨٠
دانتي	١٠٠
يوهان غوته	١١١
فيكتور هيغو	١٣٠
فرانز كافكا	١٤٢
فولتير	١٥٢
جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار	١٥٨
مدام ريكامييه	١٦٨
المراجع	١٨٧

للمؤلف

من منشورات دار الكتاب العربي
دمشق - سورية

١ - صناعة تزييف التاريخ
٢ - العلاقة المتبادلة بين العبقرية والذكاء
٣ - الحب والزواج: تحليل مائة حالة نفسية
٤ - مشاكل الناس: تحليل مائة حالة نفسية
٥ - المرأة العربية: تحليل مائة حالة نفسية
٦ - التحليل النفسي لرواد علم النفس الحديث
٧ - التحليل النفسي للابراج
٨ - التحليل النفسي للجريمة
٩ - التحليل النفسي للجاسوسية
١٠ - التحليل النفسي لغراميات المشاهير
١١ - التحليل النفسي لحوادث غير عادية
١٢ - التحليل النفسي لحالة انتظار الموت
١٣ - التحليل النفسي للجنون
١٤ - التحليل النفسي للانتهازية
١٥ - تحليل خمسين حالة نفسية

SAMIR ABDOH

ROMANCES OF RENOWNED PSYCHO - ANALYSIS

Dar Al - Kitab - Al Arabi

Damascus - Syria

الكتاب الأول : ٢٠١٧/٨/١٣
Twitter : @abdullah1994

التحليل النفسي لغراميات المشاهير

في كتابنا هذا تناولنا سيرة بعض المشاهير من السياسيين والادباء، ملقين الاضواء على حياتهم الغرامية، ومن ثم محللين طبيعة تصرفاتهم هذه، بكل ابعادها، من الزاوية النفسية.

اننا نحب ان نقرأ اكثر ما نستطيع عن هؤلاء المشاهير، لان ذلك يجعلنا نتخلص من واقعنا العادي لفترة من الزمن، والهروب الى كتاب أو مجلة تهتم بالمشاهير هو جزء اساسي من حياة معظم الناس الذين تتركز اهتماماتهم على زواج المشاهير وطلاقهم وغرامياتهم وصراعاتهم، وفي اوقات الانشغال بهذه الامور ننسى مشاكلنا ونركز على اناس آخرين.

كما ان متابعة المشاهير تجعلنا نحس بالاهمية، وكأننا قريبون منهم، وكثيرون منا يمارسون احلام اليقظة حول الشهرة والمرأة، وحين يكتشف احدنا انه يشارك شهيراً نفس غرامياته، أو في بعض عواطفه، فان ذلك يساعده على الاحساس بالاقتراب منه.

ومما يجعلنا نهتم بالمشاهير هو انهم يجعلوننا متصلين بعصرهم، مقتفين خطاهم، مطلعين على مجرى الحياة التي كانوا يحيونها.

وهذا الكتاب مع كتبنا الاخرى، يغني المكتبة النفسية العربية بمواضيع يحتاجها القارىء، في تعميق ثقافته النفسية، وهو هدفنا الاول والاخير.

دار الكتاب العربي
دمشق ـ الحلبوني ـ مدخل فندق الشموع
هاتف: ٢٢٣٨١١ ـ ص ب: ١٢٣٤٤ دمشق تلكس/دمشق/٤١١٥٤١
القاهرة ـ مصر الجديدة ـ مساكن مصر للتعمير
شيراتون المطار المنطقة الثالثة عمارة ٢٢٠ شقة ٤ هاتف ٢٦٩٢٧٥١
دار الكتاب العربي
دمشق ـ سورية